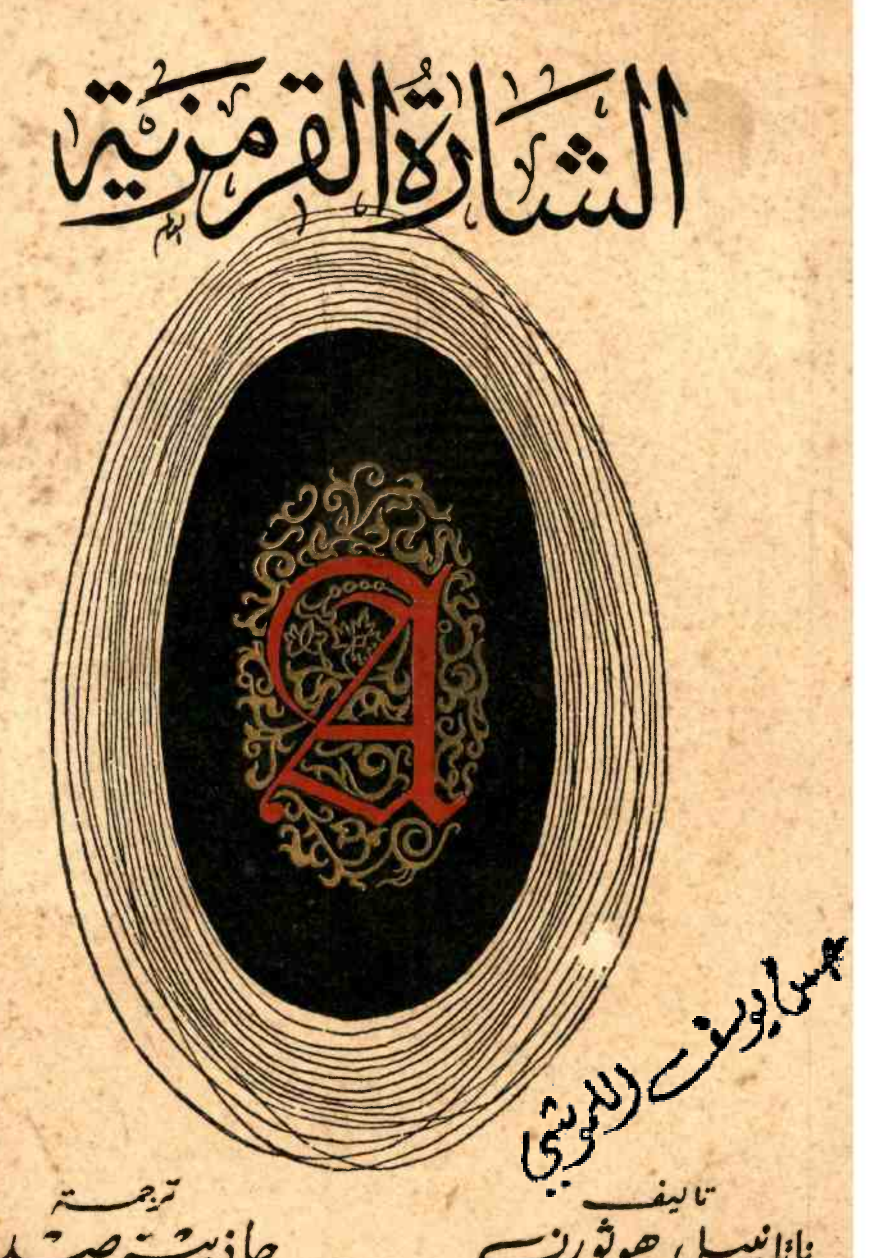
من القصص العالمي "٥"

الشارة القرمزية



تأليف
ناتانييل هوثورن

ترجمة
جاذبية صدقي

حسن يوسف الدويشى

الشارة القرمزية

محمد يوسف الكويتي

نشر بالاشـــتراك مع مؤسسة
فرانكلين للطبـــاعة والنشر
القاهرة — نيويورك

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الشارة القرمزية

تأليف

ناثانيال هوثورن

ترجمة

جاذبية صدقي

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٨

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تصــــدير

بقــلم

جاذبية صدقى

اجتمع المؤلف فى قصته « الشارة القرمزية » خصائص تماونت على أن تجعل من هذه القصة مثلا متفوقاً للعمل القصصى حين يتاح له عقل فيلسوف ، وروح أديب ، وقلم فنان .

فالقصة من جانب الفكرة والتحليل وليدة فلسفة متعمقة للحياة والأحياء ، ترتفع عن مستوى الوعظ الجامد ، أو النقد الجارح ، كما ترتفع عن مستوى السطحيات والظواهر التى تنكشف تفاهتها للحكماء وذوى البصائر . فالمؤلف فى قصته يغوص فى أعماق النفس البشرية ويتدسس إلى خفاياها ليستخلص ما يضطرب فيها من آمال وآلام .

أما القصة من جانب اللفظ والأسلوب فالمؤلف يبدو فيها أديباً قوى الأداء ، خلاب العبارة ، غنياً باللفتات البارعة الساخرة التى ينتقل فيها القارىء من إعجاب إلى إعجاب .

أما جانب التخطيط والمعالجة ، فالمؤلف فيه فنان أصيل يحسن الأخذ بزمان المشاهد والمواقف ، ويعرف كيف يمضى بها فى مهارة وحذق ،

على نحو طبيعى جذاب يثير شوق القارىء أبداً إلى المتابعة والمزيد .

أدار المؤلف قصته حول أبطال أربعة : قسيس زلّ ، وامرأة زلت معه، وزوج علم بالأمر فأخفى عن القسيس علمه به ، ولازمه ملازمة الظل ، ليعذبه بمحاولة انتزاع سره الذى يضنيه ، لابساً له ثوب الصديق الشفيق .

والبطل الرابع هو الطفلة التى أثمرتها الخطيئة ، فنشأت وفى تلافيف نفسها عقدة الشذوذ بينها وبين لداتها من الفتيات ذوات الآباء .

وثمة بطل خامس يسرى فى ثنايا القصة ، منذ استهلالها إلى ختامها ، متوهجاً ترجف له المشاعر . ذلك هو « الشارة القرمزية » علامة الخطيئة المعلقة على صدر المرأة التى أغواها الشيطان .

وحنكة المؤلف وحصافته تتجلى فى رسم شخصية القس — رجل الدين المتحفظ — بعد أن ركبه الإثم العظيم ، فنحن نرى كيف عاش فريسة للآلام النفسية تنهشه ، وكيف عذبه ضميره فى يقظته ومنامه ، وكيف كان يتلمس السبل إلى الخلاص فلا يجد من سبيل ، ونرى كذلك كيف كانت روحه المعذبة تتوقد حماسة وهو يسترسل فى عظاته الدينية على منصة الكنيسة ، ويده دائماً على قلبه كأنها شارة قرمزية للرجل الآثم ، تقابل الشارة القرمزية على صدر المرأة الآثمة .

وقوة خيال المؤلف تتجلى فى مصاحبته للطفلة سليلة الخطيئة منذ أن ولدت إلى أن شبت عن الطوق ، والكشف عن انفعالاتها النفسية وماطرأ عليها من أطوار ، وتصوير استجابتها للحياة من حولها ، وأسلوب

معاملتها لمن تلقاهم من سائر الناس وما حاولت أن تفهم به هذه « الشارة القرمزية » التى يتسم بها صدر أمها دون غيره من صدور النساء ، وكيف استطاعت أن تعقد الصلة بين هذه الشارة وبين يد القسيس الحانية على قلبه الجريح .

وعظمة المؤلف تتجلى فيما وسعته نفسه من مختلف الخوالج والمشاعر نحو الفضيلة ، والرذيلة جميعاً . . . نحو القسوة والحنان ، نحو الحب والشهوة ، نحو الطهر والإثم ، نحو الخير والشر . فقد استطاع هذا القلب البشرى الواحد أن يكون مسرحا لكل ما يعتور القلوب البشرية من صفات تسمو إلى أوج ، أو تهبط إلى الحضيض .

ومثالية المؤلف تتجلى فى كشفه عن دخائل المرأة حين تحب ، فهى تبلغ فى ميدان التضحية مبلغا لا يناله إلا من صفت نفسه من كل شائبة ، وهى تخلص لحبها التمس أصدق الإخلاص ، وهى تستطيع لذلك أن تبذل تضحيتها من أجل حبيبها عن طيب خاطر .

وإنسانية المؤلف تتجلى فيما تنطوى عليه جوانحه من إشفاق ورثاء للضعف الإنسانى ، ومن تقدير للخطيئة يجمع بين العدل والرحمة ، ومن حكمة بالغة فى استبطان العوامل والأسباب التى تحكم تصرفات البشر ، وتسوقهم إلى مصائر ليس منها مناص . وهذه الروح الإنسانية واضحة أتم الوضوح فيما تناول به المؤلف حياة أبطاله وما أحدق بهم من ملابسات قاسية مريرة .

والمؤلف لايترك جانبا من جوانب موضوعه إلا أشبعه تحليلاً وتعليلاً حتى أدق المواقف وأشدها حرجا يوفيها حقها دون تهيب، ولكنه مع ذلك أبق فى تعبيره، فقد جعل من قصته مثلا رائعا لعفة التعبير والتصوير، فعلى الرغم من أن القصة محورها خطيئة المرأة والرجل حين يميل بهما الغى مع الشيطان، فقد استطاع المؤلف أن يجرى هذا كله فى دائرة دقيقة لا تخدش حياء قارئة أو قارىء.

وأخيراً فإن بين القصة وبين حياتنا الحاضرة تباعدا فى الزمان والمكان، بيد أن القصة مع ذلك عصرية الطابع تستجيب لها النفوس، فالخيوط التى نسج منها المؤلف قصته خيوط متينة الصلة بالإنسانية الباقية على تتابع الزمان واختلاف المكان، والقارىء — كائناً من كان — يجد نفسه — وهو ماض فى قراءة هذه القصة — سابحا فى جو مأنوس له، مألوف عنده، موصولى بالمشاعر الإنسانية الخالدة!

المقدمة

بقلم
نيوتون آرفن

تلقى نيوتون آرفن — من مواليد ولاية انديانا — علومه فى جامعة هارفارد . وقبل أن يلتحق بهيئة التدريس الإنجليزية بكلية « سميث » كان مساعداً لرئيس تحرير « صحيفة العصر الحديث » . وقد قام السيد « آرفن » — وكان زميلا سابقا فى جامعة جاجنهيم — بكتابة بحوث قيمة فى النقد ومقالات شائقة عن « نثانيال هوثورن » فهو مؤلف الكتاب الذى نشر عام ١٩٢٩ بعنوان « هوثورن » ، وكتاب « ويتمان » عام ١٩٣٨ . وهو الذى أشرف على نشر « قلب مذكرات هوثورن » (١٩٢٩) وكتاب « قصص هوثورن القصيرة » (١٩٤٩) .

فى صيف عام ١٨٤٩ ، ألفى « هوثورن » نفسه فجأة وقد استغنوا عنه حيث كان يعمل مراقباً فى جمرك ولاية « سالم » . وهى وظيفة ظل يشغلها أكثر من ثلاث سنوات .

فقالت له زوجته :

— « الآن . . فى وسعك أن تؤلف كتابك ! »

وقد عمل « هوثورن » ذلك خلال الستة أو السبعة الشهور التالية . وما أقبل الشتاء حتى كان قد أتم عمله ، وفى مارس عام ١٨٥٠ ظهرت روايته « الشارة القرمزية » . وقد لاقت نجاحا كبيراً حال ظهورها حتى إن « هوثورن » الذى وصف نفسه بأنه . « أكثر كتاب أمريكا خمولا » أضحى أوسعهم شهرة، كما أضحى — بإجماع النقاد — أجدرهم بالاحترام .

وعندما قالت له زوجته « كتابك » كانت لا شك تشير إلى مشروع أدبى بينها وبين زوجها . وربما كان هذا اتفاقا بينهما منذ زمن بعيد . فإن « الشارة القرمزية » ليست وليدة فكرة طارئة عنت له خلال الأسابيع القليلة التى سبقت كتابته لها . وكتبه كلها ليست بنات أفكار طارئة خصوصاً روايته « الشارة القرمزية » . وأغلب الظن أن ليس هناك سوى القليل من الكتب لمؤلفين فى مثل قدرته تمتعت بفترة حمل — إذا كان فى وسعنا أن نقول ذلك — أطول مما تمتعت به روايته هذه التى تعتبر أعظم ما كتب . فإن جرثومتها — كما يقول « هنرى جيمس » — تولدت فى خياله منذ سنوات مضت . سنوات أطول مما لدينا من بينات . إذ أن المرء عندما يطلع على ما كتبه « هوثورن » فى مفكرته عام ١٨٣٦ عن فكرة لقصة يرى على الفور أنه يبشرنا بروايته العظيمة أو على الأقل بإحدى وجهاتها . فقد جاء بالمفكرة ما يلى :

« لإظهار تأثير الانتقام الناجح المتشفى . نفرض مثلا أن امرأة قاضت عشيقها لإخلاله بوعوده وأخذت منه المال على أقساط خلال سنوات

طويلة . ففى النهاية عندما يسقط الضحية مسحوقاً ، يكون المنتقم فى الغالب قد صار شيطاناً مصوراً لرغبات شريرة تتملكه . إذ أنها تضخمت حتى محت طبيعته كلها . فبذلك يكون الشر الذى لحق بالمنتقم أفظع مما لحق بضحيته » .

وبعد ثلاث عشرة سنة نرى المرأة المنتقمة وقد انقلبت رجلا اسمه « روجر شيلنجوورث » فى المأسـاة الخالدة . ولـكن المغزى فى حياة « شيلنجوورث » قد تنبأت به النبذة السابقة .

أما « هستر براين » فقد ظهرت فعلا من قبل فى أعمال « هوثورن ». ظهرت كالطيف السارى . المرتجف فى قصة له بعنوان « أنديـكوت والصليب الأحمر » التى أهداها عام ١٨٣٨ إلى آل « توكن » فقد صور فى هذه القصة اجتماعاً فى الساحة التى يجتمع بها أولئك القوم المتعصبون « البيوريتانز » لمحاكمة المخطىء منهم . ووقفت أمامهم شابة « .. نصيبها من الجمال ليس بقليل » . . أدانوها وقضوا عليها بوضع الشارة القرمزية على صدرها علامة على إتيانها الفاحشة . وفى العام عينه ومع هذه القصة ظهر عشيق « هستر براين » المـدعو « أرثر ديمسدال » فى مفـكرة « هوثورن » التى كتب فيها يقول :

« رجل يكفر عن خطيئته بأن يبدو لمن حوله فى أروع فترات حياته وأكثرها نجاحا . كل ظروف عمل الرجل الناجح فى أعين الناس ما هى إلا عذاب له وتـكفير عن خطأ دفين قديم فى حياته السالفة » .

وفيما عدا الطفلة « بورل » فإن كل الشخصيات الأساسية فى الرواية تنبأ بها مؤلفها من قبل . وفى السنوات التالية ظهرت دلائل أخرى فى المفكرات تشير إلى أن تلك الكوكبة من الدوافع . . والصور . . والشخصيات قد استبدت بعقل « هوثورن » استبداداً لا يقاوم . ودليلنا على ذلك تلك النبذة التى نسوقها من مذكرة كتبها « هوثورن » عام ١٨٤٤ عندما كان يعيش هو وزوجته فى « كونكورد » :

« حياة امرأة قضى عليها بحكم قانون الولاية القديم أن تضع على صدرها دائماً شارة قرمزية علامة على أنها أتت فاحشة » .

كان من البديهى أن الشابة الجميلة فى قصة «أنديكوت والصليب الأحمر» بالشارة القرمزية المطرزة بإتقان وفن على صدر ثوبها صارت شبحاً لم يستطع عقل «هوثورن» أن يتخلص منه . وفى السنوات التى مرت بين هذه المفكرة الأخيرة وبين عام ١٨٤٩ صارت الشارة القرمزية ... رمز الخطيئة ... محوراً مغناطيسياً قوياً فى خياله يجذب اليـــه — بقوة مطردة — كل الدوافع والشخصيات التى خلقت بادىء الأمر مستقلة عنه . وقد كان عقل «هوثورن» يعمل بدافع غريزى عن طريق الرموز — وخاصة الرموز التى تتخذ أشكالا جميلة مجسمة . وفى هذه الحالة ، أثبتت الإشارة الملونة البراقة أنهـا محور تتجمع حوله طاقات من الأسس العاطفية والخلقية . وكلها متأثرة بطابعه الخاص . فكان الشعور بالإثم مدار تفكيره بوصفه كاتباً خيالياً . الشعور بالإثم — أى إثم — يأخذ بتلابيب فاعله طوال عمره يذكره بفعلته بلا هوادة . . وبلا رحمة . كأنه أجبر على اتخاذ شارة ظاهرة سواء بسواء .

وهذه هى الطريقة التى كان لا بد أن تكفر بها « هستر براين » عن زلتها الوحيدة وانحرافها مرة عن الخلق القويم . ولكنه خفف حدة آلامها — وهذه إحدى خصائص « هوثورن » — حين جعل خطيئتها علانية . ففى رأيه أن آلامها أخف مما لاقاه رجل ظل إثمه خافياً — سواء أكان ذلك لأسباب طيبة أم سيئة . وقد كان هذا نصيب عشيقها الذى يشبه القديسين : « ديمسدال » فلم يكن رمز الإثم الذى اقترفه «ديمسدال» شارة يرتديها علانية أمام أعين العالم كله بتحد أو حتى بفخر ، ولكنه كان جرحاً عميقاً ملتهباً يخفيه على صدره تحت قميصه عن أعين كل الرجال ليعذبه فى الخفاء عذاباً متصلا مقيما . ولم يسترح « ديمسدال » وينزاح عنه ذلك العذاب المقيم إلا بعد أن « كفر عن خطيئته » بالكشف عنها أمام إخوانه .

وبينما يحدث كل هذا ، نرى عذابا أعنف من عذاب « ديمسدال » هو « أثر الانتقام الناجح » ذلك الأثر الذى وقع على « روجر شيلنجوورث » وقد تقوست كتفاه واعوجتا رمزاً لشره وهو جزاء يوقعه الله لا الإنسان . فمهما كانت بشاعة الجريمة التى اقترفتها «هستر براين» و«أرثر ديمسدال»، فهما لم يأتيا ما أتى « شيلنجوورث » ويعتبر أكبر كبائر الإثم ، غطرسة الروح وكبرياءها .

ومن بين كل هذه الأشياء تبدو الشارة القرمزية بكل تعقيدها وشؤمها رمزاً يسود الرواية لشمورقاتم بخطيئة البشر وللعذاب الذى يعقبها . ولم تبق الشارة مطرزة وحسب على صدر الثوب الذى ترتديه « هستر براين » بل

نراها تشكو لحم القس وتظهر على صدره فى هيئة جرح ملتهب .. ثم نراها مرة ثالثة تلتمع بطول الأفق وبنور أحمر فى مشهد المقصلة العظيم عند منتصف الليل . وقد يكون تكرار ذلك الرمز فى رواية الشارة القرمزية « ملائماً لذوق ناقد من الأوائل مثل « هنرى جيمس » . ولكن إذا استبد رمزما بخيال كاتب أضحى فكرة مسلطة على عقله . حتى «هنرى جيمس» نفسه ربما كان ينظر للأمور عامة نظرة أخرى فى الفترة الأخيرة من عمله بوصفه ناقداً . فنحن اليوم نعتبر الشارة القرمزية تسود رواية رومانتيكية لا واقعية . ومع أننا نشعر بها فى كل لحظة ونلتقى بها خلف كل ركن . ومع أنها الرمز الذى يسود الكتاب كله فإنها ليست الرمز الوحيد بل على العكس . نرى « هوثورن » يكشف باستمرار عن ميله وشغفه بأن يستقطر معنى رمزياً من أشياء مادية (مجسمة) أو صفات جسمانية . فالقارىء يصطدم بالزهور القرمزية التى تزدهر خارج باب السجن فى الفصل الأول من الرواية والتباين الذى بينها وبين النباتات القبيحة المنظر التى تنمو بمغزى وسط الحشائش أمام السجن ، كما لا ينسى المرء وصف الأعشاب القبيحة بأوراقها السوداء المسترخية والتى دأب « شيلنجوورث » على جمعها فى تجواله وحده . كما أن « هوثورن » يهوى المرآة كرمز فتبدو أكثر من مرة فى هذه الرواية — فى بريق الدرع اللامعة المعلقة فى قصر الحاكم « بيلينجهام » ، وفى مياه البحيرة الصافية على جانب الطريق والتى دأبت « بورل » الصغيرة على التحديق فيها بفضول .

وبعض هذه الأشياء ليس رموزا وحسب وإنما هى رموز من صنف خاص . وهذا قول صحيح بالنسبة للشارة القرمزية نفسها التى لها إلى جانب قوتها الرمزية قوة سحرية أيضاً . فاكتسبت بذلك صفات وقدرة غير طبيعية كالأشياء التى نجدها موصوفة فى الروايات الرومانتيكية والقوطية . والشارة القرمزية على قدم المساواة من حيث الخيال مع الصورة فى رواية « قصر أوترانتو » التى تدب فيها الحياة فجأة . . . ومع شجرة البيلسان بأوراقها المازفة فى رواية « الوعاء الذهبى » لمؤلفها « هوفمان » . . . ومع جلد الحمار الوحشى فى رواية « بلزاك » وهو الذى ينكمش شيئاً كل مرة يحقق فيها لأحد أملاً . وبفضل القوة السحرية للشارة القرمزية ينبعث منها ضوء ينير دهليز السجن القاتم أمام « هستر براين » فتسير على هداه .

وفى المقدمة التى كتبها « هوثورن » عن الجمرك يدعى أنه عندما وضع الشارة الحقيقية على صدره خيل إليه أنه يشعر بلسع حرارة حارقة .

وخلاصة القول أن فى أسـلوب رواية « الشارة القرمزية » نغمة الروايات الخرافية . ولا يتجسم هذا فى الشارة نفسها وحسب بل فى بعض الشخصيات أيضاً . مثال ذلك شخصية « شيلنجوورث » الذى له بعض صفات العالم الشرير فى الروايات القوطية ، كما له ما يجعله شبيهاً بالساحر الخبيث فى الأساطير . و « بورل » الصغيرة ما هى إلا عفريتة من عفاريت الأساطير فـكأنما خطت خارج كتاب من كتب « جريم » . ومع ذلك لا يسع المرء — بصفة نهائية — أن يصم هـذه الشخصيات ولا غيرها

بتلك الوصمة من حيث اقتباسها أو اشتقاقها . فلكل منها فى ختام الرواية طابعها الخاص . وتلك لمسة « هوثورن » الفنية وقدرته الرائعة .

ولا يفوتنا أن نشيد ببناء الرواية الجميل الملائم . ولا يدين «هوثورن» بهذا الفضل إلا لنفسه ولقدراته الخاصة التى هى فى الواقع براعة صنعة فى فن البناء القصصى اكتسبها بالتدرب والتمرين فى أوائل حياته الفنية . ويبدو أنه فكر فى « الشارة القرمزية » على أنها قصة طويلة وحسب عندما بدأ يكتبها ، مع أنها فى الواقع تمثل امتداداً طبيعياً سهلا دون تكلف للصيغة والأسلوب اللذين اتبعهما فى قصصه السابقة . ولكن روايته هذه أوفر وأغزر مادة من « ابنة راباسينى » وإن لم نستطع أن نقطع بأنها مختلفة الاختلاف كله عنها ، فإن أسلوبها يوحى بالدراما أو حتى بالأوبرا . حتى إن « هوثورن » نفسه عندما سمع أن هناك أوبرا أخرجت من قصته مال إلى الاعتقاد أنها ربما نجحت على تلك الصورة . وأضاف :

« مع أنها لا شك تفشل كمسرحية ! » .

وكلامه هذا صدق لا شك فيه . فإن « هوثورن » فنان أروع من أن يفرض مستلزمات وسيلة من وسائل التعبير على مواد وسيلة أخرى . فرواية « الشارة القرمزية » نثر قصصى لا مسرحى . ومع ذلك فقصصه صارت توحى أنه يقول لنفسه كما قال « هنرى جيمس » بعده :

« لأدخل عنصر الدراما عليها ... لأدخل العنصر المسرحى عليها ! »

والرواية التى نمت من تلك القصص — خلافاً لبقية رواياته — لها

طابع مسرحى لا يخطئه المرء . فالمبدأ الذى يبعث فيها الحيوية هو مبدأ التوتر المسرحى الفنى المتسلسل بحنكة ودراية — يتزايد من حادث كأنما يتزايد من مشهد مسرحى لآخر أو حتى من فصل فى مسرحية إلى فصل آخر ، كما أن هناك فقرات تهبط فيها الحدة الروائية عن قصد وفقرات أخرى وصفية وتحليليـــة أدت إلى اندماج فنى بين أجزاء الرواية لا إلى تشتيتها . وفقرات كهذه بعينها لا ينتظرها المرء فى مسرحية ، لـكنها ملائمة لرواية نثرية فى اللحظات التى يسمح فيها للتوتر عندما يبلغ مداه أن يهبط شيئاً . ومع ذلك فالمواقف المسرحية هى التى تسيطر على الحركة الأساسية فى الرواية . وقد نظمهـا ، ووقتها ، وشكلها بفن وقدرة كأى كاتب مسرحى عريق .

وهناك ثمانية من هذه المشاهد مجمعة بطريقة يستطيع المرء معها — إذا أراد — أن يعتبرها تؤلف فيما بينها خمسة فصول لمسرحية تامة . ولو كان الأمر كذلك ، لـكان الفصل الأول هو مشهد المقصلة الافتتاحى . ثم المشهد الذى يليه حيث تلتقى «هستر براين» فى السجن مع «شيلنجوورث» ويتبع ذلك خمود وركود فى الفصلين الرابع والخامس من الرواية النثرية فنعتبر الفصل الثانى من المسرحية هو المشهد فى قصر الحاكم «بيلينجهام» والمشهد فى الفصل العاشر من الرواية . أما فصل المسرحية الثالث حيث التوتر على أشده فهو بلا شك المشهد العظيم الذى تم فوق المقصـلة عند منتصف الليل . وأما المشاهد التى تلتقى فيها «هستر براين» مع «شيلنجوورث»

ثم مع « ديمسدال » (فى الفصلين الرابـــع عشر والخامس عشر من الـكتاب) فتؤلف فيما بينها الفصل الرابع من المسرحية . وأما الفصل الخامس والأخير فهو طبعا مشهد المطلة فى « انجلترا الجديدة » عندما يقف « أرثر ديمسدال » مرة ثانية فوق المقصلة ويعترف على رءوس الأشهاد بجريمته التى عذبته طويلاً عذاباً قاسياً عنيفاً .

وقد أشاد الجميع عن حق بإحساس « هوثورن » العميق لفن البناء القصصى الذى جعله يركز مشاهد الرواية الأساسية الثلاثة فى نقطة واحدة فوق المقصلة فى بلدة « البيوريتانز » . وبذلك بدأت حركة الرواية وانتهت . فى هذه البقعة الـكئيبة — مع عوده إليها مرة أخرى فى منتصف القصة — ويلاحظ أيضا أن حركة الرواية الوسطى هى الوحيدة التى تمت فى الليل البهيم مع أن مشهد السجن الأول كان كذلك ... « .. والليل يقترب » فبشعور يقظ يعى مرارة التناقض ، تدور معظم الحركة فى هـذه المأساة القاتمة الـكئيبة فى وضح النهار ... بل فى الربيع بوجه خاص . كما أن أكثر حوادثها تتم على مرأى من جموع النـاس ، حتى المشهد فى قصر الحاكم « بيلينجهام » كان مشهداً مزدحماً . ولـكى يكون هناك اختلاف تصويرى وعاطفى جعل «هوثون» البطلة «هستر» — فى المشهد الذى قبل الفصل الأخير — تخرج من البلدة كلها وتبتعد عنها كثيراً حيث تلتقى بزوجها .. (فى بقعة منعزلة من شبه الجزيرة) . ثم تلتقى بعشيقها بعد ذلك بقليل — فى قلب الغابة الـكثيفة .

وهذا التغيير والتبديل بين ليل ونهار ... وبلدة وغابة ... واجتماع ووحدة هو روعة الرمزية التي توضح المعانى الخلقية فى «الشارة القرمزية» التناقض المفجع بين طهارة القلب التي ليس لديها ماتخفيه عن أعين الناس وبين الإثم الذى يقود إلى النفور والتباعد . حتى بعد الاعتراف به ، الإثم الذى يعزل المرء عن الناس وهو بينهم إذا (ظل فى الظلام) ، أو ماهو شر من ذلك إذا اتخذ صورة انتقام متشف . وتلك هى الأسس والمناهج التي كانت تتداخل — كخيوط زاهية اللون — فى نسج كتابات « هوثورن » الأولى كلها ، ثم بلغت ذروة التعبير فى هذه الرواية بعد أن نضج فنه . وقد قدر له أن يظل يتطور فى كتبه الأخيرة، بل أن يوسع أفقه . لـكنه لم يبلغ الـكمال الفنى ولا التعمق الخلقى الذى بلغه فى « الشارة القرمزية » .

الجمــــرك

مقدمة لرواية « الشارة القرمزية »

من الغريب أنه برغم عزوفي عن الحـديث عن نفسي أو عن أحوالى الشخصية فى بيتى إلى خاصة أصدقائى ، تملـكتنى رغبة مفاجئـة مرتين للخوض فى الحديث عن حياتي مع الجمهور . وكانت أول مرة منـذ ثلاث سنوات أو أربع عندما جاملت القارىء بوصف أسلوب حياتى فى بيت قديم هادىء . وقد فعلت ذلك لغير ما سبب على وجه الأرض يستطيع القارىء المتسامح أو المؤلف الفضولى أن يتخيله . والآن — ولأننى فى المرة السابقة وجدت لرغبتى مستمعاً أو اثنين — أنتهز الفرصة وأمسك بخناق الجمهور وأحكى له تجربتى مدى ثلاث سنوات فى الجمرك . وسوف أقلد، كمثل أعلى، القطعة الذائعة الصيت « ب . ب . كاتب الأبرشية » . ومع ذلك فالحقيقة هى أن المؤلف عندما ينشر آراءه لا يتحدث إلى الـكثيرين الذين سيلقون بكتابه جانباً ، أو الذين لن يشتروا كتابه هذا قطعاً ، لـكنه يتوجه بحديثه إلى القليلين الذين سيفهمونه خيراً من زملائه فى المدرسة أو زملائه فى الحياة ، وهناك مؤلفون يفعلون أكثر من ذلك . فهم يكشفون عن أشياء خاصة ويعترفون بما لا يقال إلا لعقل واحـد وقلب واحد ينبض بالعطف كله ، كأنما الـكتاب المطبوع عندما يلقى به كيفما اتفق إلى الدنيا الواسعة سيعثر

بلا شك على توأم روح المؤلف . ثم يتم دورة حياته بجمع شملهما بعضهما إلى بعض . ومن المستحسن دائماً ألا يقول المؤلف كل شيء ولو لم يكن يتحدث عن نفسه . ولـكن لما كانت الأفـكار تتجمد والتعبير يتخدر إلا إذا وجدت بين المتحدث وجمهوره علاقة حقيقية ، لذلك يسمح له أن يتخيل صديقاً حنوناً ساذجاً — مع أنه ليس أقرب الأصدقاء — ينصت لحديثه . وحينئذ وبما يوحيه إلينا خجل ذلك الصديق وتحفظه الطبيعى ، نتحدث كما نشاء عن الظروف المحيطة بنا . وعن أنفسنا . لـكننا ندع دخيلة أنفسنا . ندع « الأنا » دائماً وراء حجاب . فى هـذه الحدود وحسب ، أعتقد أن المؤلف يستطيع أن يؤرخ حياته دون أن ينتهك حقوقه أو حقوق القارىء .

وسيجد القارىء فى مقالى هذا عن الجمرك أسلوباً يليق بأدب اللغة .. كشرح كيفية حصولى على الصفحات التالية ، وكسوق أدلة تؤكد أصالة المواد التى بنيت عليها مقالى . ولرغبتى فى أن أضع نفسى فى وضعها الصحيح بوصفى مؤلفاً لأطول حكاية فى كتابى هذا .. لهذا السبب وحده دون غيره . حاولت جاهداً أن أنشىء علاقة خاصة بينى وبين الجمهور . ولما أوفيت بالغرض المطلوب ، لم أجد غضاضة فى إضافة بعض اللمسات الأخرى لأصف أسلوب حياة لم يوصف من قبل مع دراسة لبعض الشخصيات التى تحيا هذه الحياة — شخصيات كان من بينها المؤلف نفسه

* * *

فى بلدة « سالم » التى هى مسقط رأسى . ومنذ نصف قرن . وخلال حكم الملك العجوز « دربى » . كان هناك رصيف ميناء يفيض بالحياة . أما الآن فقد صار مزدحما بمخازن خشبية متهالكة وليس به من دلائل الحياة التجارية سوى سفينة صغيرة ذات شراعين أو سفينة أكبر بثلاثة أشرعة تمر أحيانا متباطئة تحاذى طوله الحزين الكئيب لتفرغ شحنة من الجلود . وأحيانا أخرى تجد سفينة أكبر قليلا من هاتين تفرغ شحنة من خشب الوقود . وعلى رأس ذلك المرفأ المتهدم الذى كثيراً ما تغمره المياه . وعند قواعد الأبنية المصفوفة عليه ترك الزمن آثاره فى صورة جافة من الحشائش الكثة . هنا . ويواجه هذا المنظر الكئيب بناء فسيح من الطوب الأحمر تطل شبابيكه الأمامية على هذا المنظر، وفوق سطح ذلك البناء سارية يرفرف عليها علم الجمهورية صبح كل يوم ثلاث ساعات ونصف ساعة سواء أكانت الريح هادئة أم قوية . وتبدو خطوط العلم الثلاثة عشر عمودية لا أفقية كالمعتاد وذلك للدلالة على أن هذه منطقة مدنية لا عسكرية . ويزين ذلك البناء من الأمام رواق له ستة أعمدة خشبية تحمل شرفة واسعة تحتها سلم من الجرانيت يهبط إلى الشارع . ويجثم على المدخل تمثال لنسر أمريكى ضخم باسط جناحيه . على صدره درع وفى كل من مخلبيه حزمة هى خليط من الصواعق والسهام المسنونة . وبما عرف عن ذلك الطائر التعس من سوء خلق وشراسة يبدو من عينيه ، ومنقاره ، وهيئته العامة أنه يهدد السكان الآمنين بالويل والثبور وعظائم الأمور .

ويحذرهم خاصة من اقتحام مملكته التي يبسط عليها جناحيه . ومع ذلك . وبرغم شراسته البادية فهناك كثيرون يلجأون إلى حماية النسر الاتحادي . يصور لهم خيالهم أن صدره فى نعومة الوسادة . لكنه لا يعرف الرقة حتى فى أحسن حالاته ، ويقذف بأفراخه إن عاجلا أو آجلا بغمزة من مخلبه . أو بضربة من منقاره . أو بجرح ملتهب من سهامه المسنونة .

أما الطوار المحيط بذلك البناء — الذى يستحسن أن نطلق عليه اسمه الحقيقى من الآن : جمرك المرفأ — فتملأ فجواته الحشائش دلالة على أنها لم تطأها الأقدام منذ زمن طويل . ومع ذلك فهناك أشهر من السنة تمضى فيها الأعمال بخطا أوسع وحيوية أكثر . فيتذكر المعمرون تلك الحقبة التى سبقت الحرب مع انجلترا عندما كانت « سالم » مرفأ قائماً بذاته ، لا هدفاً — كما هى الآن — لسخرية تجارها وأصحاب السفن أنفسهم الذين سمحوا لمخازن البضاعة أن تتهاوى حطاماً هكذا . على حين تتدفق — دون حاجة ماسة — تجارتهم لتزيد من تجارة « نيويورك » و « بوسطن » الضخمة . وإذا حدث ذات صباح أن وصلت سفن ثلاث أو أربع فى وقت واحد — قادمة من أفريقية أو أمريكا الجنوبية — أو كانت على وشك الرحيل دفعة واحدة فلا تنقطع أصوات الأقدام صاعدة هابطة على الدرج الجرانيتى . وهنا قبل أن تحيي زوجة الربان زوجها تستطيع أنت أن تحييه وهو يحمل تحت إبطه أوراق سفينته فى صندوق من الصفيح اللامع . وإلى هنا أيضاً يأتى صاحب السفينة باسماً أو عابساً . . لطيفاً أو مكفهر السحنة

— وفقاً لحالة الرحلة التجارية فيما إذا كانت قد حققت آماله وحولتها إلى ذهب . أو دفنته تحت تل من المآزق التي لن يجد من يخرجه منها . وهنا أيضاً تنبثق جرثومة التاجر المنهوك ذي اللحية البيضاء والجبهة التي تملؤها التجاعيد، وهو الكاتب الغض الأنيق الذي يتذوق التجارة كما يتذوق جرو الذئب الدم أول مرة . فيجازف بتجارة صغيرة في سفن سيده ، وكان الأولى به أن يلهو بسفن من ورق في خزان مياه طاحونة . وهناك أيضاً شخصية البحار الخارج ليبحث عن عمل . أو البحار الذي وصل من فوره . شاحباً ضعيفاً . يبحث عن وساطة ليدخل مستشفى . كما يجب ألا ننسى ربابنة السفن الصغيرة التي تحمل خشب الوقود من المستعمرات البريطانية جمهرة خشنة من ذوي القبعات المشمعة يعوزها نشاط البحارة الأمريكيين ويقظتهم ، لكنها جمهرة تمد تجارتنا المضمحلة بمادة لا يستهان بها .

وكانت هذه الشخصيات إذا اجتمعت كلها في آن واحد — كما كان يحدث أحيانا — ومعها شخصيات أخرى مختلفة تضفي على المجموع عنصر التنوع ، يصبح الجمرك مشهداً مثيراً . وكثيراً ما كنت تلمح أثناء صعودك درجات السلم — في المدخل أثناء الصيف ، وفي الحجرات شتاء — تلمح صفاً من أناس متوقرين يجلسون على كراسي من طراز قديم يدفعونها على قوائمها الخلفية ليسندوها إلى الحائط . وأنت تراهم نائمين معظم الأحيان ، ولكنك أحيانا تسمعهم يتحدثون في أصوات تتردد بين الحديث والشخير وبذلك الفتور الذي يميز نزلاء الملاجيء وغيرهم من الذين يعتمدون

فى معاشهم على الصدقات ، أو على احتكار الأعمال . أو على أى شىء آخر غير مجهودهم الشخصى . وهؤلاء الرجال المسنون — الذين يشبهون — فى جلستهم تلك — الحوارى « متى » أثناء تسلمه الضرائب ، إلا أنهم لن يستدعوا يوما ليقوموا بمهمة الرسل — هؤلاء السادة الشيوخ هم موظفو الجمرك .

وعندما تمر من المدخل تلق إلى اليسار حجرة مكتب شديدة الارتفاع تبلغ مساحتها حوالى خمس عشرة قدماً مربعة . تطل منها نافذتان مقوستان على المرفأ المهدم الذى سبق ذكره . أما النافذة الثالثة فتطل على درب ضيق وعلى جزء كبير من شارع « دربى » ويستطيع المرء أن يلمح من النوافذ الثلاث محلات البقالة . ومصانع الكتل الخشبية . وباعة السوائل . وعمال تشميع السفن . ويجتمع حول أبواب تلك المحلات البحارة القدامى وغيرهم من فئران المرفأ الذين لايفتأون يحومون حول الميناء يضحكون ويثرثرون . أما الحجرة نفسها فيغطيها طلاؤها القديم الأدكن وتعلوها أعشاش العنكبوت . وقد فرشت أرضها برمل رمادى ، وهى طريقة بطل استعمالها فى الأماكن الأخرى منذ زمن بعيد . ويستطيع المرء أن يستنتج من القذارة السائدة أن امرأة ما بعدتها السحرية من مكنسة وممسحة لم تطأ أرض هذه الحجرة . أما الأثاث فهو موقد له مدخنة ضخمة، ومكتب عتيق من خشب الصنوبر وإلى جواره كرسى بغير مسند له ثلاث أرجل . ثم مقعدان أو ثلاثة بقواعد خشبية وكلها متداعية غير متماسكة . أما المكتبة

فعلى بعض الرفوف صف من الكتب عن « لوائح مجالس التشريع » ثم مجلد ضخم عن « المختار من قوانين الدخل الحكومى » وتشق السقف أمبوبة من الصفيح تستعمل وسيلة الاتصال الصوتى بأنحاء البناء . وهنا رجل تلقاه منذ ستة أشهر — ذارعاً الحجرة من ركن لركن أو جالسا على المقعد ذى القوائم الثلاث ومستنداً بذراعه إلى المكتب العتيق على حين تتصفح عيناه صحف الصباح — ويمكنك أيها القارىء المبجل أن تتعرف عليه ، إنه هو الرجل الذى استقبلك فى مكتبة بيته اللطيف وقد ملأته الشمس المتلألئة خلال أغصان الشجر . أما الآن فإذا ذهبت إلى هناك فسدى تسأل عن مساح «لوكوفوكو» . فقد جرفته مكنسة الإصلاح وحل محله آخر قدير وقور يطوى جيوبه على أرباحه .

وبلدة « سالم » — مسقط رأسى — لها فى قلبى منزلة خاصة ، على رغم أننى عشت بعيداً عنها فى صباى وفى سنوات توالت من بعد . لها فى عواطفى قوة لم أعرف مداها قط أثناء إقامتى بها . هذا على رغم قبح البلدة نفسها ، فهى مسطحة مملة ببيوتها الخشبية التى لا يتيه أحدها بمسحة من جمال هندسى ، ثم شذوذها وخروجها من العرف خروجاً لا هو لطيف ولا هو فنى ولكن أليف — مستأنس وحسب . ثم شارعها الطويل الخامل الذى يمتد مرهقاً يخترق شبه الجزيرة كله ويقوم على طرف منه «جالوزهل» و « نيوجينا » وعلى طرفه الآخر دار الصدقات ، أما وهذا هو وصف بلدتى فكأن المرء يتعلق بلوح شطرنج مبعثر . ومع ذلك ، وعلى رغم أننى

أكون سعيداً فى أى مكان آخر فإن لبلدتى العجوز «سالم» شعوراً فى قلبى لا أملك إلا أن أسميه حباً . ولا شك أن ذلك الحب يعـود إلى الجـذور العميقة المعمرة التى زرعها أهلى فى الأرض . فمنذ قرنين وربع قرن ظهـر أول جد لى يدعى « بريتون » فى المستعمرة التى تحيطها الغابات والتى صارت بعد ذلك بلدة . وهنا ولد أحفاده ، ودفنوا ، واختلطت بقاياهم بالأرض . ولا شك أن جزءاً كبيراً من هذه الأرض يكون بناء جسدى الذى أسير به فى الشوارع . وعلى هذا فالانجذاب الذى أشعر بههو انجذاب طبيعى بين تراب وتراب . وكثير من مواطنى لايعرفون كنه ذلك الشعور ولا داعى هناك لـكى يعرفوا مادام تـكرار التنقل — ربما — كان خيراً لتحسين السلالة .

ولـكن ذلك الشعور له قيمته الأدبية . فشبح ذلك الجد الأول الذى أضفت عليه تقاليد الأسرة عظمة قاتمة كان يشاغل خيال صباى منذ بدأت أعى . ولا يزال يحوم حولى ويربطنى بالماضى بعلاقة ودية نحو مسقط رأسى وإن كنت لا أقول إنه يربطنى بحاضر البلدة كما هى الآن . ومن أجل ذلك الجد الوقور ، الملتحى بجبهته العالية ، وعباءته ذات الفرو الأدكن ، والذى جاء منذ زمن بعيد بسيفه وبكتابه المقدس وسار فى الشارع غير المطروق بجلال وهيئة تدل على أنه رجل حرب وسلام — يخيل إلىّ أن لى الحق فى الإقامة هنا من أجله هو لا من أجلى أنا . أنا الذى لا يكاد أحد يسمع صوته أو يرى وجهه . أما هو فقد كان جندياً ، وقاضياً ،

وأحد الذين لهم سلطة تشريعية . وكان حاكماً فى الكنيسة ويمتلك كل صفات « البيوريتانز » الطيبة والشريرة . كما كان رجلا اضطهادياً جباراً يذكره « الكويكرز » فى تاريخهم ويتحاكون ويتحدثون عن قسوته العاتية مع امرأة منهم — تلك القسوة التى ستذكر طويلا . أطول من سجل أعماله الطيبة مع أنها كثيرة . وقد ورث ابنه عنه روح الاضطهاد تلك وبرزت شخصيته ذات الأهمية أيام استشهاد السحرة ، حتى ليقال إن دماءهم تركت به لطخة — لطخة عميقة لا بد أن عظامه فى مقبرة شارع « شارتر » ما زالت تحملها إن لم تكن قد تفتتت واستحالت تراباً . ولست أدرى أكان أسلافى هؤلاء قد ندموا على أفعالهم وطلبوا مغفرة السماء لقسوتهم ، أم أنهم الآن يجأرون ويتعذبون فى عالم آخر جزاء مافعلوا. إننى على كل حال الكاتب الحالى الممثل لهم ، آخذ على نفسى كل الخزى من أجلهم وأدعو أن تنزاح عنا اللعنات التى استمطروها على أنفسهم بأعمالهم ، فحالة ذريتهم المحزنة والقحط الذى يعانونه دليل واضح على تلك اللعنات .

ومع ذلك فلا شك أن أيا من هؤلاء « البيوريتانز » القساة المتزمتين يعتقد أن ظهور حفيد خامل مثلى بعد مرور كل تلك السنين هو تكفير كاف عن كل ذنوبه ، فليس بين أهدافى هدف واحد سيعتبرونه حميداً ويثنون عليه . وليس هناك نجاح أحرزه — إن كنت فعلا قد أحرزت أى نجاح خارج دائرة حياتى المنزلية — سيعتبرونه ذا قيمة . إن لم يعتبروه مخزياً . وربما يغمغم شبح أحد أجدادى :

« من هو ؟ كاتب قصص ! أى عمل هذا فى الحياة ؟ أى وسيلة لتمجيد الله ؟ أو لخدمة البشرية فى الجيل الذى عاصره ؟ كان فى وسع الفتى المنحل أن يكون عازف قيثارة متجولاً ليتم الفساد ! »

وهذه هى التحايا وعبارات الإعجاب التى أتبادلها أنا وأجدادى عبر هوة الزمن السحيق . ولكن . دعهم يهزأون بى ما شاءوا ! فهناك صفات قوية من طباعهم مجدولة مع طبيعتى وأخلاق !

وقد زرع جداى الأولان — هذان المجتهدان النشيطان — زرعا سلالتهما فى أعماق طفولة تلك البلدة . ومنذ ذلك الحين.. وسلالتهما تعيش هنا جيلاً بعد جيل . ودائماً فى احترام ووقار . لم يأت أحد أفرادها قط بشىء يشين . ولكن بعد الجيلين الأولين لم يقم أيضاً أى من أفرادها بعمل مجيد قط يجعل منه شخصية بارزة فى المجتمع . وشيئاً فشيئاً تقهقرت تلك الذرية إلى الوراء ، إلى النسيان ، حتى اختفت تقريباً عن الأنظار ، كالبيوت القديمة المتناثرة هنا وهناك فى الشوارع عندما يعلوها التراب الجديد المتراكم . وقد اتبع أفرادها — ابناً عن أب — هواية البحر مدى مائة عام . فعلى حين يتقاعد ربان منهم برأسه الأشيب ، يأخذ صبى ابن أربعة عشر عاماً مكانه التقليدى أمام السارية ، يواجه العاصفة والرذاذ المالح اللذين هاجما أباه وجده من قبله . وعبر الصبى فى الوقت المناسب بالأطوار عينها . فيتقلب فى المناصب من أصغرها إلى أكبرها : من منارة السفينة إلى قمرة الربان . ويمضى رجولة عاصفة . ثم يعود من أسفاره حول العالم

إلى مسقط رأسه ليمضى بقية عمره ، ثم يموت ويمزج ترابه بأرض أجداده .
وهذا الارتباط الطويل بين أفراد أسرة وبقعة بعينها من الأرض ؛ يولدون
ويدفنون بها ، يخلق نوعاً من القرابة بين الإنسان وبين المنطقة — ولا علاقة
بين ذلك البتة وبين جمال المنظر أو الظروف الأدبية والاجتماعية التى تحيط
بالإنسان . وليس هذا حباً . ولكن غريزة . فالمستوطن الجديد — الذى
جاء هو نفسه من بلاد أجنبية أو قد جاء أبوه أو جده من قبله — ليس
له الحق أن يسمى ابن البلدة . فليس فى إمكانه قط أن يتصور التشبث
المنيد — المشابه لتشبث شق المحارة أحدهما بالآخر — الذى يتشبثه المواطن
القديم ابن ثلاثة أجيال مثلاً بالأرض التى دفن فيها أجداده . ولا يهمه أن
تكون تلك البقعة خاملة لا تسلية فيها . وأن يكون هو قدضاق بالبيوت
الخشبية القديمة . وبالوحل . وبالتراب . وبالمناظر عينها والمشاعر
المملة . وبالرياح الشمالية الباردة . وبالجو الاجتماعى الأشد برودة . كل
هذه الأشياء وغيرها من الأخطاء والعيوب التى يراها أو يتخيلها لا تهم
ألبتة بالنسبة للغرض الأساسى . فالسحر موجود أبداً . كأنما مسقط
رأس الإنسان جنة الله على الأرض . وهكذا كانت الحال معى . شعرت أن
القدر يدفعنى دفعاً لأعيش فى « سالم » لكى لا تختفى القسمات والأخلاق
المتوارثة عن البلدة التى تعودتها وعرفتها طويلاً ، حتى كان كلما رقد أحد
ممثلى السلالة فى قبره هب آخر يسير كالحارس مكانه فى الشارع الرئيسى .
ومع ذلك فهذه العاطفة عينها أكبر دليل على أن تلك العلاقة أضحت

غير عادية وغير مجدية وأنه يجب أن تجتث أخيراً . فالطبيعة البشرية لن تنمو وتزدهر — مثلها مثل البطاطس — إذا ظلت تزرع جيلاً بعد جيل ، ولأجيال عدة ، فى الأرض المنهوكة نفسها . فأولادى أنا مثلا ولدوا فى أماكن مختلفة وسوف أعمل وسعى كى تكون أرزاقهم فى أرض لم يعتادوها .

وقد كان ذلك الارتباط الغريب الخامل ، غير السعيد ، والذى يربطنى بمسقط رأسى هو السبب الرئيسى الذى دفعنى إلى الالتحاق بخدمة « العم سام » فى ذلك الصرح المبنى بالطوب الأحمر بعد خروجى من بيت أجدادى القديم . على حين كان فى وسعى أن أذهب إلى أى مكان آخر . ولكن القدر كان أقوى منى . فلم تكن المرة الأولى ولا الثانية التى رحلت فيها نهائياً — بلا رجعة فيما يبدو — لكننى كنت دائماً أعود . كالقرش المزيف . أو كأنما « سالم » هى محور هذا الوجود .

وهكذا ، صعدت ذات صباح مشرق درجات السلم الجرانيتى وفى جيبى تفويض كتابى من رئيس الجمهورية . وتعرفت إلى صف السادة المسنين موظفى الجمرك الذين كان عليهم أن يعاونونى فى مسئوليتى الخطيرة بوصفى كبير مأمورى التنفيذ فى الجمرك . وأنا أشك جداً — أو لا أشك قطعا — أنه حدث مرة أن كان تحت إمرة أى موظف عام فى الولايات المتحدة كلها — سواء فى الخدمة المدنية أم العسكرية — زمرة من المتوقرين المحنكين كالزمرة التى كانت تحت إمرتى أنا . وقد عرفت من فورى وأنا

أتأملهم أين مواطنونا المعمرون . فمنذ أكثر من عشرين عاما قبل هذه الحقبة ، تسببت وظيفة المحصل المستقلة فى ابتعاد جمرك بلدة « سالم » عن دوامة الأحداث والانقلابات السياسية . وهذا يجعل الاستمرار فى الوظائف مخلخلاً . فالجندى — جندى « انجلترا الجديدة » الممتاز — يقف على أرض صلبة من خدماته المجيدة . ولما كان هو شخصياً آمنا بفضل كرم الإدارات السياسية المتعاقبة التى عمل بها ، فقد كان ملجأ وملاذاً لمرؤوسيه فى ساعات خطر وجزع كثيرة . وكان القائد « ميللر » من حزب المحافظين المتطرفين — رجلاً تؤثر العادات تأثيراً قوياً فى طبيعته الطيبة . يرتبط بوجوه مألوفة ويكره التغيير كرهاً شديداً . ولو كان فى التغيير مصلحة أو تحسين مؤكد . وهكذا . لما تسلمت أنا رياسة إدارتى وجدت بها رجالا قليلين لكنهم متقدمون فى العمر . أكثرهم ربابنة قدامى تقاذفتهم البحار ، وواجهوا عواصف الحياة بشجاعة وصلابة ثم تهادوا أخيراً إلى ذلك الركن الهادىء حيث لا يزعجهم شىء سوى الرعب الدورى الذى يصحب انتخابات رياسة الجمهورية . فأخلدوا جميعاً إلى حياة جديدة . ومع أنهم معرضون للوهن والشيخوخة كغيرهم من الرجال فإنهم لابد كانت لديهم تعويذة أو تميمة تصد الموت . كان منهم اثنان أو ثلاثة ملازمون للفراش بسبب إصابتهم بروماتيزم حاد ولا يفكرون فى مجرد الظهور فى الجمرك معظم أوقات السنة . ولكن بعد شتاء خامل كسول يزحفون إلى الخارج يصطلون تحت شمس مايو أو يونيو . ويتحركون بكسل يقومون بما يسمونه « الواجب » ثم يعودون إلى فراشهم وفق هواهم وراحتهم . وإنى أعترف هنا بجريرتى

إذ كنت السبب فى اختصار حياة أكثر من واحد من خدام الجمهورية المتوقرين هؤلاء . فقد سمحت لهم بالتقاعد والتخلى عن واجباتهم المرهقة ، فلم يمض طويل وقت حتى رحلوا إلى عالم آخر غير عالمنا كأنما كان محور حياتهم خدمة بلادهم بحماسة وحسب ، وأعتقد أن هذا صحيح . وإننى أعزى نفسى بأن تدخلى هيأ لهم وقتاً كافياً ليندموا على الشرور والعادات المنحطة المفروض أن ينحدر إليها كل موظف فى الجمرك . فليس لباب فى الجمرك — خلفى أو أمامى — طريق الى الجنة .

وكان معظم الموظفين تحت إمرتى من حزب الأحرار . وقد كان من الخير لهم ولا شك أن رئيسهم الجديد ليس سياسيا . فمع أنه ديمقراطى فى عقيدته فانه لم ينل وظيفته ولا احتفظ بها لأغراض سياسية . ولو كان الأمر بالعكس — أى لو أن سياسياً نشيطاً أعطى هـذا المركز القوى لتعارض الرئيس ومحصل «حزب الأحرار» الذى تمنعه علله من مباشرة عمله بنفسه ، ولهلك كل رجل من الفصيلة القديمة فى مدى شهر من صعود ملك الموت سلم الجمرك . فطبقاً للقانون لا حرج على السياسى فى أمور كهذه إن هو وضع كل رأس من هذه الرءوس البيضاء تحت حد المقصلة . وكان جليا جداً أن هؤلاء المسنين يتوجسون خيفة من معاملة غير كريمة على يدى . فـكان يؤلمنى كما كان يسلينى أن ألمح الرعب الذى يرافق وصولى : أرى صدغاً مكمشاً لفحته الرياح خمسين عاما يشحب لرؤية مخلوق غير ضار مثلى . أو أستشف — وأحدهم يحادثنى — رعشة فى الصوت الذى كان يزعق

قديماً مزمجراً بأوامره فى بوق البحار — صوت أجش مخيف يخرس الرياح الشمالية نفسها . وقد كان هؤلاء المسنون الممتازون يعرفون جيداً أنه طبقاً لكل قانون — ولعجز بعضهم عن القيام بمهمتهم — يجب عليهم أن يتخلوا عن وظائفهم لرجال أصغر سناً . وأكثر دراية بالسياسة السائدة وأكثر مقدرة بوجه عام على خدمة « العم سام » . وكنت أنا أيضاً أعرف ذلك ، ولكننى لم أجد فى قلبى القدرة قط على طردهم . وعلى هذا ، ولحزنى الذى أستحقه ، ولتعذيب ضميرى ظلوا طوال الفترة التى شغلت فيها تلك الوظيفة يزحفون حول أرصفة المرفأ ويتلكأون صاعدين هابطين سلم الجمرك . يضيعون وقتاً طويلا ناعمين فى أركانهم المعتادة وقد مالوا بمقاعدهم إلى الوراء يستندون بها إلى الحائط . فإذا صحوا وتنبهوا مرة أو مرتين . أثناء الظهيرة ، وخز بعضهم بعضاً بقصص البحر البالية المكررة آلاف المرات . وبنوادر وملح آسنة عفنة أضحت وكأنها كلمات سر متفق عليها بينهم .

وسرعان ما اكتشفوا أن رئيسهم الجديد ليس مؤذياً . فظل السادة المسنون الطيبون يباشرون أعمالهم الرسمية المختلفة بقلوب مرحة وشعور سعيد بأنهم موظفون ذوو فائدة — على الأقل لصالحهم هم . إن لم يكن لصالح بلادنا المحبوبة تراهم يحدقون — من تحت نظاراتهم — بفطنة وذكاء فيما تحمله السفن يقيمون ضجة كبرى ما بعدها ضجة لأتفه الأمور ، ولأوهى الأسباب ، ويعجب المرء للبلاهة التى تجعلهم يتركون أموراً هامة خطيرة

تنفلت من بين أصابعهم . وكل مرة كانت تقع مصيبة كتلك ، مثل تهريب عربة مملوءة بالبضائع الثمينة إلى الشاطيء ظهراً ، وتحت أنوفهم المطئنة غير المسترِيبة — تراهم وقد هبطوا يقظين « ناشطين » خفافاً يطلقون كل مداخل السفينة المجنى عليها ثم يعيدون إغلاقها ويشمعونها بشريط لاصق وشمع أحمر . وبدلا من أن يؤنبوا أو يزجروا على إهمالهم الفاضح تجد الحالة تستدعى مدحاً مستفيضاً وثناء عظيما على حرصهم وحيطتهم بعد وقوع الشر ! اعتراف بجميل حميتهم واستجابتهم للعمل على الفور فى حماسة — فى لحظة لا يرجى من ورائها أى علاج .

ومن عاداتى الطائشة أن أحب كل الناس إلا إذا كانوا منفرين أكثر من المعتاد . والذى يهمنى فى زميلى هو الناحية الطيبة من خلقه — إذا كان لديه ناحية طيبة — وهى التى أحكم بها على الرجل من أى طراز يكون . ولما كان لمعظم موظفى الجمرك المسنين هؤلاء صفات حميدة ، ولما كنت أنا أقف منهم موقف الحماية والأبوة فقد كانت هذه تربة صالحة لازدهار الصداقة بيننا . فأحببتهم كلهم . وكان يطربنى حقاً — فى الصيف أثناء الظهيرة ، والحر القاسى الذى يكاد يصهر كل البشرية كان يصل إلى أبدانهم المترهلة وكأنه دفء لطيف — كان يطربنى أن أسمعهم يثرثرون حول المدخل الخلفى وقد جلسوا صفاً طويلا ومالوا بمقاعدهم إلى الوراء كالعادة يستندون إلى الحائط . على حين تسيل من بين شفاههم ، وتمتزج بضحكاتهم فكاهات محنطة عمرها أجيال وأجيال . ومرح الشيوخ كمرح

الأطفال . فالإدراك لاشأن له عندهم وإن هو إلا إحساس عميق للفكاهة . وهو فى تينك الحالتين . . فى الشيخوخة والطفولة . . كشماع يتلاعب على السطح ويضفى إشراقاً زاهياً بهيجاً على الغصن الأخضر الغض . وعلى الجذع القاتم المقوس سواء بسواء . ومع ذلك فالإدراك فى الحالة الأولى شمس حقيقية — وفى الحالة الثانية يشبه الشماع الفوسفورى الذى ينبعث من الأخشاب المتآكلة .

وليس من العدل أن أظهر أصدقائى المسنين الممتازين هؤلاء على أنهم مخرفون . فلم يكن معاونىّ كلهم متقدمين فى العمر . بل بالعكس . كان منهم رجال فى أوج قواهم وعنفوانهم ، يمتازون بنشاط ومهارة ويختلفون اختلافا بيناً عن الحياة الخاملة المتواكلة التى ألقى بهم فيها سوء طالعهم . وغير ذلك فأحياناً كانت جدائل المسنين البيضاء كأنها سقوف من قش لمساكن ذهنية مرممة ترميما حسناً . أما غالبية جنودى المحنكين فلن أظلمهم إذا وصفتهم جميعاً بأنهم حفنة من الأرواح المجهدة الشائخة التى لم تكتسب من كل تجارب حياتها المتعددة شيئاً جديراً بالحفظ . فبدوا وكأنهم قد طرحوا بعيداً كل بذور الحكمة الذهبية التى تمتعوا بفرص كثيرة لحصادها . وبعد ذلك ادخروا ذكرياتهم فى قشورها . فكانوا يتحدثون باهتمام وحماسة مثيرة عن إفطارهم أو عن غذاء يومهم . . أو أمسهم . . أو غدهم أكثر من حماستهم فى الحديث عن غرق سفينة منذ أربعين عاما أو خمسين . أو عن عجائب الدنيا التى رأوها بعيونهم الفتية .

أما أبو الجرك — البطريرك الذى يهيمن روحياً لا على حفنة الموظفين وحسب ، بل على كل حراس المياه فى جميع أنحاء الولايات المتحـدة — وأقولها بجرأة — فـكان مفتشاً دائماً . ويمكننا أن ندعوه — بحق — الابن الشرعى لنظام الدخل الحـكومى . وكان أبوه (أميرالايا) من الثوار ومحصلا قديماً فى الميناء ، أوجد لابنه وظيفة شغلها منذ عهد بعيد لا يكاد يذكره الآن أحد من الرجال الأحياء . وكان هذا المفتش — عندما رأيته أول مرة فى الثمانين من عمره — أروع مثل دون أدنى شك للشيخوخة المزدهرة يمـكنك أن تعثر عليه بعد بحث طويل مدى حياة بأكملها . يبدو بخديه الورديين . وقامته المتينة المشوقة التى يكسوها معطف أزرق له أزرار براقة . ثم خطوته النشطة القوية . ثم هيئته العامة التى تدل على سلامة وعافية — كل هذا لم يجعله يبدو صغير السن ولـكنها حيلة جديدة من حيل أمنا الطبيعة فى صورة رجل لا شأن للعمر ولا للضعف به . أما صوته وضحكه اللذان لا ينفـكان يجلجلان فى الجرك فلم تـكن بهما تلك الرعشة التى تميز نطق رجل هرم . إنهما ينطلقان من رئتيه بزهو كصيحة ديك أو نفخة من بوق . وإذا نظرت إليه على أنه حيوان وحسب لا شىء آخر يلفت النظر — فسترضى عنه حتما من حيث الصحة التامة وكمال التكوين . والاستعداد . والمقدرة على التمتع بكل المباهج التى تخيلها أو طمع فيها . وهو فى تلك السن العالية وقد كان لاطمئنان حياته التى عاشها فى الجرك — على الدخل المنتظم وندرة المخاوف من النقل أو التغيير — أثر كبير

ولا شك فى مرور الزمن عليه مراً خفيفاً . أما الأسباب الأساسية القوية فتسكمن فى كمال طبيعته الحيوانية النادرة . وفى نصيبه المتوسط من الذكاء والإدراك . وفى خليط من عناصر روحية وخلقية . وهـذه الصفات الأخيرة منعت الرجل — أو كادت — من السير على أربع . فلم يكن يمتلك أى قوة فى التفـكير . ولا أى عمق فى الشعور . ولا أى إحساس مرهف يثيره — لا شىء قط سوى غرائز عادية أدت — بمعونة طبيعته المرحة المنبثقة من صحته الدافقة — دور القلب أداء محترماً رضى به الجميع . وقد كان زوجاً لثلاث نساء توفين جميعاً منذ زمن بعيد . وأبا لعشرين طفلا توفى معظمهم فى مراحل مختلفة من طفولتهم أو بلوغهم . وقد يعتقد المرء أن هذا حزن كاف ليطمس أكثر النفوس بهجة ومرحاً ويلونها بلون قاتم . ولـكن هذا لم يحدث لمفتشنا الهرم ! كانت تنهيدة واحدة منه كافية للتطويح بكل ذلك الحمل الثقيل من الذكريات الـكئيبة . وفى اللحظة التالية تجده على استعداد للمرح والرياضة كأى طفل خلى البال لم يعاقب — بل أكثر استعداداً بالفعل من كاتب المحصل الشاب الذى كان وهو ابن التاسعة عشرة يبدو أكبر الرجلين سنا إذا عقدنا بينهما مقارنة .

وكنت أدرس تلك الشخصية « البطريركية » بفضول يقظ أكثر من دراستى لأى نوع آخر من الأنواع البشرية التى التقيت بها . فقد كان والحق يقال ظاهرة فريدة . تراه كاملا رائعاً من وجهة نظر خاصة . وسطحياً . مخادعاً . غامضاً ، بل تافهاً حقيراً من كل وجهات النظر

الأخرى . وكانت خاتمة دراستى له أنه إنسان بلا قلب . ولا روح . ولا عقل — بلا شىء سوى غرائز كما قلت من قبل . ومع ذلك امتزجت الصفات الطيبة القليلة فى خلقه بعضها ببعض وبطريقة ما كرة أخفت نقائصه حتى لم يعد من يلحظها يتأذى بها . أما أنا شخصياً فكنت سعيداً به وبما وجدت فيه . وقد كان من الصعب أن يتصور المرء كيف يحيا بعد ذلك هذا الإنسان وهو على حاله هذه من دنيوية وحسية . ولكن معيشته هنا — التى أذعن لها ورضى بها على أنها ستنتهى مع آخر أنفاسه — لم تكن معيشة قاسية بائسة . فليست عليه مسئوليات خلقية أكثر مما على البهائم فى الحقل ، ولكن مع أفق أوسع للسعادة والمتعة من كل آفاقها ومع كل حصانتها المباركة ضد كآبة الشيخوخة .

نقطة واحدة فقط امتاز بها امتيازاً عظيما عن أخواته من ذوات الأربع . وهى مقدرته على تذكر الوجبات الشائقة التى يقوم عليها جزء كبير من سعادة حياته . فقد كان نهمه من ألطف صفاته . حديثه عن اللحم المشوى يفتح شهيتك كأنك أكلت مخللا أو محاراً سواء بسواء . ولما لم يكن يمتلك أى صفة أسمى . ولم يضح أو يفسد أى موهبة روحية بتكريس قواه كلها وبراعته فى خدمة مصلحة كرشه وهنائها ، فقد كان من دواعى سرورى حقا أن أسمعه يفيض فى الحديث عن الأسماك . . والدجاج . . واللحوم وعن أفضل الطرق لطهوها . وكانت ذكرياته تلك التى تبعث على المرح — مهما طال الأمد على الوليمة الأصلية — تكاد

تجلب رائحـة الديك الرومى أو شرائح لحم الخنزير تحت أنف المرء وهو ينصت إليه . كانت فى شدقه مذاقات ونـكهات مختلفة ابثت به ما لا يقل عن ستين أو سبعين عاماً ولا تزال فيما يبدو حية ، غضة ، كنـكهة قطعة الضأن التى التهمها فى إفطاره . ولقد سمعته يلعق شفتيه بصوت عال وهو يتحدث عن مآدب أضحى كل من كان مدعوا إليها طعاماً للدود . كان شيئاً رائماً حقاً أن ترقب كيف تخايله أشباح تلك المـآدب على الدوام —لا بغضب ولا لتقتص منه — بل كأنها تعترف بجميله لتقديره السابق لها . وكأنها تسعى كى تعيد إلى الحياة سلسلة لا نهاية لها من لذائذ شـاحبة وحسية فى آن واحد . فقطعة لينة من اللحم البقرى . أو فخذ عجـل صغير . أو ضلع خنزير . أو دجاجة ممتازة . أو ديك رومى يستحق ثناء خاصاً — أى شىء من هـذه الأشياء التى قد تـكون زينت مائدته ذات يوم من أيام آبائه الأوائل . لا ينساه قط . على حين أن تجارب جيلنا المتتالية كلها . وكل الأحـداث التى عكرت صفو عمله الشخصى أو التى جملته يوماً مشرقاً مرت عليه مرور النسيم — إن كان مر النسيم يخلد فى البال ! كانت أهم مأساة فى حياته — على ما أعرف — سوء حظه مع إوزة عاشت وماتت منذ أربعين عاماً . كانت إوزة ضخمة ممتـازة ، لـكنها أثبتت على المائدة أنها صلبة ، جافة عنيدة ، لم تستطع السكين أن تؤثر ولو بعلامة بسيطة فى لحمهـا حتى اضطروا إلى تقطيعها ببلطة ومنشار .

وقد آن الأوان لترك هذه الصورة الوصفية ـ مع أننى أحب أن أطيل وأفيض فى الحديث عن هذا الرجل عينه ، لأنه دون جميع الرجال الذين قابلتهم كان خير إنسان يصلح موظفاً فى الجمرك. فإن معظم الناس يصيبهم ضرر نفسانى بسبب النمط الشاذ الذى تسير عليه الحياة هنا . أما المفتش الهرم فلم يكن ليصيبه شىء قط ، ولو ظل فى وظيفته إلى نهاية الزمن لظل فى أحسن حال كأول يوم تسلم فيــه عمله . ولجلس إلى طعامه بالشهية الطيبة عينها .

ولــكن هناك شبيهاً لو أننى أهملته أو تغاضيت عنه لــكان معرضى الذى أقمته لشخصيات الجمرك ناقصاً مبتوراً . لــكننى سأصفه باختصار . وفى سطور قليلة . لأن الفرص التى أتيحت لى لمراقبته ضئيلة . وتلك هى شخصية المحصل . القائد الشيخ الشهم . . الذى أدى خدمته العسكرية اللامعة ثم عين حاكما لبقعة شاسعة مستوحشة فى الغرب ، ثم جاء إلى هنا منذ عشرين عاماً ليمضى بقية حياته المشرفة المتعددة النواحى . وكان الجندى الشجاع قد بلغ السبعين من عمره وراح يواصل بقية سيره على هذه الأرض، تثقل كاهله علل وأسقام لم تستطع الموسيقى العسكرية التى تعزفها ذكرياته المثيرة أن تخففها . صارت خطوته شلاء بعد أن كانت تتقدم الصفوف أثناء الهجوم وبمعونة الخادم وحده وبالاتكاء بكل ثقله على يده الممسكة بالدرابزين الحديدى . كان يستطيع أن يصعد سلم الجمــرك ببطء وألم ، ثم يسير عبر الحجرة بجهد شديد حتى يصل إلى كرسيه المألوف بجوار المدفأة . وهناك كان يجلس ويحملق بدماثة كليلة فى الغادين والقادمين ـ بين خشخشة

الورق . والقسم الغليظ . ومناقشة العمل . وحديث المكاتب الدارج . ويبدو أن هذه الأصوات والظروف كلها لم تؤثر في حواسه إلا تأثيراً خفيفاً غير ملموس ولم تقتحم مجال تفكيره الداخلي . أما وجهه في استرخائه هذا فكان دائماً وديماً لطيفاً . وإذا لفت أحدهم نظره إلى شيء ، ومض تعبير كله أدب واهتمام يكسو قسماته ـ دليل وجود نور داخله . لا يمنع إشراقه وسطوعه سوى الوسيط الظاهر للمصباح العقلي الذي تتكسر عليه الإشعاعات في مرورها . وكلما تعمقت في معرفة جوهر عقله ، تبينت لك سلامته . وعندما لا يطالب بالكلام أو بالإنصات ـ وكلاهما أمر يكلفه جهداً واضحاً ـ يعود وجهه إلى استرخائه وسكونه السابق اللطيف . لم يكن يؤلمك أن تلمح تلك النظرة التي لم تكن دليل شيخوخته مضمحلة ، وإن كانت مكتئبة ، فإن طبيعته كانت مبنية بناءً ضخماً قوياً لم يصر بعد إلى حطام .

وقد كان أمراً صعباً أن ترقب شخصيته وأخلاقه وتصفها في ظروف ضئيلة غير متكافئة كهذه — كأنك تحاول في خيالك أن تقتفي آثار قلعة قديمة كقلعة « تيكونديروجا » ثم تعيد بناءها من جديد بعد نظرة إلى حطامها المغبر . فقد تجد الجدران مصادفة . . هنا وهناك . . لا تزال قائمة كما كانت تقريباً ، لكنك في الوقت عينه تجد . . في مكان آخر . . تلاً لا شكل له يموقك بقوته وصموده وقد نمت عليه حشائش وأعشاب طفيلية خلال سنوات الهدوء والإهمال .

ومع ذلك وبرغم قلة اختلاطنا . وأنا أنظر إلى الجندي الهرم بحب — إلا أن شعوري نحوه كان كشعور كل المخلوقات التي عرفته ـ أستطيع بحق

أن أسميه حباً . وبشعوري هذا استطعت أن أكتشف النقط الأساسية لصورته الحقيقية : صـــــورة تميزها صفات نبل . وشهامة . وبطولة . تدل على أنه اكتسب إسماً ممتازاً عن جدارة لا بطريق المصادفة . وقد تبين لى أن روحه لم تكن فى يوم ما قلقة تتصرف بعصبية ، بل كانت لأعماله دائما دوافع بلا شك خلال حياته بطولها . فما يستثيره دافع ويبين أمامه هدف حتى يندفع مكبا بإصرار على عمله لا يخذل ولا يقهر مهما كانت العقبات ولم تكن الحرارة التى سطرت على طبيعته بادىء بدء ـ والتى لم تكن قد بردت بعد ـ من الصنف الذى يومض ويبرق . بل كانت تأججاً أحمر يشبه الحديد المحمى فى أتون . وكان استرخاؤه على رغم الوهن الذى زحف عليه قبل الأوان ـ فى الفترة التى أتحدث عنها ـ يعبر عن أشياء ثلاثة : القدرة ، والصلابة ، والصمود . لكننى كنت دائما أومن أنه إذا وقع حادث مثير يصل إلى أعماق شعوره ـ كنداء نفير عال مثلاً يوقظ كل قواه التى لم تمت وإنما هى تنام وحسب ـ فإن الرجل سيهب طارحا عنه علله وأسقامه كأنها ثوب رجل مريض ، ويطوح جانبا بعصا الشيخوخة ليشهر سيفا ويبدأ كمحارب جديد مرة أخرى . وفى لحظة دقيقة خطيرة كتلك سيكون رابط الجأش هادئا كعادته دائما . وعلى كل حال فإن تلك الصورة كانت فى الخيال وحسب — لا أترقبها ولا أريدها . كان الشىء الذى أراه فيه واضحاً — كحطام قلعة « تيكوند يروجا » العتيقة وهو الباقى على الزمن لا يفنى — قسمات متهدلة ثقيلة لصبر شديد المراس . لا بد أنه كان فى أيامه الأولى عناداً . أما تماسكه أواستقامته فكانت كبقية مواهبه

كتلة ضخمة لا تلين ولا تنقاد لترويض أو استمالة كأنها طن من الحديد الخام . أما طيبته — رغم أنه قاد بوحشية جنود الأسنة « السونكى » فى موقعة « شيبوا » أو موقعة قلعة « ايرى » — فإننى أعتبرها ميزة أصيلة فيه كالطيبة التى تحفز محبى الإنسانية كلهم فى هذا العصر سواء بسواء . لقد قتل رجالا بيده — لا شك أنهم تساقطوا كالحشائش — على ما أتصور تحت المنجل أمام الهجوم الذى شحنته روحه بقوى ظافرة ومع ذلك لم تكن فى قلبه قسوة تكفى لكى ينفض الزغب عن جناح فراشة . لم أعرف رجلا غيره أستطيع بثقة أكبر أن ألوذ بحنانه الفطرى .

ومما لا شك فيه أن صفات كثيرة — تساعد على إبراز الشبه فى صورة وصفية — قد اختفت أو احتجبت قبل أن ألتقى أنا بالقائد . فالسجايا الأنيقة وحسب مصيرها إلى الفناء بسرعة ، ولا تعيد الطبيعة تزيين حطام بشرى بأزهار غضة لها جمال جديد لن تجد غذاءها ولن تنمو جذورها إلا بين شقوق الحطام وشدوخه — كما تفعل الطبيعة حين تنثر زهوراً متسلقة على حطام قلعة « تيكوند يروجا » . ومع ذلك — وفيما يخص الجمال والأناقة — فهناك بعض نقط جديرة بالملاحظة : شعاع من خفة الروح والمرح — من وقت لآخر — يخترق ستار العوائق القاتمة ويومض بلطف على وجوهنا . فميزة الرقة التى تصبح نادرة فى خلق الرجال بعد طفولتهم وصباهم المبكر ، كانت واضحة فى حب القائد لمنظر الورد وعبيره وقد ينتظر المرء من جندى هرم أن يفخر بغار دام على جبهته وحسب . ولكن هنا كان امرؤ يتعلق بقبيلة الزهور كلها ويقدرها تقدير صبية صغيرة سواء بسواء .

وهناك .. إلى جوار المدفأة . . كان القائد الهرم الشجاع يجلس دائما على حين كان (الساح) مغرما بالوقوف عن بعد يرقب وجهه الهادىء الناعس،وكان قليلا بل نادراً ماياأخذ على عاتقه المهمة الشاقة،مهمة مجاذبته الحديث . فقد كان يبدو بعيداً عنا برغم أننا نراه على بعد بضع أقدام منا . بعيدا بل نائيا عنا . . برغم أننا نمر بجوار كرسيه . لا سبيل الوصول إليه . برغم أنه كان فى وسعنا أن نمد أيدينا ونلتمس يديه . ربما لأنه كان يحيافى أفكاره حياة أكثر واقعية من المحيط غير الملائم فى مكتب المحصل ، تطورات الاستعراض . جلبة الموقعة . . موسيقى البطولة والحماسة القديمة التى سمعها منذ ثلاثين عاما — هذه المناظر وهذه الأصوات ربما كانت لاتزال حية متوهجة أمام شعوره الفكرى . وأثناء ذلك كان التجار . والربابنة .. والكتبة المتأنقون .. والبحارة الغلاظ يدخلون ويخرجون . وظلت جلبة حياة الجمرك التجارية حوله كما هى ، ومع ذلك لم يبد أن أى رابطة أو صلة تربطه ولو من بعيد بالرجال ولا بأعمالهم . لم يكن وجوده فى ذلك المكان يلائمه إلا كما يلائم سيف قديم — يعلوه الصدأ لكنه تضوأ مرة فى ساحة القتال ولايزال هناك بريق يلتمع بطول حده — سيفاً موضوعا بين المحابر . وملفات الأوراق . والمساطر الخشبية الموجودة على مكتب نائب المحصل.

شيء واحد وحسب أعاننى على ترميم الجندى العملاق وخلقه خلقاً جديداً — جندى حدود (نيجارا) ذاك ، صاحب الهمة الصادقة الخالصة

كان ذلك الشيء هو ذكرى كلماته الخالدة : (سأحاول ياسيدى !) التى صاح بها على شفا مغامرة بطولة بائسة ممثلا لروح (انجلترا الجديدة) وبسالتها فهم المخاطرة ومجابهتها . ولو كانت الشجاعة فى بلادنا تكافأ بشرف مذاع لكانت تلك الجملة — التى يبدو النطق بها سهلا . لكنه هو وحده وحسب الذى قالها وبين يديه مهمة خطيرة مجيدة — خير شعار وأنسبه للوحة الشرف التى تهدى إلى القائد .

ومما يساعد على تحسين الصحة النفسية والخلقية لأى رجل — أن يصادق أناسا يختلفون عنه . ولا يهتمون بعمله ولا بهواياته . وعليه أن يخرج من نفسه وينساها تماما كى يقدر أفق هؤلاء الناس ومواهبهم . وقد هيأت لى الحوادث التى مرت بى فى حياتى تلك الفرصة . ولكن ليس بالقوة ولا بالغزارة اللتين هيأهما لى عملى فى المكتب . كان هناك رجل أعطتنى مراقبته فكرة جديدة عن المواهب . كانت مواهبه بلاشك مواهب رجل أعمال : نشيط . فطن . صافى العقل ، له عين تجد حلا لكل عقدة ، وملكة للنظام تجعل الارتباك يتلاشى كأنما لوحت ناحيته عصا ساحر . نشأ منذ صباه فى الجمرك ، فأضحى الحقل الملائم لنشاطه . وكانت مشا كل العمل الكثيرة التى تزعج المتطفل الفضولى تبدو أمامه هو منتظمة وفى رتابة خطة عمل مفهومة تمام الفهم . كان فى رأيى أنا مثلا أعلى لطبقته . بل كان بالفعل هو الجمرك نفسه . أو بلا أدنى ريب المحور الأساسى الذى يحرك عجلاته المختلفة . فى مؤسسة كهذه حيث يعين الموظفون ليهتموا

بمصالحهم وراحتهم — لا من حيث صلاحيتهم للعمل — تجدهم يبحثون فى مكان آخر عن المهارة التى تنقصهم . فلذلك ، ومن أجل الحاجة التى لا مفر منها ، كانت المشاكل التى تواجه كل فرد تنجذب إليه هـو . كأنه مغناطيس والمشاكل دبابيس من حديد . فيتـكرم ويتنازل بسماحة ودماثة وبحلم عطوف نحو بلاهتنا — التى لاشك بدت لعقله المنظم جريمة وبلمسة من إصبعه يصير الأمر المعقد الذى لا تصل إليه مداركـنا واضحـا كـنور الصباح . وكان التجار يقدرونه مثلنا سواء بسواء — نحن أصدقاءه الخفيين . كانت استقامته كاملة . حكم طبيعة معه لا اختيار أو مبدأ . فلا يمكن أن يكون عقل صاف دقيق كعقله على حالة أساسية غير الأمانة والنظام فى العمل . كانت أى بقعة تلطخ ضميره — فى شىء يتصل بدائرة عمله — تزعج رجلا كهذا أكثر من خطأ فى تسوية حساب . أو نقطة حبر على صفحة ناصعة فى قائمة تقرير رسمى . هنا ، وباختصار — وهى حادثة نادرة فى حياتى — تقابلت مع إنسان مؤهل تأهيلا تاما للوظيفة التى يشغلها ويتقنها إتقانا ممتازا .

هؤلاء هم بعض الناس الذين ألفيت نفسى مرتبطاً بهم . فاعتبرت القدر مسئولا عن وضعى فى مركز يختلف كل الاختلاف عن عاداتى السابقة ، وانكفأت بجد أجنى الفائدة التى ترجى منه . فبعد زمالتى فى الشقاء والخطط الفاشلة للأخوة الحالمين فى مزرعة « بروك » ، وبعد ثلاث سنوات عشتها تحت التأثير الماكر لذكاء « أمبرش » ، وبعد تلك الأيام الحرة المنطلقة على

« أسابث » . منغمساً فى تأملات وهمية خيالية مع « إيميرى شانج »
إلى جوار نارنا التى أقمناها من الأغصان الجافة ، وبعد حديث مع « ثورو »
عن شجر الصنوبر ومخلفات الهنود الحمر فى صومعته فى « والدن » ، وبعد
أن أضحيت متأنقاً متعنتاً فيما يعجبنى وما لا يعجبنى لتملق بثقافة « هيلارد »
الأدبية الرقيقة ، وبعد أن صرت مشبعاً بروح شاعرية على عتبة « لونجفيلو »
— حان الوقت أخيراً لأمارس مواهبى الطبيعية الأخرى ، ولأغذى نفسى
بطعام لم أكن أميل إليه من قبل . حتى المفتش الهرم ، فى حالة كالتى ،
كان مرغوباً فيه كتغيير فى قائمة طعام رجل عرف « ألكوت » . وإنى أعتبر
هذا دليلاً — إلى حد ما — على طبيعة متزنة اتزاناً طيباً ولا ينقصها عضو
أساسى لجهاز كامل سليم . فبعد معاشرتى لرفقاء كهؤلاء لا أزال أذكرهم
استطعت أن أندمج من فورى وسط رجال لهم صفات مختلفة اختلافاً بيناً .
ثم لا أشكو من التغيير .

وقد صار الأدب ، وممارسته ، وأغراضه قليلة الأهمية فى نظرى .
لم أعد أهتم فى تلك الفترة بالكتب . نأت عنى . وصارت الطبيعة — إلا
الطبيعة البشرية — أعنى الطبيعة التى تتبدى فى الأرض والسماء مختفية عنى
وكل البهجة الخيالية التى أوحتها إلى ممحوة من عقلى . وكل هبة أو مقدرة
أخرى لم تفارقنى ظلت معطلة جامدة فى أعماقى . ولولا أننى كنت أشعر أن
فى استطاعتى استرداد كل ما كان قيماً فى الماضى ، لصار ذلك أمراً محزناً
للغاية . ربما كانت تلك الحياة بحيث لا يمكن المرء حقاً أن يحياها طويلاً

دون ضرر . وإلا لغيرتنى عما كنت إلى الأبد ، دون أن تغير مظهرى إلى الأحسن . لكننى لم أعتبرها قط سوى حياة وقتية عابرة . فقد كان هناك دائماً همس فى أذنى وغريزة تنبئنى أنه لن يمر طويل وقت . وسيأتى وقت يصير التغيير فيه أساسياً لصالحى . سيحدث ذلك التغيير .

وأثناء ذلك كنت مفتشاً للدخل . كنت فى رأيى ، وعلى قدر فهمى مفتشاً صالحاً على قدر الحاجة . فأى رجل مفكر عنده خيال ومنطق إذا كان لديه عشرة أمثال صفات المفتش هذه يستطيع إذا حاول أن يصبح رجل أعمال فى أى وقت . وكان زملائى الموظفون ، والتجار ، وربابنة البحر الذين استدعت واجباتى الرسمية الاتصال بهم ينظرون إلى على هذا الضوء ، وبتلك الصفة : رجل أعمال . وأجزم أن أحداً منهم لم يقرأ صفحة مما كتبت ، أو إن كان قد قرأ كل كتاباتى فلم يكن ذلك ليزيد من اهتمامه بى قدر أنملة . ولو أن القلم الذى خط تلك الصفحات غير المجدية كان كقلم « بيرنز » أو « شوسر » — وكل منهما كان فى زمانه موظف جمرك مثلى — لما صلحت الأمور . على كل حال ذلك درس طيب — وإن كان قاسياً — لرجل حلم بشهرة أدبية ومنزلة بين عظماء العالم ، أن يخطو خارج الحلقة الضيقة التى اعترفت به فيكتشف أن كل ما أنجز من عمل يتيه به معدوم الأهمية والقيمة تماما خارج تلك الحلقة . ولست أدرى هل أستحق ذلك الدرس كنذير أو كعقاب ، لقد وعيته جيدا على كل حال . ويسعدنى أن أذكر أن الحقيقة كلما تراءت لى تكن

تزعجني قط ولا أنا اضطررت مرة للتطوع بها بتنهيدة . وفيما يخص الأحاديث الأدبية فكثيراً ما كان الضابط البحري — وهو شاب ممتاز عمل في مكتبي وقتا قصيرا — يجاذبني الحديث في واحد من موضوعين أثيرين لديه : « نابليون » أو « شكسبير » . كما كان كاتب المحصل — وهو شاب يدور الهمس عنه أنه أحيانا يملأ صفحات من ورق الرسائل الرسمية بما يبدو على بعد أقدام قليلة . شعراً — كان يحادثني من وقت لآخر عن الكتب كأشياء يجوز أنني أستطيع التحدث فيها . وكان هذا كل اتصالي بالأدب وكان كافياً لمطالبي في تلك الفترة .

ولما لم أعد أسعى أو أهتم أن يشتهر اسمي في الخارج على أغلفة الكتب فانني أبتسم عندما أذكر أنه صارت له شهرة أخرى . كان العامل المكلف يطبع اسمي بحبر أسود على أكياس الفلفل . وسلال الواردات . وعلب اللفائف . ورزم البضائع المختلفة الخاضعة لضريبة الجمرك دلالة على أن تلك البضائع قد دفعت المستحق عليها ومرت بمكتبي وفقاً للمتبع . فكان اسمي المحمول على عربات الشهرة العجيبة تلك يسافر إلى أماكن لم يذهب إليها قط من قبل — وأرجو ألا يذهب إليها ثانية .

ولكن الماضي لم يكن قد مات . فمن آن لآخر تهب الأفكار الجياشة بحيوية ونشاط والتي وضعتها جانباً لتستكن ، تهب متوهجة مرة أخرى . وكانت إحدى تلك المناسبات الرائعة — عندما تستيقظ في عادات الماضي — هي تلك المناسبة التي استطعت أثناءها وطبقاً لقانون اللياقة الأدبية أن أقدم للجمهور هذه الصورة الوصفية التي أكتبها الآن .

وفى الطبقة الثانية من مبنى الجمرك حجرة واسعة ظلت عوارضها وجدرانها عارية لم تغط بطلاء ولا بإطارات خشبية . وكان للمبنى — الذى أقيم أصلا على نتوء مقياس مدرج يلائم الأعمال التجارية الأولى للميناء . على أمـل انتعاش مادى لم يتحقق قط — كان ذلك المبنى واسعا حتى إن الموظفين لم يعرفوا قط ماذا يفعلون بكل تلك المساحة الواسعة . ولذلك ظلت تلك الردهة المهملة — التى تقع فوق حجرة المحصل — غير تامة إلى يومنا هذا وعلى رغم بيوت العنكبوت التى تزين حافاتها القاتمة ، لا تزال تنتظر النجار والبناء ليتما عملهما فيها . وفى ركن منها . . فى زاوية منعزلة . براميـل مرصوصة واحد فوق الآخر وقد امتلأت برزم اللفافات الرسمية ، وألقيت على الأرض فى أكوام ضخمة نفايات أخرى كثيرة ، وكان من المحزن حقاً أن يتذكر المرء كم من أيام ، وأسابيع ، وشهور ، وسنى جهد طويلة أنفقت سدى على تلك الأوراق العفنة البالية التى أضحت الآن ثقلا يزحم الأرض فحسب — وقد أخفيت بعيدا فى ذلك الركن المنسى .. ولن تراها عين آدمية بعد اليوم ، ولـكن كم من رزم أوراق أخرى — ليست ملأى بتقارير رسمية جافة مملة ، بل بأفـكار عقول مبدعة وبتدفق غنى دسم لقلوب عميقة — طواها النسيان أيضـاً . وذلك دون أن تؤدى غرضاً فى زمانها مع الأسـف كما فعلت تلك الأوراق المـكدسة وغيرها ودون أن تشترى لـكاتبيها حياة مريحة كالتى اكتسبها كتبة الجمرك بخمش أقلامهم وخدشها . ومع ذلك فلم تـكن تلك الأوراق عديمة القيمة تماماً إذا اعتبرناها مواد لتاريخ محلى . فهنا بلا شك إحصائيات عن تجارة مدينة « سـالم »

القديمة . . وذكريات عن تجارها الأثرياء : الملك « دربى » الهرم . . . « بيلى جراى » الهرم . . « سيمون فوستر » الهرم وغيرهم من أقطاب زمنهم الذين ما يكاد رأس أحدهم الأشيب يوضع فى قبره حتى يتداعى جبل ثرائه ، وأنت هنا تستطيع أن تتقصى نشأة مؤسسى معظم أسر مدينة « سالم » التى يتألف منها المجتمع الأرستقراطى — منذ بدأوا فى مهنتهم بداية تافهة مغمورة . . فى فترات جاءت بعد الثورة بمدة . . إلى أن وصلوا إلى المكانة المرموقة التى يعتبرها أولادهم راسخة منذ عهد بعيد .

ولكن هناك قحطا فى تقارير فترة ما قبل الثورة . فلا بد أن محفوظات الجمرك وسجلاته نقلت إلى « هاليفاكس » عندما رافق موظفو الملك الجيش البريطانى فى هربه من « بوسطن » . وكان ذلك دائماً سبباً لأسفى الشديد ، فربما كانت تلك الأوراق ترجع إلى عهد « الحماية » . . وعلى ذلك تحتوى على مراجع عن رجال منسيين ومذكورين . . وعن تقاليد بالية وأشياء أخرى كانت ستسعدنى كما كان يسعدنى أن ألتقط رءوس السهام الهندية من الحقل القريب من « البيت القديم » .

ولكن ذات يوم خامل مطير كان من حسن حظى أن أكتشف أمراً مثيراً بعض الشيء . بحثت ونبشت فى النفايات المكومة فى الركن . . وبسطت سجلا إثر سجل وقرأت أسماء السفن التى غرقت منذ زمن طويل فى البحر أو تآكلت وبليت عند المرافىء ، ثم أسماء تجار لا تعرف أسماؤهم الآن فى الجمرك حتى إنها لم تعد تقرأ بسهولة على شواهد قبورهم التى علاها

الطحلب . تأملت تلك الأشياء بالاهتمام الحزين المجهد المتبرم الذى نضفيه على جثة نشاط ميت ، ثم أجهدت خيالى — الكسول لقلة استعماله — كى يقيم لى من تلك العظام الجافة صورة البلدة القديمة فى هيئة أبهى . . عندما كانت الهند بقمة جديدة وكانت « سالم » هى الوحيدة التى تعرف الطريق إليها . فوقعت يدى مصادفة على لفافة صغيرة فى قطعة من ورق عتيق أصفر يبدو عليها سمت التقرير الرسمى لحقبة من زمن سحيقة ، عندما كان الكتبة يستخدمون فن الخط الجاف الرسمى فى مواد جوهرية على خلاف الوقت الحاضر . وكان فى اللفافة شىء ألهب غريزة الفضول وجعلنى أحل الشريط الأحمر الذى يربط اللفافة ، وأنا أشعر أن كنزاً سيخرج إلى النور . وسويت طيات الورقة اليابسة الخارجية لأكتشف أنها تفويض مكتوب بخط وخاتم الحاكم «شيرلى» لصالح شخص يدعى« جوناثان بيو » يوظفه فيها مفتشاً لضرائب جمرك ميناء « سالم » فى مقاطعة خليج « ماساتشوستسى » فتذكرت أنى كنت قد قرأت — كما يغلب على الظن فى السجل السنوى الذى كتبه « فيلت » — مفكرة بوفاة المفتش « بيو » منذ حوالى ثمانين عاما . كما أننى قرأت أيضاً فى جريدة حديثة أنهم أخرجوا رفاته من مقبرة كنيسة « سانت بيتر » أثناء تجديدها فلم يبق من سلفى المحترم سوى هيكل عظمى غير متماسك .. وهلاهيل ثياب .. وشعر صناعى مستعار مجعد تجعيداً فاخراً ويختلف عن الرأس الذى كان يزينه فى أنه لا يزال محتفظاً بكيانه . لكننى عندما درست الأوراق المغلفة بمزعة

الورق الصفراء البالية ، وجدت آثاراً أخرى عن الحياة الذهنية للسيد « بيو » .. وعن التيارات التى دارت فى رأسه من الداخل — أكثر مما كان يضمه الشعر المستعار الجعد من الجمجمة المبجلة .

كانت الأوراق سجلات ليست رسمية ولكن شخصية ، يبدو أنه كتبها فى خلوته وبخط يده . فرجحت أن تلك الأوراق ما ألقيت هكذا بين نفايات الجمرك إلا بسبب وفاة السيد « بيو » الفجائية ، وأنه — فى أغلب الظن — كان يحتفظ بها فى درج مكتبه الرسمى فلم يدر بها ورثته أو ربما ظنوها خاصة بأعمال الدخل . فلما نقلت السجلات إلى « هاليفاكس » وتبين أن تلك اللفافة لا تخص الأعمال العامة ، تركوها لتظل هكذا لا تفتح منذ ذلك العهد .

وظهر لى أن المفتش العتيق — الذى لم تكن واجباته فى تلك الأيام الغابرة تستغرق منه جهداً كبيراً — كان يكرس بعض ساعات فراغه المديدة فى أبحاث منقباً عن الآثار المحلية . فهيأ ذلك مادة لشىء من النشاط التافه يحيا عليه عقل كان عرضة لأن يعلوه الصدأ . وقد أسدت لى بعض الحقائق التى ذكرها فى سجله خدمة لا بأس بها أثناء إعداد مقالى الذى كتبته بعنوان « الشارع الهام » وألحقته بمجلدى هذا . أما بقية ما جاء فى الأوراق البالية فربما صلح لأغراض أخرى قيمة ، أو ربما أستطيع مع بعض التهذيب أن أجعلها تاريخاً لمدينة « سالم » — هذا إذا اضطرنى يوماً إجلالى لأرض هى مسقط رأسى أن أقوم بتلك المهمة الدينية الشاقة . أما

أثناء ذلك فالأوراق تحت أمر أى سيد كريم يجد فى نفسه ميلا ومقدرة ليحمل عن كاهلى تلك المهمة غير المجدية . وإننى أفكر جدياً — فى قرار أخير — أن أزل عنها لجمية « إسكس » التاريخية .

ولكن الشيء الذى أثار اهتمامى أكثر من غيره . . فى اللفيفة الغامضة . . كان قطعة من قماش أحمر فاخر ، ناصلة متآكلة : بها آثار تطريز مذهب لكنه مشمث . . ممزق . . لدرجة كبيرة حتى إنه يكاد لايلتمع . وكان جليا أن اليد التى طرزته ماهرة وبارعة فى فنها ، أما الغرزة (كما أكدت لى بعض السيدات المولعات بالحديث عن تلك الألغاز) فدليل على فن نسى وانقرض ولا يستطيع كائن من كان أن يسترده أو يستعيده ولو اتبع طريقة التقاط الخيوط الممزقة . وتلك الخرقة من النسيج الأحمر — التى أحالها الزمن والاستعمال والعث إلى خرقة — عندما فحصتها وجدتها على شكل حرف من الحروف الأبجدية : وكان ذلك الحرف هو A وبعد قياس دقيق وجدت أن طول كل ضلع من أضلع الحرف يبلغ ثلاث بوصات وربع بوصة بالضبط . ولا شك أن الغرض من تطريز ذلك الحرف هو الزينة — ولكن كيف يستفاد به . . وأين يوضع . . وكيف ، أو أى طبقة أو أى شرف أو أى وقار كان ذلك الحرف يدل عليه فى الأيام الغابرة . كلها أشياء مبهمة بل لفرصار أملى ضئيلا فى حل رموزه (فإن « مودات » العالم متقلبة متبدلة لدرجة قصوى) . ومع ذلك وجدتنى مهتماً بشكل غريب . تعلقت عيناى بالحرف القرمزى القديم لا تحيدان عنه . فلا شك أن له معنى عميقاً

جديراً بالتفسير؛ معنى راح يتدفق من الرمز الغامض إلى حواشى .. لكنه تحاشى تحليل عقلى .

وبينما أنا فى حيرتى هذه — أقلب نظريات جمة وأفكر فى ذلك الحرف القرمزى هل هو وسيلة للزينة من وسائل الرجل الأبيض اخترعها ليخلب أبصار الهنود الحمر — حدث أن وضعته على صدرى . فشعرت — وفى وسع القارىء أن يبتسم لكنه يجب ألا يشك فى كلامى — شعرت بشعور لاحسى محض لكنه بين بين ... بسخونة حارقة كأنما وضعت على صدرى لا حرفاً من نسيج أحمر بل من حديد أحمر لفرط إحمائه . فارتجفت وتركته يسقط على الأرض دون وعى .

ولفرط ما انغمست فى تأمل الحرف القرمزى نسيت حتى ذلك الوقت أن أفحص لفيفة صغيرة من ورق قذر أدكن كان النسيج الأحمر ملفوفا حولها . فلما بسطتها أمامى سرنى أن أجد فيها — بقلم المفتش الهرم — تفسيرا واضحا مستفيضا للأمر كله . كانت هناك صفحات طوال عن حياة امرأة تدعى « هيستر براين » يبدو أنها كانت ذات شخصية مرموقة فى نظر أجدادنا . وقد اشتهرت فى الفترة ما بين أيام « ماساتشوستس » الأولى ونهاية القرن السابع عشر . وكان المعمرون الذين عاصروا السيد المفتش « بيو » والذين قصوا عليه المعلومات التى دونها فى روايته ، يذكرونها — وهم بعد شبان — بوصفها امرأة بلغت من الكبر عتياً لكنها غير متهالكة ، بل كانت ذات مظهر جليل وقور . تعودت أن تجوب البلاد ممرضة متطوعة تقوم بما يتيسر لها من خير ، كما أخذت على عاتقها

لإسداء النصائح فى جميع الشئون — وخاصة ماتتعلق منها بالقلب . وطوعاً لهذه الوسائل وكأى شخص له تلك النزعة، اكتسبت تقدير أناس كثيرين اعتبروها ملائكية . لكننى أعتقد أن غيرهم ضاق بها واعتبرها دخيلة متطفلة . ولما توغلت أكثر وأكثر فى فحص السجل عثرت على تقرير بأعمال تلك المرأة الفريدة وآلامها ، نقلتها إلى القارىء فى قصة « الشارة القرمزية » . ومن ثم يجب على القارىء أن يذكر جيداً أن الوقائع الأساسية فى هذه القصة تستند استناداً وثيقاً متيناً إلى سجل السيد المفتش « بيو » ولا تزال الأوراق الأصلية والشارة القرمزية نفسها — التذكار البالغ الغرابة — فى حوزتى ، وإننى على أتم استعداد أن أعرض هذه المستندات دون مقابل لكل من تستثيرة القصة العظيمة فيرغب فى رؤيتها . ولكن . . فى الوقت عينه . يجب ألا يفهم من ذلك توكيدى أننى فى بنائى للقصة وترميمها .. وتخيل الدوافع والانفعالات النفسية التى تحرك شخصيتها قد التزمت حدود نصف « الدستة » من الصفحات التى كتبها المفتش الهرم با لعكس سمحت لنفسى بالانطلاق كأنما الوقائع من خلقى أنا برمتها . كل ما أجادل من أجله هو أصالة ملخص القصة .

وقد حملت تلك الحادثة عقلى على اقتفاء أثرها القديم . فظهر واضحاً أن هنا قاعدة أساسية لرواية . وقد تأثرت واهتززت كأنما المفتش العتيق — فى ثيابه التى عمرها مئات السنين ، وعلى رأسه الشعر المستعار الخالد الذى دفن معه لكنه لم يتحلل فى القبر — قابلنى فى حجرة الجمرك المهجورة .

وكان له . . بهيئته الوقور . . سمت حامل مهام جلالة الملك ، وعلى ذلك تضوأ بشعاع من العظمة البراقة التى تخلب الألباب والتى تحيط بالعرش . واحسرتاه . . ! شد ما يختلف عن موظف الجمهورية الذليل الذى هو خادم الشعب فيشعر تبعاً لذلك أنه أتفه من أتفه رئيس من رؤسائه وأحقر من أكثرهم حقارة . وكأنما مد الشبح الجليل الخفى يده وأعطانى الشارة القرمزية ولفيفة الورق الصغيرة التى هى سجل إيضاحى . ثم راح يحرضنى بصوته الخيالى — باعتبار احترامى له وواجبى البنوى نحوه (فله بحق أن يعتبر نفسه جدى الرسمى) — وينصحنى أن أعرض على الجمهور وثائقه العفنة التى أكلتها العثة .

— « افعل هذا . . » قال شبح السيد المفتش : « بيو » وهو يومىء فى شدة برأسه الذى بدا مهيباً تحت شعره المستعار التاريخى .. « افعل هذا وسيكون الربح كله لك ! فسوف تحتاج إليه عن قريب . فليست أيامك كأيامى عندما كانت وظيفة الرجل لمدى الحياة، بل كثيراً ما كانت وراثية . لكننى أحملك المسئولية — فيما يختص بالسيدة « براين » العجوز — أن تعطى سلفك التقدير الذى يستحقه عن جدارة ! »

فقلت أنا لشبح السيد المفتش « بيو » :

— « سأفعل ذلك ! »

وأكببت على قصة « هيستر براين » أوليها اهتمامى . صارت محور تفكيرى وتأملاتى ساعات طويلة وأنا أذرع حجرتى ذاهباً آيباً ، أو أجتاز

مئات المرات ـ المسافة بين باب الجمرك الأمامى والباب الجانبى ... ثم أرتد عائداً مرة أخرى . وقد ضاق بى المفتش الهرم . . والوزانون . . والقياسون ضيقاً شديداً لأننى أزعجت نومهم بطوافى القاسى الذى لا ينتهى . فيقولون عنى ـ بحسب عادتهم القديمة ـ إن المفتش يتمشى على ظهر السفينة . فأغلب الظن أنهم كانوا يعتقدون أن الهدف الوحيد الذى يجب على رجل عاقل أن يسعى إليه هو إثارة شهيته للغذاء . وفى الحقيقة ، كانت الشهية الطيبة ـ يثيرها الهواء الشرقى الذى يهب على الممر ـ هى النتيجة الوحيدة ذات القيمة لحول كهذا . وجو الجمرك غير مناسب قط لثمرات الخيـال والحساسية الرقيقة . فلو أننى لبثت فى رياسة الجمرك عشر سنوات أخرى ، فإننى أشك فى أن رواية «الشارة القرمزية» ستعرض على الناس يوما من الأيام . كان خيالى مرآة مصقولة . لا تعكس ـ أو إذا فعلت فإنها تعكس عكساً قاتماً ـ الأشخاص الذين جاهدت كى أزحمها بهم . فأشخاص الرواية استعصوا على . . فلا هم لانوا لدفء ولا انبعثت فيهم الحرارة التى أشعلتها فى موقدى الذهنى . لا هم التقطوا توهج شعور ولا رقة عاطفة ، بل احتفظوا بكل صلابة الجثث الميتة وراحوا يحملقون فى وجهى وقد كشروا عن أنيابهم فى نظرة تحد رهيبة ثابتة ، وكأن تعبير وجوههم يقول لى :

— « ما شأنك بنا ؟ السيطرة القليلة التى كانت لك على دنيا الخيال ولت . . وأدبرت ! فقد استبدلت بها مرتباً تافهاً من الذهب فى الخدمة العامة . اذهب إذن واحصل على مرتبك ! »

وبإجمال ، كانت شخصيات خيالى الخاملة نفسها تسخر منى وترمينى بالبلاهة وقد انتهزت لذلك فرصة طيبة .

ولم يعترونى ذلك الخدر التعس خلال الساعات الثلاث ونصف الساعة التى يطالبنى بها « الم سام » من حياتى اليومية وحسب ، لكنه لازمنى خلال تجوالى على شاطىء البحر وطوافى على غير هدى فى الريف ، كلما تحركت ساعياً إلى سحر الطبيعة ذاك المنعش ، والذى كان يبعث فى ذهنى نشاطاً وحيوية لحظة أخطر خارج « البيت القـــديم » . وصاحبنى ذلك الخدر ــ الذى غشى مقدرتى على أى مجهود ذهنى ــ إلى البيت وأثقل علىّ فى الحجرة التى كنت أطلق عليها اسماً غير ملائم قط : « مكتبتى » . ولم يفارقنى أثناء الليل وأنا جالس فى قاعة الضيوف الخالية والتى لا ينيرها سوى القمر وجمرات من الفحم تتوهج فى المدفأة ، أحاول جاهداً أن أتصور مشاهد خيالية تصلح ــ فى غد ــ أن أسكبها على صفحة فى وصف متعدد الألوان .

وإذا أبت قوة الخيال أن تعمل فى ساعة كتلك ، فلنا أن نعتبر حالتها بائسة كل البؤس . ضوء القمر فى حجرة أليفة لدى المرء ... يسقط ناصعاً على السجادة ويظهر نقوشها واضحة — كل نقش صغير يظهر بوضوح تام . لكنه يتخذ شكلا مخالفاً لما يبدو عليه فى ضوء النهار أو فى ساعة الظهيرة . تلك اللحظات هى خير وسيط لكاتب خيالى كى يتعرف بضيوفه الخياليين المراوغين . فهنا مشاهد الشقة الأليفة . . والكراسى التى لكل كرسى منها

شخصيته .. ثم مائدة الوسط عليها سلة الحيا كة ومجلد أو مجلدان ومصباح مطفأ ... ثم الأريكة .. ثم رف الكتب .. ثم الصور على الحائط — كل هذه البيانات الواضحة تمام الوضوح يبعث فيها الضوء غير المادى روحاً حتى لتبدو وكأنها تخلت عن حقيقتها المادية وصارت أشياء ذات إدراك وفهم . وليس هناك شيء مهما كان صغيراً أو تافهاً لا يمر بذلك التغيير ويكتسب وقاراً كنتيجة حتمية . حذاء طفل ... الدمية وهى جالسة فى عربتها الخشبية الصغيرة ... الحصان اللعبة — باختصار، أى شيء استعمل أثناء النهار أو لعب به الأطفال تغشاه الآن حالة تباعد وترفع غريبة على غير عادة مع أنه يبدو واضحاً وضوحه أثناء النهار تقريباً . وعلى هذا بدت أرضية حجرتنا المألوفة وكأنها بلاد محايدة . . لا هى من عالم الحقيقة ، ولا من عالم الأوهام . بين بين .. حيث يستطيع الواقع والخيال أن يلتقيا ويندمجا . فللأشباح أن تدخل هنا دون أن تخيفنا . فدخولها يلائم الجو السائد فلن يرعبنا أن نتلفت حولنا فنرى شخصاً محبوباً — مات منذ زمن بعيد يجلس الآن فى هدوء تحت شعاعة من ضوء القمر السحرى وعلى هيئة تحيرنا حتى لا ندرى أعاد من مكان سحيق أم أنه لم يتحرك من جوار مدفأتنا قط .

والنار التى وقودها جمرات قاتمة بعض الشيء عامل أساسى فى إضفاء ذلك الجو، وإيجاد ذلك التأثير الذى أود أن أصفه . فهى تبعث فى الحجرة كلها وفى غير فضول .. لوناً مخضباً يلقى على الجدران والسقف توهجاً فاتراً

ويمكس بريقاً من الأثاث المصقول . ويمتزج ذلك الضوء الأكثر حرارة بروحانية شعاعات القمر الباردة ، ويبعث فى الشخصيات التى يخلقها الخيال قلباً وشعوراً آدمياً رقيقاً . وهو يحيلها من تماثيل ثلجية إلى رجال ونساء . وإذا نحن اختلسنا نظرة إلى المرآة رأينا — فى أعماق حافاتها المسكونة بالأشباح — التأجج الهادىء للفحم الذى يكاد يخبو ... وشعاع القمر على الأرض ... ورأينا تـكراراً لتوهج الصورة وظلالها بأكملها ينقلنا خطوة أخرى بعيداً عن الواقع وقريباً إلى الخيال . فإذا كان هناك رجل يجلس وحيداً فى ساعة كهذه .. وأمامه مشاهد كهذه .. ثم عجز عن أن يحلم بأشياء غريبة ويجعلها تبدو حقيقية فليس له قط أن يحاول كتابة روايات خيالية .

ولـكن فيما يخصنى أنا .. وخلال تجربتى بأكملها فى الجمرك كان لضوء القمر ، ونور الشمس،وتوهج المدفأة ،تأثير واحد فىّ . لم يزد شىء منها عن الآخر فى تأثيره عندى قيد ومضة شمعة .

حشد بأكمله من تأثيرات مختلفة وموهبة على اتصال وثيق بها — بلا قيمة عالية جداً لـكنها خير ما أمتلك — ولىّ عنى .

وفى اعتقادى أننى لو كـنت قدحاولت الـكتابة بأسلوب آخر لما اعتبر الناس مقدرتى .. هكـذا .. ضعيفة وبلا غاية . كـنت مثلا رضيت بكتابة مايقصه على ربان محنك ، أو مفتش — أ كون ناكرا للجميل لو لم أذكره فى هذا المجال — فلم يمض يوم دون أن يثير ضحكى أو إعجابى بمواهبه الرائعة

بوصفه قاصاً قديراً لو أنني حافظت على أسلوبه التصويري القوى ، والتلوين الهزلى الذى علته الطبيعة أن يضفيه على وصفه ، لكانت النتيجة شيئاً جديداً فى عالم آداب اللغة . أو لكنت على الأقل وجدت لى مهمة أكثر جدية . كان من الجنون — مع كل واقعية الحياة اليومية التى تقحم نفسها على بثقل وفضول — أن أحاول الرجوع بنفسى إلى عهد مضى . أو أن أصر على خلق دنيا من الهواء . على حين لا تنفك تتلاشى كل فقاعة من فقاعاتى ذات الجمال غير الملموس لارتطامها بحقيقة واقعة .

كان المجهود الأجدى هو أن أمرر الفكر والخيال خلال الحاضر الواقعى المعتم فيصير شفافاً بهيجاً ، أن أبعث روح فى الثقل الذى ازداد ، أن أسعى بإصرار وراء القيمة الحقيقية الدائمة التى تكمن فى الحوادث التافهة والشخصيات العادية التى أنا على اتصال بها الآن : كان الخطأ خطئى . بدت تلك الصفحة من صفحات الحياة المبسوطة أمامى كئيبة مملة ، ذلك لأننى لم أفطن إلى مغزاها العميق . كان فيها كتاب خيراً مما كتبت ... يتبدى أمام ناظرى صفحة صفحة كما تخطها أحداث الساعة المارقة وتختفى بنفس السرعة التى كتبت بها — لأن عقلى أراد التعمق ، وأرادت يدى المهارة لتنسخه بدقة . ربما تذكرت فى المستقبل فقرات متناثرة من ذلك الكتاب فأسجلها لأجد أن الحروف استحالت فوق الصفحة ذهباً .

أدركت ذلك بعد فوات الأوان . أما أثناء التجربة فلم أشعر الا أن ما كان يسعدنى أضحى جهداً يائساً . ولم تكن هناك فرصة للعويل على

حالى . لم أعد كاتب قصص ومقالات متوسطة التفاهة . . . بل صرت مفتشاً للجمرك متوسط الإجادة . هذا كل ما فى الأمر . ومع ذلك فليس بالأمر المستحب أن يطارد المرء شك فى أن إدراكه الذهنى يتداعى شيئاً فشيئاً — آخذ فى التلاشى ، أو أنه يتبخر دون أن تدرى كأنه أثير فى زجاجة . ومع كل نظرة تختلسها إليه تجده قد نقص : لم يكن هناك أدنى شك أن تلك الواقعة قد حدثت فعلا : فبمراقبة نفسى ومراقبة غيرى — فيما يتعلق بتأثير العمل الحكومى فى الشخصية — وصلت إلى نتيجة ليست فى صالح تلك الحياة . ربما أوضحت ذلك التأثير فى مجال آخر . أما الآن فيكفى القول إن موظف الجمرك الذى شغل وظيفته زمناً طويلا لا يمكن أن يكون بعد شخصية محترمة أو يكون جديرا بالثناء والإعجاب لأسباب جمة . وأحد هذه الأسباب هو : الطريقة التى شغل بها وظيفته ، وسبب آخر : طبيعة وظيفته نفسها ، فهى التى بطبيعتها — وإن كنت أرجو أن تكون عند حسن ظنى بنزاهتها — تجعله لا يشارك فى مجهود الجنس البشرى .

وهناك تأثير آخر أعتقد أنه ظاهر فى كل إنسان شغل هذه الوظيفة؛ فبينما يستند إلى ساعد الجمهورية القوى تنسل منه قواه هو شيئاً فشيئاً . فتضيع منه بدرجة تتناسب وضعف طبيعته أو قوتها — مقدرته على إعالة نفسه . أما إذا كان يمتلك نصيباً وافراً من نشاط فطرى .. أو لم يؤثر فيه وهن طول الإقامة السحرى ، ففى وسعه استعادة قواه المسلوبة . فيستطيع

الموظف المفصول — السعيد الحظ بطرده الذى هيأ له فرصة الكدح فى غمار دنيا كادحة — أن يملك نفسه ويعود إلى ما كان عليه من قبل . ولكن ذلك يحدث نادراً؛ فالموظف يتشبث عادة بوظيفته زمنا كافيا لهلاكه وبعد ذلك يطرد وقد تراخت كل عضلاته ليمرح فى طريق الحياة الشاق على قدر طاقته . وحين يشعر بعجزه — وقد فارقته صلابته ومرونته — يظل يتلفت حوله آملا .. تواقاً أن يجد المعونة خارج نفسه . ويظل أمله الملح الدائم — الذى يصير هذياناً وهتراً يتحدى كل مايفتر الهمة . ويهون كل مستحيل .. ويطارده بلا هوادة طوال حياته (وعلى ماأتخيل يعذبه فترة قصيرة حتى بعد موته كتشنجات الكوليرا) — يظل يأمل أن لابد أخيراً . وعن قريب . وبمصادفة سعيدة ـ سيعيدونه إلى وظيفته . وذلك الأمل .. ذلك الإيمان ـ أكثر من أى شىء آخر ـ هو الذى يسترق منه روح أى مشروع آخر قد يحلم بالقيام به . لماذا يشقى ويكد ويكدح ليخرج نفسه من ورطتها على حين أنه لن يمضى وقت طويل حتى تمتد إليه ذراع « عم سام » القوية تنتشله وتموله ؟ لماذا يسعى من أجل رزقه هنا ... أو يرحل وينقب عن الذهب فى « كاليفورنيا » على حين أنه قريباً ما يستعيد هناءه — شهرياً — بكومة صغيرة من نقود براقة يقبضها من جيب « عمه ؟ » . ومما لاحظته بحزن أن الشخص ما يكاد يتذوق الوظيفة تذوقاً يسيراً حتى يصيبه ذلك المرض الفريد . فذهب « العم سام » — ولا أضمر أى احتقار للعم الشيخ الجليل — له فى هذه الحالة سحر المرتبات التى

يدفعها الشيطان لمن يضلهم . فيجد كل من لمس ذلك الذهب أن عليه المحافظة على نفسه جيداً وإلا ألفى المساومة تثقل كاهله . فهى إن لم تسلبه روحه فسوف تسلبه صفات حميدة ؛ منها : القوة .. والصلابة .. والشجاعة والإصرار .. والصدق .. والاعتماد على النفس — وكل ما تزهى به شخصية الرجل وتزدهر .

ياله من أمر رائع متوقع ! ليس معنى ذلك أننى رحت أدرسه فى خلوتى أو أننى اعترفت لنفسى أن من الجائز انحدارى إلى تلك الهوة وتحللى إلى هذا الحد ، سواء باستمرارى فى وظيفتى أو بطردى منها . ومع ذلك لم تكن تأملاتى مطمئنة . غدوت مكتئباً .. قلقاً . لا أنفك أنبش فى عقلى باحثاً عما تلاشى من صفاته وإلى أى مدى انحدر ماتبقى منها ، وحاولت أن أحسب كم من الزمن فى وسعى أن أمضيه بعد فى الجمرك وأظل رجلا لم يكن من اللياقة والسياسة فى شىء أن يطردوا إنساناً هادئاً مثلى ، كما لم يكن فى طبيعة أى موظف حكومى أن يستقيل ، ولذلك كان خوفى الأكبر ومصدر قلقى أنى سوف أعيش فى رياسة الجمرك حتى أشيب وأتداعى وأفنى وأصير حيواناً آخر كالمفتش الهرم . أليس من المحتمل ، بمرور الزمن البطىء المضنى فى الحياة الحكومية الممتدة أمامى ، أن تصبح حالى كحال هذا الصديق الوقور فأجعل ساعة الغداء محور اليوم .. وأمضى بقيته كما يمضيه كلب عجوز نائم فى الشمس أو فى الظل ؟ يا له من أمر مرتقب كئيب لرجل يشعر أن منتهى السعادة هى أن يرتع فى كل مجال إحساساته ومواهبه . لكننى

طوال هذا الوقت كنت أسبب لنفسي رعباً بلا داع . فقد فكر القدر وادخر لى أشياء خيراً مما كنت أطمع فيها ، أو حتى أستطيع تخيلها .

فأروع ما حدث خلال ثالث عام من رياستى للمفتشين كان هو انتخاب «القائد تيلر» لرياسة الجمهورية . ومن الضرورى، كى نقدر مزايا الحياة الحكومية تقديراً وافياً ، أن نرقب الموظف حينما تتولى الحكم هيئة سياسية معادية ، فإن مركزه حينئذ يكون مضنياً وحرجاً حيال كل طارىء إلى حد ينوء به أى مخلوق تعيس يشغل مثل وظيفته . وذلك دون مراوحة بين الخير والشر ، ومع أن ما يعتبره هو شر حادث وقع له قد يكون أحسن الأحداث . لكنها تجربة غريبة حقاً لرجل ذى كرامة وحساسية أن يعلم أن مصالحه بين يدى أناس لا يحبونه ولا يفهمونه ، فيفضل أن يصيبه منهم ضرر — مادام شىء من اثنين لابد سيناله على أيديهم — على أن يحمل لهم جميلا . هى تجربة غريبة حقاً لرجل احتفظ بهدوئه طوال المعركة الانتخابية ليرقب التلمظ للشر الذى يتكشف ساعة الانتصار ، على حين يعلم أنه هو نفسه أحد أهدافه .

هناك صفات قليلة فى الطبيعة البشرية أقبح من ذلك الميل الذى لاحظته فى رجال ليسوا شراً من جيرانهم ، هناك الميل للقسوة دون أى سبب إلا القدرة على فعل الشر ، وفى يقينى أن المقصلة لو كانت أمراً واقعاً لا مجازاً بالنسبة للموظفين ، لأطاح الحزب الفائز فى الانتخابات بكل رءوسنا وحمد السماء على الفرصة ! ويبدو لى — وكنت دائماً إنساناً

يرقب فى هدوء وفضول سواء فى الفوز أو فى الهزيمة — أن روح الحقد والانتقام العنيفة المريرة تلك لم يتميز بها حزبى السياسى فى انتصاراته الكثيرة كما تميز بها حزب الأحرار فى انتصاره الحالى .

فالحزب الديمقراطى يتولى أفراده الوظائف لأنهم يحتاجون إليها ، ولأن تجارب السنين جعلتهم يضعون قانوناً للحرب السياسية هو أن التذمر يعتبر ضعفاً وجبناً — إلا فى حالة الجهر بنظام جديد . ولكن تعود هم الانتصار جعلهم كرماء . يعرفون كيف يصفحون عندما تلوح الفرصة ، وعندما يضربون ضربتهم قد تكون الفأس حادة ، ولكن نادراً ما تغمس حافتها فى سم النية السيئة ، كما لم تكن عادتهم الشائنة أن يركلوا الرأس الذى قطعوه من فورهم .

أقول باختصار ، إننى على رغم مركزى الحرج وجدت أسبابا كثيرة لتهنئة نفسي بوجودى فى الجانب المهزوم لا فى الجانب المنتصر . وإذا لم أكن قبل ذلك الوقت من أكثر المواطنين حماسة فقد بدأت الآن ، فى موسم الخطر والعسر ذاك أشعر بعمق وحدة إلى أى حزب صارت ميولى ، وغشيني شيء كالخزى والندم عندما درست الموقف والفرص المهيأة ، فألفيت الأمل فى الاحتفاظ بوظيفتى مع الحزب الجديد أكبر منه مع حزب إخوانى الديمقراطيين . ولكن ... منذا الذى يستطيع النظر إلى المستقبل أبعد من طرف أنفه ؟ كان رأسى أول رأس هوى

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن اللحظة التى يهوى فيها رأس الرجل نادراً ما تكون — بل لا يمكن أن تكون — أسعد لحظات حياته . ومع ذلك ، فإنها

كمعظم مصائبنا ، وحتى الكبريات منها ، تأتى معها بعلاجها ومواساتها على شرط أن يتلقاها المرء بصدر رحب . أما فى حالتى أنا الخاصة فقد كانت لدى موضوعات شتى للمواساة وقريبة جداً منى ، بل إنها هى التى فرضت نفسها علىّ أثناء خلواتى وتأملاتى منذ زمن بعيد وقبل أن أحتاج إلى مواساة . فإذا ذكرنا ضيقى السابق بالوظيفة والأفكار المهمة التى ساورتنى فى شأن الاستقالة ، كان موقفى كموقف شخص تراوده فكرة الانتحار وبرغم يأسه من تحقيقها يحالفه الحظ فجأة ويقتل . وقد أمضيت فى الجمرك — كما أمضيت من قبل فى «البيت القديم» — ثلاث سنوات . وهى فترة كافية ليهدأ فيها عقل مجهد ، فترة كافية لتنمحى عادات ذهنية قديمة وتحل مكانها أخرى جديدة ، فترة كافية — بل فترة أطول مما يجب ليعيشها المرء فى حالة غير طبيعية ، كنت أعمل مالا جدوى منه ولا سعادة فيه لأى إنسان وأصد نفسى عن القيام بمجهود كان على أقل تقدير سيخمد فىّ خفقة حية . ثم غير ذلك ، وفيما يخص الإقالة غير اللائقة ، فإن المفتش السابق — الذى هو أنا — لم يكن حزينا كل الحزن لأن حزب الأحرار يعتبره خصما . فقد سبب له عدم ميله للنشاط السياسى حرجا — كان يميل للتجوال على هواه فى حقل السياسة الواسع الهادىء حيث يستطيع الجنس البشرى كله أن يلتقى ويفضل ذلك على حبس نفسه فى أحد الطرق الضيقة والتى هى الأحزاب حيث يتنافر الإخوة . وقد أثار عدم ميله للنشاط السياسى تساؤلا بين إخوانه الديمقراطيين هل هو صديق ، ولكن الآن بعد أن ربح تاج الشهداء مع أنه لم يعد له رأس ليضعه عليه) فيمكن اعتبار هذا التساؤل منتهياً .

وبرغم دور البطوله التمثيل الذى قام به فقد بدا من الأفضل أن يهوى هكذا مع الحزب الذى كان سعيداً بالوقوف معه، على أن يظل على قيد الحياة وحده، على حين أن هناك رجالا أفضل منه يتساقطون . ثم إنه إذا احتفظ بوظيفته فبعد أربع سنوات مثلاً من عيش مرير تحت رحمة هيئة معادية، قد يضطرونه أن يحدد موقفه من جديد ويستجدى رحمة هيئته هو الصديقة فى موقف أكثر مذلة .

وكانت الصحافة أثناء ذلك قد احتضنت قضيتى وأبقتنى مدى أسبوع أو اثنين مدلى أمام أعين الجمهور برأسى الذى طوحوا به . . . كالفارس المقطوع الرأس فى قصة « ارفنج » : بشماً متجهماً يتلهف على دفنه — كما يجب أن يحدث للرجل الذى مات سياسيا . هذا بخصوص نفسى المجازية . أما الآدمى الحقيق برأسه السليم بين كتفيه طوال هذه الفترة ، فقد قرر أن ما حدث كان لصالحه . واستثمر ما لديه من حبر . . وورق . . وأعد مكتبه المهمل منذ زمن .. ومرة أخرى أضحى أديباً .

هنا جاء مجهود السيد المفتش العتيق « بيو » . وقد استدعى الأمر مرور بعض الوقت حتى تتمكن أدواتى الذهنية — التى علاها الصدأ لقلة الاستعمال — من العمل فى الرواية وتأتى بنتيجة مرضية . وبرغم انهماك أفكارى حينئذ انهماكا تاماً فى المهمة ، فهى تبدو لعينى متزمتة كئيبة . ليس بها لمسات منعشة كالشمس ، ولم تسعفها المؤثرات الرقيقة المألوفة التى تلين كل مشهد فى الطبيعة وفى الحياة — وبلا أدنى شك — يجب أن تلين

كل صورة منهما . ربما كان هذا الأثر السيء نتيجة لمدة الصراع المائج التى لم تكن الثورة قد تمت فيها بعد ، والتى كتبت أثناءها الرواية . على كل حال ، ليس هذا دليلاً على انقباض الكاتب ، فقد كان جد سعيد وهو يجول فى ظلمات تلك الرؤى المعتمة أكثر منه فى أى وقت آخر منذ غادر « البيت القديم » . وبعض المقالات القصيرة التى يتألف منها المجلد كتبتها أيضاً بعد أن تنحيت قسراً عن شرف الخدمة العامة ومشاقها . أما بقية المقالات فقد التقطتها حيث نشرت فى مجلات أسبوعية وسنوية يعود تاريخها إلى عهد سحيق حتى إنها أتمت الدورة ثم بعثت من جديد(*) ونحن إذا تمسكنا بكناية المقصلة السياسية ، فيمكننا أن نطلق على مجموعة المقالات : « أوراق تنشر بعد موت مؤلفها المفتش المقطوع الرأس » . وإذا كانت الصورة الوصفية التى أختتمها الآن تسودها صفة شخصية بحتة ولا يليق بشخص متواضع أن ينشرها فى حياته ، فسوف يعفو عنه الجميع إذا اعتبروا أنه يكتبها من قبره . سلام على العالم كله ! لتحل بركاتى على أصدقائى ! إنى أعفو عن جميع أعــــدائى ! فإننى بت فى مملـكة الهدوء والسكون !

فحياتى فى الجمرك تـكمن خلفى كالحـلم . ويؤسفنى القول بأن المفتش الهرم لم يمض عليه طويل وقت حتى سقط عن حصان وقتل وإلا لعاش إلى

(*) أثناء كتابة هذا المقال ، قرر المؤلف أن ينشر فى كتاب « الشارة القرمزية » قصصا أخرى كثيرة أقصر منها وطائفة من الصور الوصفية . ولـكن رئى أنه من المستحسن تأجيلها .

الأبد هو والشخصيات الموقرة الأخرى التي تجلس معه أثناء تسلم الضريبة. لقد أضحوا أشباحا فى نظرى : صوراً مجمدة ذات رءوس بيضاء كان يداعبها خيالى وطوح بها جانباً الآن إلى الأبد . أما التجـار : « بنجرى » ، و « فيليبس » ، و « شـيبارد » ، و « أبتون » ، و « كيمبال » ، و « برترام » ، و « هانت » — كل هؤلاء وأسماء أخرى كثيرة كانت لها رنة مألوفة فى أذنى منذ ستة أشهر . . أما رجال التجارة هؤلاء الذين بدوا لى كأنهم يشغلون مركزاً هاماً جداً فى الدنيا فلم يستدع انفصالى عنهم — بل نسيانى لهم نسياناً تاماً حتى لم أعد أذكرهم — سوى وقت قصير جداً . فأنا أتـكلف جهدا كى أتذكر هيئات تلك القلة من الناس وأسماءها . وما أسرع أن يصبح مسقط رأسى هو الآخر ذكرى معتمة غير واضحة فى خيالى يحوم ضباب فوقها وحولها كأنها ليست جزءا حقيقياً من هذه الأرض ولـكن قرية وحسب تضخمت فى دنيا السحاب ، يقيم فى بيوتها الخشبية أناس خياليون .. يسيرون فى طرقاتها ويقطعون شارعها الرئيسى الطويل الممل . من الآن فصاعداً لن تـكون حقيقة فى حياتى . إننى مواطن من بقعة أخرى . لن يندم أهل قريتى كثيراً على فراقى . فمع أن أحد أهدافى الغالية فى محاولاتى الأدبية كان أن أصبح ذا قيمة فى أعينهم وأن أترك معهم ذكرى طيبة عنى فى هذا الوطن الذى هو أيضاً مقبرة لـكثير من آبائى — فإننى لم أجد هنا قط الجو البهيج المنعش الذى ينشده الأديب حتى تثمر قريحته وتأتى بخير حصاد . سيكون لى حظ خير من هـذا مع

وجوه أخرى جديدة ، أما تلك الوجوه المـــألوفة فلن يضيرها أنى بعيد عنها .

ومع ذلك فربما — يا للأمل الظافر الطروب ! — ربما . . أحيانا . . ذكر أحفاد الجيل الحاضر كاتب الأيام الغابرة بالخـير ، وعالم المستقبل الأثرى يشير ضمن المشاهد الخالسة فى تاريخ البلدة — إلى موقع . « مضخة المدينـة » !

الفصل الأول

باب السجن

لة من رجال ملتحين فى ثياب قاتمة حزينة وقبعات رمادية طويلة مخروطة . يختلطون بنساء منهن عارية الرأس ومنهن من ترتدى قلنسوة ، تجمعوا كلهم أمام بناء خشبي له باب ثقيل من خشب السنديان تزينه مسامير كبيرة قوية لها رءوس ضخمة .

فقد رأى مؤسسو أول مستعمرة — مهما يكن من أمر المشروع الذى كانوا يزمعون تنفيذه بادىء بدء لدنيا مثالية للفضيلة البشرية وسعادتها — أن من الضروريات الهامة التى لاغنى لهم عنها تخصيص موقع من الأرض البكر لمقبرة وموقع آخر لسجن . وعلى هذا الاعتبار يمكننا القول فى طمأنينة بأن آباء « بوسطن » الأوائل شيدوا أول سجن فى مكان ما حول « كورنهيل » ، وعلى وجه التقريب فى الوقت عينه الذى رسموا فيه حدود المقبرة عندما دفنوا « إسحاق جونسون » وجعلوا قبره نواة للقبور الأخرى المحتشدة فى ساحة الكنيسة القديمة المسماة « قاعة الملك » . ولم تمض خمس عشرة سنة أو عشرون على إنشاء البلدة حتى ظهرت على السجن آثار الرياح وعلامات الشيخوخة الأخرى التى أضفت هيئة أشد قتامة على واجهته الكئيبة المرشوقة برءوس مسامير سوداء كأنها خنافس . أما الصدأ الذى علا نقوش الباب الحديدية الغليظة فقد جعله يبدو مفرطاً فى القدم أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا الجديدة كلها . وككل مايتعلق بالجريمة ، لم

يكن يبدو عليه أنه عرف الشباب يوما . وأمام هذا البناء القبيح الشكل .. وبينه وبين الشارع .. كانت هناك رقعة تنمو فيها حشائش ونباتات لاتسر العين ، لابد أنها عثرت على شيء يلائمها فى تلك التربة التى أثمرت من قبل الزهرة السوداء للمجتمع المتمدن : السجن . ولكن إلى جوار الباب على عتبته تقريبا .. كانت تنمو شجرة ورد وحشى تغطيها أزهارها الرقيقة فى شهر يونيو ذاك ، كأنما تهب عطرها وجمالها الهش الرقيق للسجين حين يدخل وللمحكوم عليه بالإعدام وهو خارج يلقى مصيره ، وتؤكد له أن فى وسع الطبيعة بقلبها الكبير العميق أن تعطف عليه وترحمه .

وقد خلدت شجرة الورد هذه فى التاريخ بمصادفة غريبة . لكننا لانستطيع القطع برأى فى شأنها : هل عاشت لقوتها وانبثاقها من الغابة العجوز الصلدة ، أو نصدق الوثائق والمستندات التى تؤكد أنها ازدهرت تحت أقدام القديسة «آن هاتشنسون» وهى تخطو داخل السجن. ولكن لما كانت تلك الشجرة تنمو على عتبة روايتنا — التى هى على وشك الخروج من ذلك الباب المشئوم — فلا يسعنا إلا أن نقطف إحدى ورداتها ونهديها إلى القارىء، آملين أن ترمز إلى زهرة خلقية حلوة قد يمر عليها فى الطريق أو تخفف من الخاتمة القاتمة لقصة الضعف البشرى وأحزانه .

الفصل الثانى

ســـاحة السوق

ذات صباح .. من ذات صيف . . ومنذ حقبة من الزمن لا تقل عن قرنين ، احتشد جمع من أهالى « بوسطن » على رقعة الحشائش التى تنمو أمام السجن ، وقد تعلقت عيونهم كلها بالباب الخشبى الثقيل ذى المسامير الحديدية الضخمة . ولو أن ذلك الجمع عينه كان فى عشيرة أخرى أو فى حقبة أخرى من تاريخ « انجلترا الجديدة » لـكانت الصلابة العبوس التى تحجرت على سحن هؤلاء الملتحين الطيبين نبوءة لأمر خطير فظيع ، ليس أقل من تنفيذ حكم إعدام مرتقب فى مجرم شهير مثلاً . . جاء حكم القضاة عليه مؤكداً لما قر عليه الشعور العام . ولـكن فى تلك الفترة الأولى من صرامة خلق « البيوريتانز » لم يكن فى المقدور مخالفة الشعور العام . قد يدل جمع كهذا على أن عبداً كسولاً أو طفلاً لا يطيع والديه أسلم إلى السلطة المدنية لتؤدبه على منصة الجلد ، أو أن أحد أفراد شيعة « الـكويكرز » أو « الأنتينوميانز » أو ضالاً آخر من المتدينين سيجلد حتى يخرج من البلدة ، أو أن هندياً أحمر أفاقاً قد أطاشت لبه الخمر التى يسميها « ماء نار الرجل الأبيض » ، وسار صخاباً مشاغباً فى الشوارع

فهم سيطاردونه بالسياط إلى قلب الغابة ، أو أن ساحرة كالسيدة «هيبنز» العجوز أرملة المأمور السليطة اللسان ستلقى حتفها على المشنقة . وفى كل حالة من تلك الحالات كان الوقار عينه يبدو على المتفرجين ، فهم قوم لافارق لديهم بين دين وقانون ، بل إنهما يمتزجان فى قلوبهم ، حتى إن أى قرار ينفذ لتطبيق القانون سواء كان هيناً أو قاسياً يثير فى تلك النفوس الرعب والتقديس معاً فى آن واحد . فلم يكن المذنب وهو على المشنقة ينتظر من متفرجين كهؤلاء سوى عطف هزيل بارد ، ومن جهة أخرى فإن العقوبة التى نعتبرها فى أيامنا هذه مهزلة وعاراً لا بد أنهم كانوا يوقمونها بنفس الوقار الصارم الذى يوقمون به عقوبة الموت نفسها .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى ذلك الصباح .. من ذلك الصيف الذى تبدأ فيه قصتنا .. انحشرت بين الجموع نساء كثيرات بدا عليهن اهتمام خاص بالعقوبة التى ستوقع مهما يكن نوعها . فلم يكن لذلك العصر من الرقة التى تثير الشعور بعدم اللياقة فى نفوس النساء مايمنعهن أن يخرجن إلى الطرقات العامة ويحشرن أجسادهن الضخمة حشراً — كلما لاحت فرصة — فى المجموع الأقرب إلى المقصلة عند تنفيذ حكم إعدام . فقد كان هناك — حقيقة ومجازاً فى هؤلاء الزوجات والفتيات الإنجليزيات مولداً ونشأة قديمة — عرق خشن أغلظ مما كان فى حفيد اتهن الرقيقات واللاتى تفصلهن عنهن سلسلة من قرون ستة أو سبعة . فإن كل أم على التعاقب — خلال هذه السلسلة الطويلة من القرون — أورثت ابنتها ازدهاراً أقل . . وجمالا أرق . .

وقامة أدق . . وإن لم تورثها خلقاً أقل صلابة وقوة من خلقها . أما النساء المتجمهرات الآن حول باب السجن فلا يفصلهن سوى أقل من نصف قرن عن الملكة « أليزابث » المسترجلة والتي لم تكن نموذجاً سيئاً لجنسها فهن مواطناتها ، وتدخل في تكوينهن لحوم وخمور من مسقط رأسهن ، وقائمة من طعام خلقي ونفساني لا يزيد في رقته عن رقة تلك الملكة . فشمس الصباح البهيجة كانت تلقى أشعتها إذن على أكتاف عريضة . . وصدور ضخمة نامية . . وخدود مستديرة قانية نضجت في الجزيرة النائية ولم يلحقها الشحوب ولا الضمور بعد في جو « انجلترا الجديدة » . كذلك كان حديث هؤلاء الزوجات — كما تبدو سمته على معظمهن — حديثاً جريئاً متدفقاً إلى درجة تزعجنا اليوم سواء من حيث موضوعه أو من حيث الصوت الذي يعلو به .

قالت امرأة منهن في الخمسين لها قسمات حادة :

— « أيتها الزوجات الطيبات ! سوف أقول لكن شيئاً مما يدور في خلدي : لو كان لنا نحن النساء ذوات السمعة الطيبة في عضوية الكنيسة واللاتي بلغن سناً ناضجة — لو كان لنا الحق في عقاب الخاطئات مثيلات « هيستر براين » لجنى المجتمع نفعاً عظيما . ما قولكن أيتها الثرثارات ؟ إذا وقفت تلك الفتاة أمامنا لنحاكمها نحن الخمس المجتمعات هنا الآن ، أكان نصيبها حكما بسيطاً كالذى كافأها به القضاة المتدينون ؟ لا أظن . . . !

فقالت أخرى :

— « يقول الناس إن السيد القس الجليل » دعسدال « .. أباها الروحى .. كان حزينا كل الحزن أن فضيحة كهذه وقعت فى أبرشيته ! »

فأضافت زوجة ثالثة فى خريف عمرها :

— « إن القضاة رجال يخشون الله لـكنهم رحماء أكثر مما ينبغى ، هذا قول صادق لا شك فيـه . فعلى الأقل كان يجب عليهم أن يسموا جبهتها بحديد محمى ، وأؤكد لـكن أن السيدة « هيستر » كانت ستر تجف ألما حينئذ .. بلا شك ! أما الآن فلن تهتم كثيراً ولا قليلاً بما يضعونه على صدر ثوبها من شارة . ففى إمكانها أن تخفيها بدبوس حلية أو بأى زينة شيطانية أخرى وتسير فى الطرقات بوقاحة كعهدها ! »

فتدخلت بلطف زوجة صغيرة تمسك بيدها طفلا :

— « أواه ... فلتخف الشارة كما تريد ، ولـكن غصتها سوف تظل فى قلبها إلى الأبد ! »

فصاحت أنثى أخرى هى أقبح هؤلاء القاضيات اللاتى ولّين أنفسهن وأقلهن شفقة :

— « كيف نتحدث عن الشارات ووسم الحديد المحمى سواء أكان على ثوبها أم على لحم جبهتها ؟ لقد جلبت هذه المرأة العار علينا كلنا ، فيجب أن تموت . ألا يوجد قانون بذلك ؟ الحقيقة أنه موجود فى الإنجيل وفى كتاب القوانين . فليحمد القضاة أنفسهم ماداموا لم يسمحوا لهذا القانون أن يأخذ مجراه إذا فجرت زوجاتهم وبناتهم ! »

فصاح رجل فى الحشد :

— « الرحمة بنا أيتها الزوجة الطيبة — أليس فى المرأة أى فضيلة إلا التى تنبع من خوفها من المشنقة ؟ إن هذه لأقسى كلمة سمعتها حتى اليوم صه أيتها الثرثارات .. صه ! فالمفتاح يدور الآن فى باب السجن وها هى ذى السيدة » براين « بنفسها ! » .

دفع باب السجن من الداخل وانفتح ليظهر أول ما يظهر — كظل أسود يبرز إلى نور الشمس — سادن (قوّاص) كنيسة البلدة بهيئته الضامرة العابسة يحمل سيفاً على جنبه وصولجان الوظيفة فى يده اليسرى التى تحمل الصولجان الرسمى ممدودة أمامه ، وكان يمسك بيده اليمنى على كتف امرأة شابة يسحبها إلى الخارج . حتى وصلا إلى عتبة باب السجن فصدته عنها بحركة يميزها وقار طبيعى وشخصية قوية ، وخطت إلى الهواء الطلق كأنما ذلك عن إرادتها الحرة . وكانت تحمل على ذراعيها رضيعاً ابن ثلاثة أشهر . دف بجفنيه عندما واجه الضوء الشديد ، وأدار وجهه الصغير إلى جانب . فهو لم يعرف منذ وجوده فى هذه الدنيا سوى غبشة الزنزانة أو الضوء الشاحب الذى يسود حجرات السجن الأخرى .

فلما برزت المرأة الشابة — أم ذلك الطفل — أمام الحشد المجتمع كان أول ما خطر لهـا أن تضم صغيرها إلى صدرها . ولم تـكن تلك الحركة صادرة عن أمومة حانية بقدر ما كانت لإخفاء شارة علقت على صدر ثوبها ، لـكنها سرعان ما فطنت إلى أن رمزاً من رموز خطيئتها هو وسيلة فاشلة

لإخفاء رمز آخر ، فحملت طفلها على ذراعها ، وبخدين يلتهبان ولكن بابتسامة متعالية وبنظرة مكابرة ، تلفتت حولها تنظر إلى جيرانها وأهل بلدتها . وبدت على صدر ثوبها قطعة من نسيج أحمر فاخر قد طرزت تطريزاً متأنقاً متقناً بخيط مذهب على شكل حرف أبجدي. وكان التطريز فنياً سخياً، لعب فيه خيال رحب رائع دوراً كبيراً حتى إنه بدا حلية ملائمة للزي الذي ترتديه ، والذي كان من طراز يلائم ذوق العصر لكنه ثمين أكثر مما يسمح به قانون النفقات في المستعمرة .

وكانت المرأة الشابة طويلة وقامتها متناسقة تناسقاً تاما . شعرها حالك غزير لامع حتى إنه عكس ضوء الشمس في شعاعات . لها وجه بجانب جماله من حيث انسجام القسمات والبشرة الرائعة ، يترك أثراً في النفس كالأثر الذي تتركه دائماً جبهة عالية وعينان سوداوان عميقتان . لها سمت السيدات المهذبات وفقاً لأنوثة تلك الأيام التي يميزها وقار وترفع ، لا الرشاقة الرقيقة الضامرة الهشة التي نعتبرها الآن أولى علامات الأنوثة . ولم تبد « هيستر براين » قط من قبل بتلك الأنوثة — بالمعنى العتيق للفظ — كما بدت الآن وهي خارجة من السجن . حتى إن الذين عرفوها من قبل وتوقعوا أن يروها ذابلة قد انطفأت تحجبها غمامة مدمرة ، دهشوا بل انزعجوا لرؤية جمالها مزدهراً مضيئاً أحال الكارثة والفضيحة هالة تحيطها وتلفها لفاً . ولكن ربما بدا في كل ذلك شيء مؤلم لمتفرج مرهف الحس . فقد كان زيها — الذي خاطته في السجن بنفسها ووفق هواها خاصة لتلك المناسبة — يعبر

بغرابته وزخرفته عن نفسيتها وعن عدم مبالاتها ويأسها . ولكن الشيء الذي لفت كل الأنظار وبدا كأنه أحال من ترتديه امرأة أخرى حتى إن كل النساء والرجال الذين عرفوها معرفة وثيقة صعقوا كأنما يرونها أول مرة — كانت الشارة القرمزية التي لعب الخيال في تطريزها دوراً كبيراً والتي راحت الآن تتضوأ على صدرها ، لهـــا فعل السحر ، كأنما قطعت علاقة المرأة بالإنسانية كلها وسجنتها في كون آخر وحدها .

وصاحت إحدى المتفرجات :

— « إنها ماهرة بإبرتها . . . ما في ذلك شك ! ولكن . . . هل تحايلت امرأة قط قبل هذه الوقحة على إظهار مهارتها بتلك الطريقة ؟ أيتها الثرثارات — أليس ذلك ضحكا في وجوه قضاتنا الأتقياء ومباهاة بما كانوا يريدونه عقاباً . . . هؤلاء السادة المحترمون ؟ » .

فغمغمت أكثر النسوة العجائز قبحاً بسحنتها الحديدية القاسية :

— « الأجدى بنا أن نمزق ثوب «السيدة هيستر» الفاخر عن كتفيها الرقيقتين . أما « الشارة القرمزية » التي طرزتها بمهارة فسوف أهبها بدلا منها مزعة من « فانلتي » التي أرتديها للروماتيزم كي تصنع منها شارة أكثر ملاءمة ! »

فهمست زميلتهن الشابة :

— الهدوء يا جاراتي . . . الهدوء ! لا تجعلنها تسمعكن فإنها لم تطرز خيطاً في تلك الشارة إلا وهي تحس به في قلبها ! »

ولوح ساعتئذ سادن (قواص) كنيسة البلدة العبوس بصولجانه :

— « أفسحوا الطريق باسم الملك ، أيها الناس الطيبون ! افتحوا طريقا — وأعدكم أن « السيدة براين » سيطلق سراحها بحيث يراها كل رجل وامرأة وطفل فى زيها الجرىء هذا — من الآن إلى ما بعد الظهر بساعة ! ليبارك الله مستمرة « ماساتشوستس » حيث يجرر الشر الخفى خارجا . . تحت نور الشمس ! هيا . . تقدمى يا سيدة «هيستر» واكشفى عن شارتك القرمزية فى ساحة السوق ! »

فانفتحت على الفور سكة ضيقة بين المتفرجين .وسارت «هيستر براين» نحو المكان المعد لعقابها . يتقدمها سادن الكنيسة ويتبعها موكب غير منتظم من رجال متجهمين ونساء ذوات سحن قاسية . وراح جمع متلهف فضولى من تلاميذ المدارس الذين لم يفهموا من الأمر كله شيئا سوى أنه هيأ لهم عطلة نصف يوم — راحوا يركضون أمامها ويلتفون نحوها كل لحظة ليحملقوا فى وجهها . . وفى الطفل الذى على ذراعيها . . . . وفى الشارة المهيمنة على صدرهـا . ولم تكن المسافة بين باب السجن وساحة السوق كبيرة تلك الأيام . لكنها فى نظر السجين رحلة طويلة . فعلى رغم تعالى «هيستر» ووقار هيئتها ، قاست ألما بالغا مع كل خطوة من خطوات الذين تهافتوا ليروها كأنما ألقى بقلبها نفسه على الأرض ليدوسوه بأقدامهم . وطبيعة النفس البشرية معدة إعداداً رائعاً ورحيما بحيث لا يفطن المتألم إلى عنف ما يحتمل أثناء تعذيبه ، ولكن تحرقه بعد ذلك غصة فكان أن

مرت « هيستر » بذلك الجزء من محنتها فى هدوء يكاد يكون رزانة حتى وصلت إلى منصة فى أقصى ساحة السوق الغربية ، تقع بجوار كنيسة « بوسطن » الأولى وتبدو كأنها ثابتة فى مكانها هناك .

وقد كانت تلك المنصة جزءاً من آلات العقاب ظلت متعطلة مدى قرنين من الزمان أو ثلاثة ، ونعتبرها نحن فيما بيننا شيئاً تاريخياً موروثاً . لكنها فى الأيام الغابرة كانت عاملا هاما ذا أثر فعال فى الارتقاء بالوعى الوطنى — تماماً كالمقصلة فى نظر الإرهابيين الفرنسيين . كانت ، باختصار منصة يعلوهالوح خشبي عريض له فتحة مستديرة فى وسطه ، صنعت بحيث تطبق على الرأس البشرى فى نطاقها الضيق وتمسك به هكذا ليراه الجميع فصارت فكرة الفضيحة نفسها تتجسم وتتضخم فوق تلك الآلة المصنوعة من خشب وحديد . وفى اعتقادى أنه ليس هناك انتهاك لحرمة طبيعتنا المادية — مهما اقترف المرء — أفظع من أن يحرم الجانى إخفاء وجهه من فرط الخزى . كما كان الغرض الأساسى من تلك العقوبة . أما فى حالة « هيستربراين » فكان الحكم الذى صدر ضدها هوأن تقف فترة محدودة على المنصة ، ولكن دون أن تعانى ذلك الإطباق على العنق الذى يتميز بإحناء الرأس بطريقة جهنمية تعتبر أولى خصائص تلك الآلة القبيحة . ولما كانت « هيستر » تعرف سلفاً دورها جيداً فقد صعدت بضع درجات خشبية . وهكذا عرضت لأنظار الحشد الملتف حولها ، على ارتفاع يقرب من قامة رجل فوق مستوى الشارع .

ولو كان بين جموع « البيوريتانز » أحد رجال البابا لرأى فى تلك المرأة الجميلة الرائعـــة بزيها وهيئتها وبالطفل على صدرها ، شيئاً يذكره بصورة الأمومة الإلهيـة التى تنافس رسامون كثيرون ذائعو الصيت فى التعبير عنها فى صورهم ، شيئاً يذكره بلا شك — ولـكن مع الفارق — بالصورة المقدسة للأمومة غير الخاطئة التى افتدى طفلها العالم . أما هنا ، فـكانت لطخة لأعمق خطيئة مجسمة فى أعلى صفات البشرية قدسية — مزاجا زاد شقاء الدنيا بجمال تلك المرأة وزادها ضياعاً بهذا الطفل الذى أنجبته .

ولم يكن المشهد خالياً من الرهبة التى لا بد أن تغشى رؤية خطيئة وخزى فى مخلوق مثلنا ، وإلا لـكان المجتمع قد انحط لدرجة أن يبتسم لا أن يقشعر . ولم يكن أولئك الذين شهدوا خزى « هيستر براين » قد أضاعوا سذاجتهم وسلامة طويتهم بعد . لقد كانوا حقاً صارمين حتى إنهم ليشهدون موتها — لو كان حكم عليها به — دون احتجاج على قسوة ذلك الحـكم ، ولـكن الفظاظة التى لحقت بمجتمع آخر لم تـكن قد أصابتهم حتى إنهم فى عرض كهذا يجدون مجالاً للسخرية وحسب . ولو كان هناك ميل لقلب الأمر كله مهزلة ساخرة ، فلا بد أنه قمع وكبت تغلب عليه وجود رجال لا يقلون وقاراً عن الحاكم نفسه ، ثم جمع من مستشاريه . . ثم قاض . . وقائد . . وموظفو البلدة ، وقفوا جميعاً فى شرفة منزل يطل على المنصة . وعندما تشترك شخصيات كهذه فى المشهد دون مجازفة بجلال

المركز وقدسية الوظيفة ، يمكننا بلا تردد استنتاج أن تنفيذ عقوبة ما كان له أثر أكيد فعال . ولهذا وقف حشد المتفرجين فى جد وكآبة . وقد تحاملت الخاطئة البائسة على نفسها كأقصى ما تستطيعه امرأة تحت وطأة ألف عين لا ترحم ولا تلين بل تتعلق بها وتركز نظرها على صدرها . كان أمراً غير محتمل . ولما كانت « هيستر » ذات طبيعة حارة مندفعة ، فقد حصنت نفسها وأعدتها لمواجهة اللدغات والطعنات السامة التى ستصيبها من احتقار الجمهور لها والتى تتبدى فى صور شتى من الإهانة . ولكن أذهان الجموع كانت فى حالة أفظع مما خشيته « هيستر » حتى إنها تمنت لو رأت تلك الوجوه الجامدة تتقلص فى ضحك ساخر . . . وإن كانت هى نفسها الهدف . فلو أن قهقهة عالية انفجرت من بين الجموع واشترك فيها بجهده كل رجل . . وامرأة . . وطفل بصوته الرفيع الحاد ، لاستطاعت « هيستر » حينئذ أن تكافئهم ، كلهم بابتسامة مريرة مترفعة . لكنها الآن تحت وطأة الابتلاء الثقيل ثقل الرصاص ، والذى قدرلها أن تتحمله ، شعرت فى بعض اللحظات أنه لا بد من أن تصرخ بملء رئتيها وتقذف بنفسها إلى الأرض من فوق المنصة ، أو تجن من فورها .

ومع ذلك ، مرت فترات كان فيها المشهد كله — ذلك الذى كانت هى أكثر شىء بارز فيه — يختفى عن عينيها ، أو على الأقل راح يومض فى غير وضوح أمامهما ، ككتلة من مشاهد خيالية متداخلة .. لا شكل لها ولا نظام . أما عقلها وخاصة ذاكرتها، فكانا يعملان بنشاط غير طبيعى ، وظلا يعيدا كران مشاهد أخرى غير مشهد ذلك الشارع الممهد بخشونة كيفما اتفق

فى تلك البلدة الصغيرة الواقعة على طرف الغابة الغربية ، يتذاكران وجوها أخرى غير التى تحملق فيها الآن من تحت حافات تلك القبعات العالية المخروطة — ذكريات تافهة .. مقتطفات عن عهد الطفولة . . وأيام الدراسة والألعاب الرياضية . . والشجار الغرير . . والعادات المنزلية فى زمن صباها تدفقت عليها مختلطة بذكرى أخطر ما مر بها فى حياتها التى تلت تلك المراحل . وكل صورة فى توهج صورة أخرى سواء بسواء ، كأنما لها كلها الأهمية عينها . . أو كأنما كلها مشاهد من مسرحية . ربما كانت هذه حيلة غريزية ابتدعتها روحها لتخفف عن نفسها — بعرض تلك الأشكال الوهمية عينها — بعض ثقل الواقع القاسى وخشونته .

لكن السبب الحقيقى ما يكون ، أما المنصة فقد هيأت لها فرصة رؤية الطريق على امتداده ، ذلك الذى سارت فيه منذ طفولتها الهانئة . فرأت مرة أخرى وهى على هذا الارتفاع التعيس ، مسقط رأسها فى « انجلترا القديمة » ثم بيت والديها — بيتاً متداعياً من أحجار رمادية عليه سيما الفقر ، لكنه يحتفظ بدرع حربية نصف مطموسة معلقة فوق مدخله إشارة إلى كرم محتد عتيق . ورأت وجه أبيها برأسه الأصلع ولحيته البيضاء الوقور التى تنسدل على رباط رقبته المنفوش (الطراز القديم للثياب فى عهد الملكة « اليزابث ») . كما رأت وجه أمها الذى كانت تكسوه دائماً نظرة الحب الحذر القلق وكثيراً ما كان بعتابه الرقيق عقبة فى طريق الإبنة . ورأت وجهها هى متوهجا بجمال الصبا ، ينير تلك المرآة القاتمة التى جبلت هى على التحديق فيها . وفى المرآة أيضا رأت وجها آخر

وجه رجل تقدمت به السنون . . سحنة ضامرة شاحبة لعالم أنهك عينيه نور المصباح الذى أعانه على الانكباب على كتب ضخمة كثيرة . ومع ذلك كانت لهاتين العينين الذابلتين قوة غريبة نافذة عندما يهدف صاحبهما إلى قراءة النفس البشرية . كما كان جسم ربيب المكتبة والدير هذا مشوها لم يفت خيال « هيستر براين » الأنثوى أن يذكر أن كتفه اليسرى تعلو شيئا عن كتفه اليمنى . ثم برزت أمامها فى معرض الصور الذى أقامته ذاكرتها : الأزقة الضيقة الملتوية فى مدينة أوربية . . وبيوتها الطويلة الرملية . . وكاتدرائياتها الضخمة . . ومبانيها العامة العتيقة ذات الهندسة الغريبة حيث كانت تنتظرها حياة جديدة فى رباط مع ذلك العالم المشوه . حياة جديدة لكنها تستمد غذاءها من مواد أكل عليها الدهر وشرب ككتلة من طحلب أخضر على جدار متداع . وأخيراً تلاشت كل تلك المشاهد المتلاحقة لتحل محلها ، مرة أخرى ساحة السوق الخشنة فى مستعمرة « البيوريتانز » وقد تجمع أهل البلدة يرمقون « هيستر براين » بنظرات قاسية ثابتة . . نعم ، يرمقونها هى . . التى تقف على منصة العقاب . . بطفل على ذراعها . وشارة قرمزية مطرزة بخيط ذهبى تطريزا غريبا على صدرها ! .

أيمكن أن يكون هذا حقيقة واقعة ؟ جذبت الطفل بعنف إلى صدرها حتى إنه أطلق صرخة ، وأدارت عينيها نحو الشارة القرمزية تتأملها ثم لمستها بإصبعها لتتوكد لنفسها أن الطفل والعار حقيقتان — نعم . . إنهما حقيقتان . أما كل ما عداهما فقد تلاشى ! .

الفصل الثالث

التعـــرف

أخيراً استراحت صاحبة الشارة القرمزية بعد شعور عنيف بأنها محور مراقبة شاملة قاسية ، عندما ميزت على بعد — خارج دائرة الحشد الجامع — شخصاً تملك على الفور كل انتباهها وأفـكارها . كان هناك هندى أحمر يقف بثيابه التقليدية . ولـكن الهنود الحمر لم يكونوا زواراً نادرين فى المستعمرات البريطانية حتى يسترعى أحدهم انتباه « هيستر براين » فى ساعة كهذه أو يستحوذ على عقلها دون الأشياء والأفـكار كلها . وبجوار الهندى الأحمر وقف رجل أبيض فى ثياب هى خليط من الطرازين الأوربى والبدائى يبدو عليه أن بينه وبين الهندى صداقة .

كان الرجل الأبيض ضئيلا ، له سحنة مغضنة لا يستطيع المرء أن يصفها بأنها طاعنة فى السن . يتمشى فى قسماته ذكاء أخاذ ، كذكاء إنسان نما الجانب الذهنى منه حتى استقوى واستطاع أن يكيف الجسد على هواه ويترك فيه علاماته المميزة . ومع أنه حاول بردائه المختاط أن يخفى صفة خاصة فيه أو يقلل من ظهورها ، فقد ظلت واضحة وضوحاً كافياً لترى « هيستر براين » أن إحدى كتفى هذا الرجل تعلو عن الـكتف الأخرى .

وما إن لمحت تلك السحنة الصنامرة وذلك التشويه الخفيف فى قامة الرجل ، حتى ضمت طفلها مرة ثانية إلى صدرها بعنف متوتر جعل الطفل البائس يطلق صرخة ألم ، ولـكن لم يبد على الأم أنها سمعتها .

وكان الرجل الغريب منذ وصوله إلى ساحة السوق وقبل أن تلمحه « هيستر براين » بفترة ، قد سلط عينيه عليها . نظر إليها بادىء بدء بقلة اكتراث كرجل اعتاد سبر أغوار النفوس فلا تهمه كثيراً الأمور الظاهرة الملموسة إلا إذا كانت على علاقة بشيء فى عقله . ولـكن سرعان ما استحالت نظرته حادة ثاقبة . فتقلصت قسماته بذعر كأنما يمر عليها ثعبان يتلوى بسرعة ثم يتوقف لحظة خاطفة ، يبين للأعين تلافيفه وتقلصاته كلها ، وغشيت وجهه غبرة دفعتها عاطفة جبارة تغلب عليها من فوره بقوة إرادته ، حتى إن تعبير وجهه — إلا خلال دقيقة واحدة — قد يعتبر هدوءاً . وبعد فترة قصيرة خف ذلك التقلص ، فلا يكاد يشعر به المرء ثم تلاشى كل التلاشى وغاص فى أعماق طبيعته . ولما تنبه إلى أن عينى « هيستر براين » مركزتين عليه ورأى أنها عرفته ، رفع بـكل بطء وهدوء إصبعاً لوح بها فى الهواء ثم وضعها على شفتيه .

ثم ربت كتف رجل من أهل البلدة يقف بجواره ، وسأله بأدب وبطريقة رسمية :

— « قل لى أرجوك ياسيدى الطيب : من هذه المرأة ؟ ولماذا يرفعونها هكذا هدفاً لإهانة علنية ؟ »

فأجابه ابن البلدة وهو يرمق السائل ورفيقه البدائى فى دهشة :

— لا بد أنك غريب عن هذه البقعة ياصديق وإلاّ لسمعت بالسيدة « هيستر براين » وأفعالها الشائنة . لقد سببت فضيحة ضخمة . . صدقنى . . فى كنيسة القس الورع « ديمسدال » ! .

فأجابه الآخر :

— إنك تقول صدقاً . فأنا حقاً غريب وكنت قبل ذلك طوّافاً على الرغم منى . لقد صادفنى سوء حظ فى البحر والبر أوقعنى أسيراً زمناً طويلاً فى أيدى الكفرة ... هناك ناحية الجنوب ، وجاء بى الآن ذلك الهندى الأحمر لأبحث عمن يفتدينى من الأسر . فهل لك أن تتفضل فتحدثنى حديث « هيستر براين » — هل أخطأت فى التقاط اسمها ؟ — أخبرنى عن ذنوب هذه المرأة وعما أتى بها إلى تلك المنصة ؟ .

فقال ابن البلدة :

« بكل سرور يا سيدى فأحسب أن مما يسر قلبك بعد كل الشقاء الذى كابدته والاغتراب الذى عانيته فى البرارى أن تجد نفسك أخيراً فى بلاد تنقب عن الرذيلة .. وتكشف عنها . . وتعاقب عليها تحت أنظار الناس والحكام كما هى الحال هنا فى « انجلترا الجديدة » المتدينة التقية ؛ فتلك المرأة الواقفة هناك ياسيدى ، كانت زوجة عالم انجليزى المولد لكنه عاش طويلاً فى «امستردام » ثم خطر له منذ زمن بعيد أن يجرب حظه ويأتى إلينا هنا نحن سكان (ماساتشوستش) . ومن أجل هذا الغرض

بعث بزوجته قبله وتخلف هو بعض الوقت لينجز أعمالا هامة . وفى الحقيقة ياسيدى لم تصل أخبار عن هذا السيد المثقف « براين » خلال عامين أو أقل قليلا ، عاشتها المرأة هنا فى (بوسطن) فانظر إلى الضلال الذى حـل بالزوجة الشابة التى تركت وحدها لتتولى أمر نفسها ...

فقال الغريب بابتسامة مريرة : »

« فهمت ماتعنى . كان واجب رجل مثقف كالذى تتحدث عنه أن أن يتعلم ذلك أيضاً فى كتبه . ومن هو ، إذا تـكرمت ياسيدى ، أبو هذا الوليد — إنه على ماأرى فى الشهر الثالث أو الرابع من عمره — هذا الذى تحمله السيدة (براين) على ذراعيها ؟ »

فأجاب ابن البلدة :

« الحقيقة ياسيدى أن هذا الأمر مازال لغزا . ومانزال محتاجين لمن يحله لنا . فإن السيدة « هيستر » ترفض بإصرار أن تتكلم ، وسدى ضم القضاة رءوسهم يتشاورون. ولعل المذنب يقف الآن متفرجاً فى ذلك المشهد المحزن — لايعرفه إنسان لـكنه ينسى أن الله يراه ! »

فعلق الغريب بابتسامة أخرى :

« على الرجل المثقف أن يأتى بنفسه ليبحث ذلك السر ! »

فأجاب ابن البلدة :

« يستأهل ماحدث ... لو كان بعد على قيد الحياة ! أما هيئة قضاة « ماساتشوستش » فقد اتفقوا فيما بينهم على أن هذه المرأة شابة .. وجميلة

ولا شك أنها تعرضت لإغراء شديد أدى إلى سقوطها — وفوق ذلك فإن زوجها ربما كان فى قاع البحر — فلم يجدوا لديهم الجرأة الكافية ليوقعوا عليها أقصى عقوبة ، وهى الموت . بل إنهم برحمتهم الواسعة ورقة قلوبهم قضوا عليها أن تقف ثلاث ساعات على منصة آلة التعذيب تلك ، ثم بعد ذلك وإلى الأبد . . بل مدى حياتها الطبيعية ، عليها أن تضع شارة العار على صدرها ! »

فعلق الغريب وهو يطأطىء رأسه بجد ورصانة :

« حكم عادل ! فهكذا تعيش موعظة حية ضد الخطيئة ، حتى تحفر الشارة المخزية على قبرها . ومع ذلك ، يؤسفنى ألا يقف شريكها فى الإثم إلى جوارها فوق المنصة — على الأقل . لكن شخصيته ستعرف حتما يوماً .. ستعرف شخصيته .. ستعرف ! »

وانحنى يحيى بأدب ابن البلدة الثرثار . ثم همس كلمات قليلة لتابعه الهندى وسارا يشقان طريقهما بين الحشد .

وبينما هذا كله يحدث ، كانت «هيستر براين» واقفة على المنصة تحدق بنظرة ثابتة إلى الغريب — نظرة ثابتة مركزة استغرقتها تماماً حتى تلاشت كل الأشياء الأخرى فى الدنيا حولها ولم يبق إلا هى وهو . ولو أن تلاقياً كهذا تم فربما كان أفظع من تقابلهما الآن وشمس الظهيرة الحارة تحرق وجهها وتنير خزيه .. ورمز العار القرمزى على صدرها .. وابن الخطيئة على ذراعيها .. وسكان البلدة كلهم وقد خرجوا كأنما خروجهم لحفل يحملقون

فى القسمات التى كانت جديرة بألا ترى إلا متضوئة فى هدوء إلى جوار مدفأة أو تحت نقاب زفاف فى الكنيسة . وعلى رغم رهبة الموقف فإنها كانت تشعر بأمان فى حضور هؤلاء المتفرجين الذين يبلغون الألف ، آثرت أن تقف هكذا وبينها وبينه كثيرون على أن تحييه وجهاً لوجه وحدهما . هربت إلى حماية الخزى العلنى ، وأوجست خيفة من اللحظة التى ستحرم فيها من تلك الحماية . واستغرقتها هذه الأفكار فلم تسمع صوتاً خلفها ، حتى كرر نداء اسمها مرات فى صوت عال رصين سمعه الحشد جميعاً . قال الصوت :

« انتبهى لى ياهستر براين » !

لم يلحظ أحد أنه كانت هناك فوق المنصة التى تقف عليها « هيستر براين » شرفة ملحقة بدار حكومية تذاع منها القرارات بحضر من موظفى الحكومة مجتمعين وبكل الأوضاع الرسمية التى كانت تصحب تلك المشاهد العامة فى ذلك العهد . فهنا لكى يرى المشهد الذى نصفه ، جلس الحاكم « بيلينجهام » نفسه وحوله أربعة من رجال الشرطة حراس شرف يحملون الرماح . وكان يضع ريشة سوداء فى قبعته ويرتدى حلة من القطيفة السوداء عليها معطف مطرز الحاشية — رجل طاعن فى السن ذو تجارب قاسية مكتوبة فى تجاعيده . وكان جديراً بمركزه على رأس طائفة ممثلا لها . فهى لم تؤسس ولا هى أحرزت تقدماً ولا وصلت إلى حالتها الراهنة من نمو ورقى بفضل نزوات الشباب ، بل بفضل همة الرجولة الحازمة الرصينة

وحكمة السن العالية التى تنجز مهام كثيرة بدقة لأنها قليلة الأحلام والتمنيات . أما الشخصيات البارزة الأخرى التى أحاط الحاكم بها نفسه ، فكان عزها وقار عهد يشعر أن ضروب السلطة على اختلافها لها قدسية المعاهد الإلهية . كانوا بلا شك رجالاً صالحين فيهم عدل وحكمة . ومع ذلك لم يكن أمراً سهلاً أن ننتخب — لو حاولنا — من الأسرة الإنسانية كلها عدداً مماثلاً من أشخاص أتقياء حكماء يليقون البتة بالجلوس قضاة لقلب امرأة خاطئة ، يفصلون بين الخير والشر المتشابك فيه كهؤلاء السادة الحكماء ذوى المظهر الجاف الجامد الذين أدارت « هيستر براين » وجهها إليهم . شعرت بلا ريب أنها إذا أملت فى رحمة ما فلتنتظرها من قلب الجماهير الأكثر سعة والأوفر دفئاً . فإن المرأة البائسة عندما رفعت عينيها إلى الشرفة ، شحب وجهها وارتعدت فرائصها .

كان الصوت الذى ناداها صوت « جون ويلسون » الشهير الجليل وهو أكبر قس فى مدينة « بوسطن » عالم عظيم كأغلب أهل عصره فى المهنة ، وفى الوقت عينه كان رءوفاً ذا روح لطيفة أنيسة . لكنه لم يهتم بتنمية تلك الصفة الأخيرة اهتمامه بمواهبه الذهنية بل كانت فى نظره موضع خجل لا صفة يهنىء عليها نفسه . فوقف هناك ، تبين من تحت قلنسوته جدائل من شعر أغبر على حين راحت عيناه الرماديتان ، وقد اعتادتا ضوء مكتبته الخافت ، ترفان — كعينى رضيع « هيستر » — تحت وهج الشمس الطاهرة . كان يشبه الصور القاتمة المجسمة التى نراها فى مقدمة كتب العظات الدينية ، فلم يكن له حق أكثر من هذه الصور ، فى أن

يخطو خارجاً كما خطا الآن ويتدخل فيما لا يعنيه — فى أمر يتعلق بالبشرية:
إثم ... وشهوة ... وعذاب !

قال القس :

— أى « ميستر براين » — لقد تشاحنت أنا وأخى الشاب هذا الذى كان من حظك أن تستمعى لمظاته.. (وهنا وضع السيد «ويلسن» يده على كتف شاب شاحب يجلس بجواره..)« أقول إننى حاولت سدى أن أقنع هذا الشاب كى يعـاملك هنا تحت بصر السماء . . وأمام هؤلاء الحـكام الحـكماء المستقيمين .وتحت سمع هؤلاء الناس جميعاً بما تستدعيه بشاعة إثمك الأسود المخزى : ولما كان عالماً بطباعك أكثر منى ، فهو القاضى الأفضل الذى يعرف كيف يناقشك — سواء برقة أو إرهاب — حتى يتغلب على عنادك وتعترفى بالذى أغراك بهذه السقطة المحزنة . لـكنه يعارضنى(برقة الشباب المتناهية فهو أعلى حكمة من سنه) ويؤكد لى أننا نخالف طبيعة المرأة عند ما نضطرها أن تفتح قلبها وتـكشف عن أسراره فى وضح النهار هكـذا وفى حضور مثل هذا الجمع الحاشد . فالحقيقة التى أردت أن أقنعه بها هى أن العار يكمن فى اقتراف الإثم لا فى الـكشف عنه . فمرة ثانية أسألك أيها الأخ « ديمسدال » . من الذى سيتولى أمر روح تلك الخاطئة البائسة ؛ أنا أو أنت ؟ »

فسرى همس بين من تضمهم الشرفة من المتوقرين المبجلين ، عبر عنه الحاكم « بيلينجهام » عندما قال بصوت آمر يلطفه احترام وهو يوجه حديثه إلى القس الشاب .

— « يا سيدى القس « ديمسدال » — إن مسئولية روح هذه المرأة تقع عليك . فواجبك أن تحضها على النـدم ثم الاعتراف . . . باعتباره دليلا عليه ! .

وقد جذب ذلك النداء الموجه بصراحة عيون الحشد كله إلى السيد الجليل « ديمسدال » — وهو قس شاب عاد من إحدى الجامعات الإنجليزية الـكبرى وجاء معه بـكل ثقافة العصر إلى أرضنا هذه المستوحشة التى تـكسوها الغابات . وقد أضفت بلاغته وحماسته الدينية سمواً وغيرة على مهنته . كان إنساناً يجذب النظر بجبهة بيضاء عالية . . وعينين بنيتين واسعتين حزينتين . . . وفم إذا لم يضغط عليه اختلج ، دليل حساسية عصبية ومقدرة هائلة على ضبط النفس . وعلى رغم مواهبه وثقافته العالية ، كان يحيط بذلك القس الشاب جو جعل نظرته قلقة . . فزعة . . نصف خائفة — كأنه إنسان يشعر بالضياع ويتخبط فى طريق الحياة ولا يشعر بالراحة إلا وحده . ولهذا وبقدر ما سمحت به واجباته ، كان يختار الطرق الصغيرة الظليلة يسير فيها فاحتفظ بنفسه بسيطاً كالطفل . وكلما استدعى الأمر ، خرج إلى الناس بأفكار جديدة . . منعشة . . عطرة . . طاهرة كالندى ، قال مستمعوه إنها تؤثر فيهم كأنها حديث ملك من السماء .

هذا هو الشاب الذى لفت الحاكم والقس الوقور « ويلسن » نظر الجمهور إليه وطلبا منه أن يتحدث بمسمع الرجال جميعاً إلى ذلك السر المقدس حتى فى تدنسه — : روح المرأة . فغاض الدم من خده — لموقفه الدقيق — واختلجت شفتاه .

وقال السيد « ويلسن » :

« تحدث إلى المرأة ياأخى .. فحديثك عظيم الأهمية لروحها ، وهـو كذلك وكما يقول الحاكم الورع — هام لروحك أنت أيضا لأنها الأمينة عليها ! انصحها وحضها على الاعتراف بالحقيقة ! »

فطأطأ القس « ديمسدال » رأسه فى صلاة صامتة — فيما يبدو — ثم خطا إلى الأمام . وقال وهو يميل على الشرفة وينظر فى عينى المرأة بثبات :

«أى « هيستر براين» — إنك تسمعين مايقوله هذا الرجل الصالح وترين المسئولية التى أنوء بها .. فإذا شعرت لـكى تنال روحك الهدوء والسلام ولـكى يفيد العقاب الأرضى فى خلاصها فى الآخرة ، فإنى أدعوك أن تعترفى باسم شريكك فى الإثم والعذاب ؛ لاتصمتى شفقة به أو عطفاً عليه فصدقينى يا «هستر » لو أنه هبط من مكان عال ووقف هناك إلى جوارك على منصة عارك ، لـكان خيراً له من أن يخفى قلباً خاطئا طوال الحياة . فبماذا يفيده صمتك — إلا أن يغريه .. نعم .. يضطره فى هذه الحالة إلى أن يجمع الرياء إلى الإثم . لقد وهبتك السماء فضيحة علنية حتى تنتصرى علنا على الشر الذى فيك وعلى الحزن الذى يحيط بك . فاحترسى إذن . . . فإنك تمنعين عنه الـكوب المرير — ولعله ليست لديه الشجاعة ليستحوذ عليه بنفسه — ذلك الـكوب المرير ، (وإن كان صحياً مفيداً) ذلك المفروض على شفتيك الآن ! »

كان صوت القس الشاب يختلج فى طلاوة وعمق وتـكسر . وكان الشعور الواضح الذى بعثه فى قلوب المستمعين — لا معنى الـكلمات — هو الذى ظفر بعطفهم كلهم . حتى الطفل البائس على صدر « هيستر » تأثر بالسبب عينه ، لأنه أدار نظرته ـ التى كانت حتى ذلك الوقت بلا هدف ـ إلى السيد « ديمسدال » ، ورفع ذراعيه الصغيرتين وهو فى غمغمة نصف هائئة ونصف منتحبة . وكان نداء القس قويا حتى إن المستمعين لم يشكوا لحظة فى أن « هيستر » لا بد معترفة باسم المذنب ، أو أن المذنب نفسه حيثما وقف — سواء فى مركز رفيع أو وضيع — سيتقدم يدفعه إلحاح وجدانى لا يقاوم يضطره إلى صعود المنصة .

أما « هيستر » فهزت رأسها .

فصاح القس الجليل « ويلسن » بنبرة جافة :

— « أيتها المرأة . . لا تتعدى حدود رحمة السماء ! فهذا الطفل الصغير قد وهب صوتاً ليعاضد به النصيحة التى سمعتها الآن من فورك اعترفى بالأسم ! فهو وندمك ربما يفيدان فى رفع الشارة القرمزية عن صدرك ! »

فصاحت « هيستر براين » وعيناها لا على السيد « ويلسن » بل تغوصان فى العينين العميقتين القلقتين ، عينى القس الأصغر .

— « كلا ! فالشارة القرمزية موشومة فى أعماق ! لن تستطيعوا محوها ليتنى أحمل عنه عذابه وعذابى معاً ! »

فقال صوت آخر صادر من جمهرة الملتفين حول المنصة ، ببرود وشدة :

— « تكلمى يا امرأة . . . تكلمى وأعطى طفلك أباً ! »

فشحب وجه « هيستر » حتى حاكى الموت ، وقالت تجيب ذلك الصوت الذى تعرفه جيدا :

— « لن أتكلم ! ولتبحث طفلتى عن أب فى السماء ! فهى لن تعرف لها أبا على هذه الأرض ! » .

وكان السيد « ديمسدال » قد مال على الشرفة يضغط قلبه بيده فى انتظار الاستجابة لندائه . فغمغم :

— « إنها لن تتكلم ! » .

وتراجع يزفر زفرة طويلة :

— « يا للقوة الرائعة! ويا لكرم قلب المرأة ! إنها لن تتحدث ! » .

ولما لحظ القس الأكبر سناً حالة الخاطئة المسكينة واضطراب نفسيتها وعقلها ، ألقى على الجموع موعظة كان قد أعدها من قبل للمناسبة ، موضوعها الإثم بجميع فروعه وألوانه لكنه ظل يشير على الدوام إلى الشارة المهينة . تكلم بقوة وإصرار عنها خلال ساعة أو أكثر انهمرت فيها عظاته على رءوس الناس ، حتى إن تلك الشارة اتخذت أشكالاً مفزعة فى خيالهم وبدت كأنما تستمد لونها القرمزى من لهب الجحيم . أما « هيستر براين » فقد ظلت واقفة فى مكانها على منصة العار بعينين لامعتين مجهدتين وقلة اكتراث . فقد تحملت ذلك الصباح أقصى ما تتحمله الطبيعة البشرية .

ولما لم تكن إحدى أولئك اللائى يهربن من الألم البالغ بالإغماء ، فإن روحها لم تجد بدا من الاحتماء تحت طبقة حجرية من اللاشعور على حين ظلت قواها الحيوانية سليمة . ودوى — وهى على حالتها هذه — صوت الواعظ راعدا بلا هوادة ولكن بلا فائدة فى أذنيها . أما الطفل فقد شق الجو صراخه وعويله خلال تلك الفترة الأخيرة من محنتها . فحاولت أن تسكته بطريقة آلية ، لا كمن تستشعر آلامه وتعطف عليها . وقادوها ثانية إلى السجن وهى على هيئتها الجامدة نفسها . فاختفت عن أنظار الجمهور المحدقة داخل باب السجن الخشبى الضخم القوى بأذرع حديدية .

ودار الهمس بين الذين اختلسوا نظرة خلفها أن الشارة القرمزية ألقت ضوءا شاحباً أمامها على مدى الدهليز الداخلى للسجن .

الفصل الرابع

اللقـــاء

بعدعودة « هيستر براين » إلى السجن وجدت فى حالة عصبية اقتضت رقابة مستمرة كيلا تؤذى نفسها أو تنزل بالطفل المسكين شراً فى لحظة اهتياج نصف مخبول . فلما اقترب الليل وقد حبطت كل الجهود لقمع عصيانها وتمردها سواء بالسخرية منها أو بتهديدها بالعقاب ، رأى السيد « براكيت » السجان أن من الخير استدعاء طبيب . وكان ذلك الطبيب فى اعتقاده ممتازاً ماهراً فى أساليب الطب المسيحية كلها ، كما أنه ملم إلماماً شاملا بكل ما يعرفه المتوحشون من خصائص الأعشاب والجذور الطبية التى تنمو فى الغابة . ولـكن الحقيقة أنه لا « هيستر براين » ولا طفلها كانا فى حاجة إلى عون طبى . فالطفل يستمد غذاءه من صدرها ، ويبدو أنه شرب معه مايتخلل كيانها من اضطراب وعذاب ويأس . فراح الآن يتلوى متقلصاً من الألم . وكان بهيكله الصغير عنواناً قوياً للشقاء المميت الذى تحملته « هيستر براين » طوال اليوم .

وتبع السجان داخل الحجرات الـكئيبة القاتمة ، ذلك الشخص الذى لفت الأنظار والذى أثار وجوده بين الجموع اهتمام حاملة الشارة القرمزية كله . وقد وضع فى السجن لا بسبب اشتباه فى جريمة اقترفها ، ولـكن

باعتباره خير مكان وخير طريقة يتخلصون بها منه حتى يبحث المسئولون مع زعماء الهنود الحمر أمر الفدية . وقد قال إن اسمه هو «روجر شيلينجورث» وأدخله السجان حجرة « هيستر » وتمهل لحظة متعجباً للهدوء الذى تبع دخوله . فإن « هيستر براين » سكنت من فورها سكون الموت ، وإن ظل الطفل يئن .

وقال الطبيب :

— « أرجو منك يا صديقى أن تدعنى وحدى مع مريضتى . وثق أيها السجان الطيب أن بيتك سوف يسوده السلام على الفور . كما أعدك بأن تجد السيدة « براين » أكثر تجاوباً مع السلطة العادلة مما كانت عليه من قبل ! » .

فأجاب السيد « براكيت » :

— « إذا استطعت ياسيدى أن تنجز وعدك هذا حقا ، فسوف أعتبرك رجل حنكة ومهارة بلا شك ! لقد كانت المرأة كأن بها مسًّا حتى كدت أتولى الأمر بنفسى وأطرد الشيطان من جسدها بالسياط ! » .

وكان الغريب قد دلف إلى الحجرة فى السكون المميز للمهنة التى أعلن أنه ينتمى إليها . ولم تتغير حاله عندما تركه انسحاب السجان وجها لوجه مع المرأة التى فضح اهتمامها به وهو بين الجموع ، العلاقة الوثيقة بينه وبينها . وصب التفاته أول ما صبه على الطفلة التى جعل صراخها — وهى تتلوى على السرير المطوى — الحاجة ملحة لتأجيل كل الأمور الأخرى

حتى الانتهاء من مهمة تهدئتها ، ففحصها فحصاً دقيقاً ، ثم أكب يعالج فتح محفظة جلدية أخرجها من تحت ثيابه . ويبدو أن محتوياتها كانت عقاقير طبية لأنه أذاب أحدها فى كوب ماء .

وعلق قائلا :

— « إن العلوم التى تلقيتها فى الطب ورحلتى التى دامت أكثر من عام بين أناس لهم دراية واسعة بخصائص العناصر الطبيعية ، جعلتنى طبيباً خيراً من كثيرين يدعون حيازتهم لإجازة الطب . هاك يا امرأة ! هذه الطفلة طفلتك وليست طفلتى ، فلن تتعرف على صوتى ولا علىّ أنا بوصفى أباً . فاسقيها هذا الدواء بيدك ! » .

فرفضت « هيستر » الدواء المعروض ، على حين راحت تحملق بتوجس وريبة فى وجهه وهمست :

— « أجئت تشفى غليلك بالانتقام من الطفلة البريئة ؟ » .

فأجابها الطبيب بنبرة نصف باردة ونصف مطمئنة :

— « يالك من امرأة بلهاء طائشة ! ماذا دهانى حتى أوذى تلك الطفلة البائسة ثمرة الخطيئة ؟ هذا دواء شاف ولو كانت طفلتى — نعم . . طفلتى أنا وأنت لما استطعت أن أعطيها خيراً منه ! » .

وبينا هى مترددة وفى حالة اضطراب عقلى ، حمل الطفلة بين ذراعيه وسقاها الدواء بنفسه . وسرعان ما ظهر تأثيره إذ أعتق الدودة الصغيرة من تضرعها . فخفت أنين المريضة الطفلة وسكنت تقلصاتها وقل اضطرابها

شيئاً فشيئاً ، ثم . . خلال لحظات . . وكما هي عادة الأطفال الصغار عندما يزايلهم الألم ، استغرقت في نوم هادىء عميق . فأخذ الطبيب — كما يستحق عن جدارة أن يسمى — ينصح بعد ذلك اهتمامه للأم . وبهدوء وفحص دقيق ، عد نبضها ونظر في عينيها — نظرة جعلت قلبها ينكمش ويرتجف لأنها نظرة مألوفة وفي الوقت عينه غريبة باردة . وأخيراً ، وبعد أن اكتفى بالفحص الذي أجراه ، راح يمزج بالماء دواء آخر .

وعلق قائلا :

— « لا علم لي بأدوية الأساطير والخرافات ، لكنني تعلمت أسراراً جديدة كثيرة في الغابة . وهذا سر منها — وصفة علمني إياها هندي أحمر لقاء بعض علوى العتيقة . هاك . . . تجرعيه ! ربما كان لا يهدئك كما يستطيع ضمير نقي بلا خطيئة أن يفعل . فهذا ما ليس في وسعي أن أهبك إياه . لكنه سيهدئ من اضطراب عواطفك وتلاطمها كأنه زيت ألقي على أمواج بحر عاصف ! » .

وقدم الكأس إلى « هيستر » فتقبلته بنظرة حذرة بطيئة إلى وجهه ، ليست تماماً نظرة خوف ، ولكن يملؤها شك وتساؤل عما يمكن أن يضمره . وألقت نظرة أخرى على طفلتها النائمة .

وقالت :

— « لقد فكرت في الموت . . وتمنيته . . بل إنني كنت على استعداد لأصلي وأبتهل من أجله — لو كان لمثلي أن تصلي من أجل شيء —

أى شىء . ومع ذلك ، إذا كان الموت كامناً فى تلك الـكأس ، فأرجو منك أن تفـكر ثانية قبل أن ترانى أتجرعها ! انظر . . . ها أننى أرفعها إلى شفتى ! » .

فأجاب هو بهدوئه البارد عينه :

— « تجرعيها إذن . هل معرفتك بى ضئيلة إلى هذا الحد يا هيستر براين ؟ وهل أهدافى سطحية هكذا ؟ هبى أننى تخيلت خطة للانتقام فماذا أجد خيراً من تركك تعيشين . . بل وإعطائك أدوية تقيك الأذى كله وأخطار الحياة حتى يعضك أبداً هذا العار الـكاوى على صدرك ؟ »

ووضع إصبعه الطويلة ، أثناء حديثه ، على الشارة القرمزية التى كانت تـكوى صدر « هيستر » كأنها من حديد محمى . ولحظ هو رجفتها اللاشعورية وابتسم :

— « عيشى إذن واحملى قدرك معك أينما سرت . . . أمام عيون الرجال والنساء . . . وعينىْ ذلك الذى دعوته يوماً زوجك . . . وعينىْ هذه الطفلة ! ولـكى تعيشى تجرعى هذا الدواء ! » .

فشربت «هيستر براين» الـكأس حتى الثمالة دون أى نقاش أو تلـكؤ وبإشارة من رجل العلم والحنكة : اتخذت لها مجلساً على السرير حيث تنام الطفلة ، على حين جذب هو المقعد الوحيد فى الحجرة وجلس عليه قريباً منها فلم تملك إلا أن ترتعد لهذه التأهبات لأنها أيقنت أنه ما دام قد فعل كل ما تستدعيه الإنسانية . . . أو العرف . أو القسوة المهذبة (إذا كانت هناك

قسوة كهذه) من أجل تخفيف آلام جسمانية ، فمن المحتم أن يلتفت إليها الآن بوصفه الرجل الذى ألحقت به ضرراً بالغاً عميقاً لا يعالج .

قال :

— « . . . أى هيستر — إننى لا أسألك لماذا أو كيف سقطت فى الهاوية ، أو بقول أدق كيف صعدت إلى منصة العار حيث وجدتك . فالسبب ليس خافياً . كان خطئى أنا ، وضعفك أنت . أنا الرجل المفكر . دودة المكتبات الضخمة . . رجل متداع فى طريق الهزال والاضمحلال ، قد أعطيت خير سنوات عمرى لإشباع حلم العلم والمعرفة — ما شأنى بصبا كصباك وجمال كجمالك ؟ رجل مشوه منذ ساعة مولدى ، كيف أضلل نفسى وأوهمها أن مواهب العقل قد تخفى التشوه الجسمانى فى خيال شابة ؟ إن الرجال يدعوننى حكيما . فلو كان الحكماء يعقلون حقاً لحزرت أنا هذا كله ، لعرفت أننى لحظة أغادر تلك الغابة الشاسعة الكئيبة وأدخل مستعمرة الرجال المسيحيين تلك ، فأول شىء سوف يقابلنى هو أنت يا «هيستر برائن» واقفة . . تمثالا للعار . . أمام الناس . بل لكنت منذ اللحظة التى هبطنا فيها معا درج الكنيسة القديمة — زوجين — استطعت أن أرى هذه الشارة القرمزية جمرة تتوهج فى نهاية طريقنا ! »

ولم تتحمل تلك الطعنة الأخيرة المصوبة بهدوء إلى رمز عارها ، فقالت على رغم نفسيتها المنهارة :

— « أنت تعرف جيداً أننى كنت صريحة معك . لم أشعر بأى حب ولا أنا ادعيته ! »

فأجاب :

— « حقاً . كان هذا حمقاً منى وطيشاً ، وهأنذا أقولها ، لـكننى عشت حتى تلك الحقبة من حياتى سدى . كانت الدنيا تبدو بلا بهجة . كان قلبى بناء يسع ضيوفا كثيرين لـكنه وحيد بارد موحش . . بلا مدفأة بيتية . تشوقت أن أقيم واحدة لى وأشملها . فعلى رغم شيخوختى . . وكآبتى . . وتشوهى لم يبد حلماً بيد التحقيق أن يكون لى نصيب من ذلك الهناء البسيط المبعثر طولا وعرضاً كى يجمعه من شاء كائنا من كان . لهذا جذبتك يا « هيستر » داخل قلبى . . إلى أعمق حجرة فيه . . وحاولت أن أبثك الدفء الذى يبعثه وجودك هناك ! »

فغمغمت « هيستر » :

— « لقد ظلمتك ظلماً بالغاً ! »

فأجاب هو :

لقد ظلم كل منا الآخر . وقد بدأت أنا بظلمك عندما خدعت صباك المتفتح بعلاقة زائفة غير طبيعية وربطته بوهنى واضمحلالى . ولهذا السبب وبما أنى لم أفكر وأتعمق فى الفلسفة سدى ، لا أسعى وراء انتقام ولا أنا أرسم خطة لإلحاق شر بك . فالميزان متساو بينى وبينك . ولـكن . . يا « هيستر » — ذلك الرجل الذى أساء إلينا نحن معا لا يزال حياً ! من هو ؟ »

فأجابته « هيستر » وهى ترمقه بحدة :

— « لا تسألني . فلن تعرف أبداً ! »

فأجاب هو بابتسامة ذكاء خبيث أسود واثق بنفسه الثقة كلها :

— « تقولين . . أبداً ؟ لن تعرفه أبداً ؟ صدقيني يا « هيستر براين» هناك أشياء قليلة — سواء فى الدنيا الملموسة أو فى أعماق دائرة الفكر — أشياء قليلة تخفى على الرجل الذى يهب نفسه وبلا تحفظ لحل لغز . فى وسعك أن تخفى سرك عن الحشود المتطفلة . وفى وسعك أن تخفيه أيضاً عن القضاة والحكام كما فعلت اليوم عندما حاولوا أن يستخلصوا الأسم من قلبك ويعطوك رفيقاً فوق المنصة . لكننى أنا آتى باحثاً بأساليب ومشاعر أخرى غير التى يمتلكونها . سأبحث عن هذا الرجل كما بحثت عن الحقيقة فى الكتب . . . كما بحثت عن الذهب فى الكيميا . هناك إحساس خفى سيجعلنى أتعرف عليه . سوف أراه يرتعش وسأشعر بنفسى أرتجف فجأة وبلا وعى سيكون لى . . ملك يدى . . . إن عاجلا أو آجلا ! »

والتمعت عينا العالم المغضن الوجه وهو يركز نظرهما فى « هيستربراين» حتى إنها شبكت يديها بعضهما ببعض فوق قلبها ، تخشى أن يقرأ السر هناك من فوره .

واستطرد هو بنظرة واثقة كأنما صار القدر إلى جانبه من فوره .

« أتراك لن تكشفى عن اسمه ؟ ومع ذلك هو لى . هو لا يحمل شارة عار على ثوبه كما تفعلين أنت ، لكننى سأقرؤها على قلبه . ومع ذلك لاتخشى عليه شيئا . لاتعتقدى أننى سأتدخل فيما تتولاه السماء من قصاص

وأكون الخاسر بإفشاء أمره ووضعه فى قبضة القضاء البشرى . كذلك يجب ألا يخطر ببالك أننى سوف أتآمر على حياته . لا . . ولا على شهرته — إذا كان كما أعتقد رجلا ذا شهرة — سأدعه يعيش ! سأدعه يخفى نفسه فى مظاهر الشرف . . إذا شاء ! ومع ذلك سوف يكون ملك يدى ! »

فقالت « هيستر » بذهول ورعب :

« إن أعمالك تشبه الرحمة ، ولـكن كلماتك تبديك فى صورة إرهابى »

فاستطرد العالم :

« هناك شىء واحد أحذرك إياه ، بل أوصيك به يامن كنت يوماً زوجتى . لقد حافظت على سر عشيقك . فاحتفظى بسرى أنا أيضاً . فلا أحد فى هذه البلاد يعرفنى ، لاتنبسى لأى مخلوق بأنك ناديتنى يوماً زوجك ، فهنا ... على تلك الحدود المستوحشة من العالم سوف أقيم خيمتى . فأنا فى أى مكان آخر طواف منعزل عن مصالح البشر كافة ، أما هنا فأجد امرأة ورجلا وطفلة تربطنى بهم أوثق الروابط . وليس يعنينى أن تـكون روابط حب أو بغضاء . روابط صواب أو خطأ ، فأنت ومالك يا « هيستر » .. ملـكى أنا ! بيتى حيث تـكونين ... وحيث يكون هو . ولـكن لاتفشى سرى ! »

فتساءلت « هيستر » وهى ترتجف — دون أن تدرى لِمَ ارتجافها — من تلك الرابطة السرية :

« ماذا تبغى ؟ لما لا تـكشف عن نفسك علانية وتطردنى من فورك ؟ »

فأجاب :

« ربما كان ذلك لأننى أرفض احتمال العار الذى يصم زوج المـرأة

الخائفة ويلطخ سمعته . وربما كانت هناك أسباب أخرى . . يكفى أن هدفى هو أن أعيش وأموت مجهولا . فاجعلى العالم يعتقد أن زوجك مات منذ زمن بعيد ولن تصل إليك منه أخبار أبداً . لا تتعرفى على بكلمة . . ولا بإشارة . . ولا بنظرة ! ولا تتنفسى بالسر خاصة للرجل الذى عشقته . أما إذا قصرت فى مطلبى — فاحذرى ! فإن شهرته . . ومركزه . . وحياته ستكون بين يدى ! احذرى ! »

فقالت « هيستر » :

« سأحافظ على سرك كما حافظت على سره ! »

فأجاب هو :

« أقسمى على ذلك ! »

فأقسمت .

فقال « روجر شيلينجورث » العجوز كما دعى بعد ذلك :

« والآن ياسيدة « براين » سأتركك وحدك . وحدك مع وليدتك وشارتك القرمزية . قولى لى يا « هيستر » : هل قضى الحكم عليك أن ترتدى الشارة أثناء نومك ؟ ألا تخافين الكابوس والأحلام الفظيعة ؟ »

فسألته «هيستر» — وقد أزعجها تعبير عينيه :

« لماذا تبتسم لى هكذا ؟ هل أنت كالشبح الأسود الذى يغشى الغابة هنا حولنا ؟ هل أغويتنى حتى أقسمت قسما سيكون فيه هلاك روحى ؟ »

فأجابها بابتسامة أخرى :

« لا . . ليست روحك أنت ! »

الفصل الخامس

« هيستر » وإبرتها

انتهت مدة عقوبة السجن المحكوم بها على « هيستر براين » فانفتح باب سجنها على مصراعيه ، وخطت خارجه إلى نور الشمس التى تسطع للجميع، لكنها بدت لقلب « هيستر » المثقل الحزين ألا غرض منها سوى افتضاح الشارة القرمزية على صدرها . ربما كان فى خطواتها الأولى وحدها خارج عتبة السجن عذاب أقسى مما لاقته فى الموكب السابق وصفه ، عندما كانت موضع خزى عام يحق للجميع أن يشيروا إليها بالأصابع فقد كانت تعاضدها يومئذ أعصاب مشدودة متوترة توتراً غير طبيعى ، كما آزرتها كل قوى شخصيتها المقاتلة مما أعانها على قلب المشهد إلى شىء من نصر قاتم مخيف . فضلا عن أن ذلك حادث فريد منفصل يقع مرة واحدة فى حياتها ، واضطرت يومه أن تستنفد من قواها الحيوية ما كان يكفيها سنوات طويلة هادئة . فالقانون عينه الذى أدانها — عملاق ذو قسمات متجهة ولكن بقوة فى ذراعه تعضد أو تبيد — هذا القانون أعانها خلال محنة عارها . لكنها الآن . . وهى سائرة وحدها خارج السجن . . تبدأ عادتها اليومية من الوحدة فعليها إما أن تتحمل وتعيشها مستعينة بقواها

الطبيعية ، أو تهوى تحت وطأتها . فهى لن تستطيع بعد أن تقترض من المستقبل ما تواجه به حزن الحاضر . فالغد قد يأتى بمحنته — كاليوم الذى يليه . كل يوم سيأتى بمحنته مع أنها هى هى المحنة التى تبدو الآن غير محتملة . وستتوالى أيام المستقبل البعيد متثاقلة بالعبء عينه لتحمله « هيستر » معها أينما ذهبت . . لا تلقيه عن كاهلها أبداً ، فالأيام والسنون المتراكمة ستكدس شقاءها على كومة عارها . وربما أضاعت شخصيتها وخلقها خلال هذه السنين والأيام كلها فتصبح رمزاً عاماً يشير إليه الوعاظ ودعاة الفضيلة ويجسمون بها فكرتهم عن ضعف المرأة وشهوتها الآثمة . وهكذا سيتعلم الصغار الأطهار أن ينظروا إليها والشارة القرمزية تلتهب على صدرها — وهى ابنة الأبوين الكريمين ، وهى أم طفلة ستصبح يوماً امرأة ، وهى التى كانت ساذجة طاهرة يوماً — سينظرون إليها باعتبارها صورة للإثم بل جسداً له وحقيقة قائمة . وعندما تموت ، سيكون العار الذى تحمله معها هو الشاهد الوحيد المقام فوق قبرها .

ومن المدهش حقاً أنه برغم الدنيا المبسوطة أمامها ، وبرغم أنه لم تكن هناك فقرة فى الحكم الصادر ضدها تقيدها بالإقامة داخل حدود مستعمرة « البيوريتانز » المنعزلة المعتمة ، وبرغم حريتها فى أن تعود إلى مسقط رأسها أو إلى أى بلاد أوربية أخرى وهناك تخفى شخصيتها تحت مظهر جديد جدة تامة كأنما تبزغ فى وجود آخر ، كما كانت لديها مسالك الغابة السوداء الغامضة ودروبها تمرح فيها على هواها ، وحيث تستطيع طبيعتها

الحارة أن تتكيف مع أناس تختلف عاداتهم وأساليب حياتهم اختلافاً بيناً عن القانون الذى أدانها — برغم كل هذا فمن المدهش حقاً أن تصر المرأة على تسمية هذا المكان موطنها حيث يكون لزاماً عليها أن تظل أبداً رمزاً للعار . ولكن هناك شعوراً بالقضاء والقدر لا يقاوم بل لا مفر منه كأنه القدر نفسه . . يضطر الناس أن يتلكأوا ويحوموا كالأشباح حول البقعة التى شهدت حادثاً عظيماً هاماً لوّن حياتهم . ويزداد ذلك الشعور قوة كلما كان ذلك اللون أقتم . كان إثمها وعارها الجذرين اللذين زرعتهما فى الأرض كأنما لستغرقها مولد جديد استغراقاً تاماً وأحال أرض الغابات التى لم يألفها أى مهاجر أو رحال وطناً قفراً مستوحشاً لتمضى فيه « هيستر براين » حياتها دون ما عداه من مشاهد الدنيا الأخرى المختلفة . حتى تلك القرية فى ريف « انجلترا » حيث طفولتها الهانئة وصباها الطاهر وكأنهما لايزالان هناك فى رعاية أمها كالثياب القديمة التى تحتفظ بها — هاتان الفترتان بدتا أجنبيتين عنها إذا قرنتهما بحاضرها . فالقيد الذى يربطها هنا كان من سلاسل حديدية ، يجرح أعماق روحها لكنه لا ينفصم أبداً .

ربما أيضاً — وهذا هو السبب مع أنها أخفت السر عن نفسها وشحبت كل مرة حاول أن يتسلل من قلبها كثعبان يخرج من جحره — ربما خالجها شعور آخر ربطها بمسرح الحادث وبالطريق الذى سارت فيه وتبين أنه شؤم . فهنا أقامت . . وهنا سارت قدما شخص اعتبرت نفسها مرتبطة به برباط وثيق إن لم يعترف به فى الأرض فسوف يأتى بهما معاً

أمام منصة القضاء فى يوم الحساب الأخير حيث يتزوجان وكأنهما أمام مذبح الكنيسة — زواجاً يمتد مستقبلاً متحداً كجزاء وفاق لا نهاية له، وكثيراً ما وسوس لها الخناس الذى يغوى الأرواح بتلك الفكرة، ثم يضحك من سعادتها الحارة المستميتة وهى تحتضنها تارة ثم تجاهد كى تلقيها عنها تارة أخرى، لم تواجه الفكرة قط بل كانت تسرع بسجنها فى جب عميق. أما ما أرغمت نفسها على تصديقه . . أما ما فكرت فيه واتفقت على أنه الدافع لاستمرار إقامتها فى « انجلترا الجديدة » فقد كان نصفه حقيقة ونصفه خديعة. قالت لنفسها إن هنا مسرح إثمها .. وهنا يجب أن يكون مسرح عقابها الأرضى، فربما طهر روحها عذاب خزيها اليومى وهيأ لها طهراً آخر غير الذى أضاعته — طهراً أقرب إلى طهر القديسين لأنه ثمرة استشهاد.

وطوعاً لذلك لم تهرب « هيستر براين ». كان هناك كوخ صغير له سقف من قش، أقيم على حدود البلدة داخل طرف شبه الجزيرة لكنه بمنأى عن المساكن. أقامه مهاجر من الأوائل وتحول عنه لأن الأرض حوله مجدبة لا تصلح للزراعة، ولأن بعدها يخرجها من دائرة النشاط الاجتماعى الذى يميز عادات المهاجرين. كان الكوخ يقع على الشاطىء ويطل عبر حوض البحر على التلال المكسوة بالغابات نحو الغرب. وتعلو حوله بعض أشجار لا تنمو إلا على شبه الجزيرة هذه ولا تخفى الكوخ عن الأنظار بقدر ما توحى أن هنا شيئاً يتمنى بل يجب أن يتوارى، فأقامت

« هيستر براين » وطفلتها فى هذا السكن الوحيد الصغير الذى أتاحت لها رخصة القضاة الذين وضعوا عليها رقابة مستمرة ، ولم يكن يقيم أودها إلا ممتلكات ضئيلة تخصها ، وما أسرع أن حام ظل من شك مبهم حول المكان . فيأتى الأطفال الذين لا يدركون لصغر سنهم لم حرمت تلك المرأة رحمة البشر ، ويتسللون إلى قرب يتمكنون به من رؤيتها تطرز عند نافذة كوخها .. أو واقفة على عتبة بابها .. أو كادحة فى الحديقة الصغيرة .. أو سائرة فى الطريق الذى يفضى إلى البلدة . فما يلمحون الشارة القرمزية على صدرها حتى يعتريهم خوف غريب معدٍ يدفعهم إلى الهرب .

وبرغم وحدتها ومركزها الحرج . . وبرغم أنها تفقد صديقاً على وجه الأرض يجرؤ على إظهار نفسه ، فإنها لم تتعرض للعوز والحاجة . فقد كانت ذات موهبة فنية تكفيها لشراء طعام لها ولطفلتها النامية . حتى فى بلاد تهيىء مجالاً ضيقاً لممارسة موهبتها الفنية . وكانت تلك الموهبة — الوحيدة التى كانت فى متناول المرأة فى ذلك العهد كما هى الحال الآن — موهبة شغل الإبرة فكانت تحمل على صدرها الشارة المطرزة تطريزاً غريباً باعتبارها نموذجاً من مهارتها الرقيقة المبدعة ، تلك التى كان يسعد سيدات القصور أن يحرزنها ليضفن إلى ثيابهن الحريرية المذهبة زينة أثمن وأكثر روحانية زينة من براعة البشر . فهنا ، حقا حيث تسود ثياب « البيوريتانز » بساطة دكناء ؛ قد يوجد بين حين وحين مجال يتطلب إنتاج إبرتها الرقيق . ومع ذلك فإن ذوق العصر الذى كان يروقه كل إنتاج متأنق مزخرف كهذا ، لم

يعجز عن بسط سلطته على أسلافنا الجادين المتجهمين الذين ألقوا وراء ظهورهم طرزا عدة لعلنا لا نستطيع الاستغناء عنها الآن . فالاحتفالات الشعبية كرسامة القسس وتنصيب القضاة وكل المظاهر الأخرى التى تقدم بها حكومة جديدة نفسها إلى الشعب ، كانت — لحكمة سياسية — مراسم متوقرة منظمة تميزها فخامة كئيبة لكنها مدروسة . « فالياقات » المنشاة المجعدة .. والشرائط المقوصة بدقة .. والقفازات المطرزة الفاخرة كانت تعتبر لازمة لرجال الحكومة الرسميين الذين يقبضون على زمام السلطة ، كما كان ارتداؤها مسموحاً به للأشخاص الممتازين بثراء أو بمركز اجتماعى على حين حرمت قوانين النفقات تلك الكماليات الغالية وغيرها على عامة الرعاع . وكانت هناك حاجة لتطريز « هيستر براين » أيضاً فيما يتعلق بالجنائز — سواء لأكفان الموتى أو لثياب الأحياء ، بيضاء كانت أو قاتمة تلك الثياب التى يظهرون بها حزنهم ، كما أتاحت ثياب المواليد — فقد كان المواليد يرتدون ثياباً طويلة رسمية — فرصة أخرى للعمل والربح .

وشيئاً فشيئاً .. ودون بطء شديد .. صار تطريزها الطراز السائد ، سواء بدافع الشفقة على امرأة بائسة الحظ كهذه ، أو بدافع الفضول السقيم الذى يعطى قيمة وهمية حتى لأشياء عادية تافهة ، أو بأى دافع غامض آخر ، وكان شيوع الطراز يكفى يومئذ كما هى الحال الآن ليضفى على بعض الأشخاص مايسعى وراءه آخرون سدى . أو ربما كان ذلك لأن « هيستر براين » سدت ثغرة . كانت ستترك خالية على كل حال من

المؤكد أن « هيستر براين » وجدت عملا دائما كافياً لتملأ به كل الساعات التي ترى هي أن تستخدم فيها إبرتها . قد يكون الغرور أراد أن يقتل نفسه في المناسبات الرسمية بارتداء ثياب طرزتها هي بيديها المذنبتين . فكنت ترى تطريزها على « ياقة » الحاكم المنفوشة ، وعلى أوشحة رجال الجيش وعلى شرائط الوزراء . كما زين التطريز عينه قلنسوة المولود الصغير . ودفن مع أكفان الموتى لتتفشى فيه العثة ويتعفن . ولكن لم يحدث قط أن استدعيت مهارتها لتعاون في تطريز الخمار الأبيض الذي سيخفي احمرار الخجل الطاهر في وجنتي عروس . وكان هذا الاستثناء دليل الصرامة العنيدة التي لاتلين أبداً والتي ينظر بها المجتمع إلى إثم تلك المرأة .

لم تسع « هيستر » قط إلى اقتناء أكثر مما يمسك رمقها ويقيم أود طفلتها . فكان ثوبها من أكثر الأنسجة خشونة ودكنة ، لا يزينه سوى تلك الحلية : الشارة القرمزية التي قدر عليها أن تتخذها . أما ثوب الطفلة فكان يميزه تفنن خيالي زاد من الجاذبية التي راحت تنمو مبكرة في البنت الصغيرة . لكنه يرمز أيضاً إلى معنى أعمق ربما تحدثنا عنه فيما بعد . وفيما عدا ذلك التبذير الضئيل في تزيين طفلتها ، وهبت « هيستر » مكاسبها التافهة للخير ، سخت بها على البائسين الذين هم أقل منها شقاء وكثيراً ما أهانوا اليد التي أطعمتهم . وبذلت جانباً كبيراً من وقتها الذي كان في وسعها أن تخص به فنها ، تحوك ثياباً للفقراء . ربما خامرتها فكرة التكفير بعملها هذا ، أنها تضحي بسعادة عميقة حقيقية حين تهب ساعات

كثيرة الحياكة جافة . فقد كانت لطبيعتها خاصية شرقية شهوانية خصبة تهوى كل بديع مزخرف زخرفة باهرة دسمة . ولم تجد تلك الخاصية فى محيط حياتها كله متسعاً لممارسة نفسها سوى إنتاج إبرتها الدقيق الجميل . فالنساء يجدن متعة — لا يفهمها الجنس الآخر — فى أعمال الإبرة الدقيقة . وربما كانت هذه الأعمال فى حالة « هيستر براين » خاصة تعبيراً عن الشهوة فى حياتها يبعث على هدوئها ، فأعرضت عنها باعتبارها إثماً كما أعرضت عن المباهج الأخرى . ونحن نخشى أن يكون تدخل ضميرها فى المعنويات هذا التدخل المتشائم لا يدل على ندم أصيل حازم ثابت ، بل على شعور بالارتياب ، شعور قد يكون خطأ فى أساسه .

وهكذا وجدت « هيستر براين » فى الدنيا نصيباً من العمل تقوم به . وأعانها نشاطها الفطرى وقدرتها النادرة فلم تنبذها الدنيا تماماً مع أنها وصمتها بملامة لا تحتمل ، لو خير قلب المرأة بينها وبين كى الجبهة لاختار الكى . وبرغم صلاتها بالمجتمع لم تجد ما يشعرها بانتسابها إليه . فكل حركة . . وكل كلمة ، حتى صمت هؤلاء الذين كانت تتصل بهم أشعارها ، بل عبر عن نبذها ووحدتها وأكدها كأنما تعيش فى فلك آخر ، أو كأنما تتفاهم مع الناس بحواس وأعضاء أخرى غير المألوفة لدى الجنس البشرى بأجمعه . تقف جانباً ، لا تشترك فى شئون الأحياء لكنها ملتصقة بهم كشبح يكرر الزيارة لمدفأة مألوفة لديه ولا يستطيع أن يجعل أهله يرونه أو يشعرون به . لا يشترك فى ضحكة عائلية ولا فى حزن على قريب . فإذا

نجح فى إظهار شفقته المحرمة أثار رعباً مزعجاً وحسب . فكانت تلك المشاعر والسخرية المريرة أيضاً هى نصيبها الوحيد الذى تحتفظ به فى قلب العالم . فلم يكن العصر عصر رقة . فمع أنها كانت تعرف مركزها جيداً ولا خوف هناك من نسيانها إياه ، فإنهم كانوا لا يكفون عن تذكيرها به — كعذاب جديد — بأعنف لمسة على الجرح الرخص . أما الفقراء الذين سمت إليهم لتهبهم حنانها وعطاياها فكثيراً ما سبوا اليد المبسوطة لهم بالنجدة . كما اعتادت سيدات الطبقة الراقية صب قطرات من المرارة فى قلبها عندما تدخل بيوتهن لشأن يتعلق بتطريزها . أحياناً يقطرن بحقدهن الهادئ ذلك السم الزعاف من أمور تافهة عادية ، وأحياناً أخرى يجهرن بتعبير خشن قاس يقع على صدر المعذبة غير المحصن كأنه لطمة عنيفة على جرح متقيح . وعودت « هيستر » نفسها جيداً ومرنتها كيلا تجيب على أية هجمة من هذه الهجمات إلاّ باندفاع حمرة الخجل إلى خدها الشاحب ثم بانحدارها ثانية إلى أعماق صدرها . كانت صبوراً — بل شهيدة دون أدنى ريب — لكنها تحاملت وصلّت من أجل أعدائها ، كيلا تلتوى كلمات الدعاء الصالح برغم نياتها الصادقة للصفح عنهم فتنصب هذه الكلمات لعنات .

وهكذا شعرت على الدوام وبألف طريقة أخرى بنبضات عذاب لا حصر لها ، جلبها عليها بتحايل ودهاء الحكم الفعال الحى أبداً ذلك الذى قضى به عليها مجلس قضاء « البيوريتانز » . كان القساوسة عندما

يلمحونها يتوقفون فى الشارع ليلقوا موعظة نصح وإنذار فيجتمع الناس بعبوسهم وتبسمهم حول المرأة الخاطئة المسكينة . وإذا دخلت كنيسة ما على أمل أن تشترك فى ابتسامة يوم الأحد التى يهبها الله « أبو العالم » لعباده ، وجدت لحظها العاثر أنها هى نفسها موضوع الوعظة . وصارت تخشى الأطفال ، فيبدو أنهم استخلصوا من حديث أهلهم فكرة مبهمة عن شيء فظيع يتعلق بتلك المرأة الحزينة التى تنسل فى طرقات البلدة فى صمت وبلا رفيق سوى طفلة واحدة . فكانوا بادىء بدء يدعونها تمر ثم يتبعونها بصرخات رفيعة حادة ويرمونها بكلمة لا تحمل معنى لعقولهم الطفلة ، لكنها تؤذى المرأة بقسوة وهى تنطلق من شفاه غافلة تثرثر بها دون وعى ، كأنما انتشر عارها حتى علمت به الطبيعة كلها ، فما كانت لتصيبها غصة أكبر لو أن أوراق الأشجار تهامست بقصتها السوداء فيما بينها . . أو صرخت بها عالياً ريح الشتاء ! كان بعضها عذاب غريب خاص كلما رنت إليها عين جديدة . فعند ما كان الغرباء ينظرون بفضول إلى الشارة القرمزية — ولم ينس أحد ذلك قط — كانوا يشمونها عن جدة فى أعماق روح « هيستر » . فكثيراً ما كادت لا تمالك أن تغطى الشارة بكفها وإن امتنعت دائماً عن ذلك . كما كان للعين المألوفة عذاب خاص أيضاً توقعه بها نظرة باردة عادية لا تطاق . وباختصار ، كانت « هيستر براين » تتعذب عذاباً فظيعاً كلما وقعت عين آدمية على الشارة . فلم يجف الجرح بل أضحى أشد حساسية مع ذلك العذاب اليومى .

ولكن أحياناً . . مرة كل بضعة أيام .. أو كل بضعة أشهر كانت تقع على شارتها — عين آدمية — تشعر لنظرتها براحة كأنما تشاركها وجيعتها . ثم يعاودها العذاب مريراً مضاعفاً فى اللحظة التالية . فقد أثمت مرة ثانية خلال تلك الفترة الخاطفة . هل أثمت « هيستر » وحدها ؟

وقد تأثر خيالها شيئاً بحياتها ، ولو أنها كانت من نسيج خلق وذهنى أكثر رقة لزاد تأثرها بالوحدة والألم الممض الغريب الذى يسود حياتها . فسيرها جيئة وذهابا بخطواتها تلك الوحيدة . . وفى الدنيا الصغيرة التى تتصل بها عن بعد جعل « هيستر » تشعر شعوراً قوياً أن الشارة القرمزية قد وهبتها حاسة جديدة . فترتعد لاعتقادها أنها وهبتها القدرة على معرفة الأسرار الدفينة فى قلوب الآخرين . فتصعق للاكتشافات التى أحرزتها . ما هذه الاكتشافات ؟ أيمكن أن تكون غير همسات ملك الشر الذى يحاول سدًى إقناع المرأة المناضلة — والتى لم تصبح ضحيته تماماً — إن قناع الطهر الخارجى ما هو إلا أكذوبة وإنه لو كشف عن الحقائق فى كل مكان لتوهجت شارة قرمزية على صدور أخرى كثيرة غير صدر « هيستر براين » ؟ أوهل يجب عليها أن تتقبل ذلك الإيحاء الغامض — مع وضوحه الوضوح كله — تتقبله حقيقة واقعة ؟ لم تجد فى تجربتها البائسة كلها ما هو أشد فظاعة ولا إثارة للاشمئزاز من تلك الحاسة الجديدة . فقد حيرتها كما صعقتها عندما هبت فجأة نشيطة تعمل فى ظروف غير ملائمة . فأحياناً يخفق العار القرمزى على صدرها خفقة تعاطف وهى تمر بجوار موظف جليل

أو قاض هو مثال للعدل والورع والتقوى ، قاض ينظر إليه ذلك العصر الوقور العتيق باعتباره رجلا من البشر يصادق الملائكة .

فتقول « هيستر » لنفسها :

— « أى شرير بجوارى ؟ » .

وترفع عينيها فلا تجد على مرمى البصر سوى قديس الأرض هذا ؟

ومرة أخرى ، ينتابها شعور عنيد بأخوة مبهمة عندما تلتقى بامرأة جادة متجهمة تقول عنها الإشاعات إنها احتفظت طوال حياتها بصدرها بارداً برودة الجليد . أهناك تشابه بين ذلك الجليد الذى لم تشرق عليه شمس فى صدر المرأة التقية ، وبين ذلك العار المحرق على صدر « هيستر براين » أو مرة أخرى ، تسرى فيها قشعريرة تنبهها :

« انظرى يا « هيستر » . . ها هى ذى زميلة لك ! »

وعندما تنظر ، تلمح عينى غادة ترمقان الشارة القرمزية بخجل وبنظرة جانبية ثم تشيحان عنها بسرعة ، على حين تتضرج وجنتاها بحمرة ناصلة مثلجة — كأنما تلوثت طهارتها شيئا بتلك النظرة الخاطفة . فيأيها الشيطان . . يا من تعويذته كانت تلك الشارة القرمزية المشئومة — ألا تدع شيئاً فى صبا أو فى شيخوخة لتوقره وتحترمه تلك الخاطئة البائسة ؟ فضياع الثقة والإيمان هكذا أكثر عواقب الإثم إيلاماً . فإذا فرضنا أن ذلك دليل على عدم فساد المسكينة — ضحية ضعفها البشرى وقسوة قانون الرجال —

فساداً تاماً ، فإن « هيستر براين » كانت تجاهد لتصدق أن ليس فى الوجود حىّ آثم مثلها .

أما عامة الرعاع — غوغاء تلك الأزمنة القديمة الكئيبة — فكانوا يضفون رعباً شاذاً على الأمور التى تسترعى اهتمامهم . فكان لديهم قصة يروونها عن الشارة القرمزية تصلح لأن تحيلها أسطورة رائعة . أكدوا أن الرمز لم يكن نسيجاً أحمر وحسب ، مصبوغاً فى قدر عادية للأصباغ ، بل أنه استمد لونه الملتهب من الجحيم ، وأنه يتوهج وينير حيثما سارت « هيستر براين » أثناء الليل . فوجب علينا أن نؤكد هنا أن الشارة أحرقت أعماق قلب « هيستر » حتى لنظن أن فى تلك الإشاعة حقيقة أكثر مما نحب نحن الآن أن نعترف بريبتنا وشكوكنا الحديثة .

الفصل السادس

« پورل » أو « لؤلؤة »

إننا حتى الآن لم نـكد نتحدث عن الطفلة ... تلك المخلوقة الصغيرة التي انبثقت حياتها البريئة — بأمر مبهم أصدره القدر — وردة رائعة خالدة من قلب خصوبة شهوة خاطئة . لا بد أن الأمر بدا غريباً . . شاذاً للمرأة الحزينة وهي ترقب النمو والجمال وهما يزدهران يوماً بعد يوم والذكاء الذي يلقى ضوءه المرتجف على قسمات هذه الطفلة ! لؤلؤة ! فهكذا أسمتها « هيستر » — وإن اسمها لا يدل على مظهرها الذي لم يكن فيه شيء من هدوء اللؤلؤ وبياضه وبريقه غير الشهواني . ولـكن الأم أطلقت على الوليدة اسم « بورل » أو « لؤلؤة » لأنها شيء ثمين اشترته بكل ما تملك ؛ فهي كنز أمها الوحيد . ياللغرابة ! وصم الرجال إثم تلك المـرأة بشارة قرمزية لها تأثير مشئوم قاهر حال بينها وبين أي شفقة بشرية — إلا أن تـكون آثمة مثلها . فأعطاها الله ثمرة للإثم الذي انتقم منـه الرجال على ذلك النحو ، طفلة جميلة مكانها على نفس الصـدر المسلوب الشرف حتى تربط أمها أبداً بسلالة البشر وتصبح في النهاية روحا مباركة في السماء ! ومع ذلك فقد كانت تلك الأفكار تثير في نفس « هيستر براين » توجساً

أكثر مما تثيره من أمل . كانت تعلم أن عملها شر، فلم تطمئن قط إلى حسن عاقبته . فكانت ، ، يوماً بعد يوم ، ترقب بخوف ووجل الطفلة وطبيعتها التى تتفتح .. وتتشعب .. وتتكشف — توجس خيفة من أن تجد فيها شذوذا أسود يلائم الإثم الذى تدين له بوجودها .

ولكن مما لا شك فيه أن الوليدة لم يكن بها أى تشويه جسمانى ، بل كانت جديرة بأن تنشأ فى الجنة بتكوينها الكامل السليم ..وبقوتها .. وبمهارتها فى استخدام أطرافها التى لم تستخدمها بعد — جديرة بأن تترك هناك لتكون لعبة يلهو بها الملائكة بعد طرد أبوى الدنيا الأولين . كانت فى الطفلة رشاقة طبيعية ليس حتماً أن توجد حيث الجمال الكامل المبرأ من القبح . ومهما كان ثوبها بسيطا فهو يوحى للناظر إليها أنه خير ما يلائمها من أثواب . ولكن « بورل » الصغيرة لم تكن ترتدى أعشاباً برية ، فإن أمها — لغرض مبهم قد يفهم فيما بعد — اشترت أثمن أنسجة فى السوق كله وأطلقت لخيالها العنان يتفنن فى حياكة الثياب التى ترتديها الطفلة أمام عيون الناس كما يفتن فى تزيينها وتطريزها فتبدو الطفلة رائعة بزينتها هذه ، ويتوهج جمالها فى الثياب البديعة التى قد تطفىء جمال من هم أقل منها بهاء ، وتحيط بها هالة مضيئة على أرضية الكوخ القاتمة — كما كان أى ثوب أحمر عادى متسخ قد مزقته بلعبها الخشن جديراً أن يضفى عليها هذا التوهج عينه . كان مظهر « بورل » يوحى بأنها تفيض بمختلف الصفات : كان فى تلك الطفلة الواحدة عدد جم من الأطفال تشمل صفاته

أفق الطفولة كله وتتدرج من جمال الطفلة القروية الغض إلى عظمة أميرة طفلة . ومع ذلك كان يسرى فى تلك الصفات كلها اندفاع حار لمشاعرها وتوهج لم تتخل عنه قط . فلو أنها شحبت يوماً أو قلت حيويتها فى حالة من حالات التغيير الذى مر بها ، لما كانت هى « بورل » !

وكان ذلك التقلب الظاهرى يدل، بل يعبر عن ملكاتها المختلفة الخاصة بحياتها الداخلية . فطبيعتها تبدو ذات عمق وتنوع ، لكنها — كما خشيت « هيستر » — لا تلائم الدنيا التى ولدت فيها . فلم يكن من السهل إرغام الطفلة على اتباع أوامر خاصة . فهى نفسها وليدة انتهاك قانون . فكانت الثمرة مخلوقة ذات عناصر جميلة وهاجة لكنها مضطربة — أو منظمة تنظيماً خاصاً بها لا يستبين منه الحد الفاصل بين التنوع والنظام . فلم تستطع « هيستر » أن تفسر أخلاق الطفلة إلا بتذكر نفسها وهى صغيرة ، فى الفترة الدقيقة التى كانت « بورل » تمتص روحها من عالم الأرواح وتتشكل بدنها من عناصر الأرض . وكان انفعال الأم هو الوسيط الذى انتقلت به إلى الجنين إشعاعات حياته الخلقية المقبلة . وهى وإن كانت فى الأصل بيضاء صافية فقد اكتسبت لمعات قرمزية وذهبية عميقة ، وبريقاً نارياً .. وظلا أسود .. ونوراً متمرداً من عنصر الوسيط . وعلاوة على هذا ، فقد خلدت الحرب التى خاضتها روح « هيستر » — تلك الفترة فى « بورل » . فاستطاعت الأم أن تميز فى طفلتها مزاجها هى المستميت المتحدى المنيف ... وطبعها الطائش .... حتى بعض ظلال الحزن واليأس التى كانت تجيش فى قلبها

حينئذ — كلها أضيئت ببهاء الصباح الذى تضفيه نفسية طفلة صغيرة ، والذى ربما يصير عندما يتقدم النهار بوادر عاصفة هوجاء .

وكان التأديب فى الأسر تلك الأيام أشد تزمتا منه الآن . فكان التقطيب والتوبيخ القاسي . . واستخدام العصا بين آن وآن مستعيناً بسلطة الشريعة وسائل لا نستعمل عقاباً لذنوب اقترفت فعلا فحسب ، بل بوصفها حمية صحية لنمو فضائل الطفولة ورقيها . أما هيستر براين . . الأم الوحيدة لتلك الطفلة الوحيدة . . فلم تخطىء باستخدام القسوة التى لا مبرر لها . بيد أنها لم تغب عن بالها قط أخطاؤها هى وعثراتها . فسعت مبادرة إلى الحد — برقة ولكن بحزم — من اندفاع الطفلة وطيشها ، وقد ألقيت مسئوليتها عليها . إلا أن المهمة كانت أكبر من قدرتها . فإن « هيستر » جربت الابتسام والتقطيب كلا بدوره باعتبار ذلك التحريم أسلوبا لردع الطفلة . فلم تجد نتائج ذات قيمة ، فاضطرت اضطراراً إلى التنحى والوقوف جانباً وترك الطفلة لطبيعتها المتقلبة تميل بها يمنة ويسرة . ولكن ، دون شك كان كبح جماحها أو إكراهها على الطاعة مفيداً ما دام مستمراً . أما ماعدا ذلك من أساليب التهذيب الأخرى التى تخاطب عقلها أو قلبها فكان نجاحها متوقفاً على نزوة اللحظة التى تتملك « بورل » الصغيرة . وقد خبرت أمها — وبورل لم تزل طفلة بعد — نظرة ما — فى عينى ابنتها تنذرها أن تعبها ضائع سدى وألا فائدة من الإصرار . . أو الإقناع . . أو التوسل . كانت نظرة ذكية أشد ما تكون ذكاء لكنها مبهمة غير

مفهومة . أحياناً هي نظرة شريرة ... أوعنيدة .. أو حقود . لـكنها غالباً نظرة مسحوبة بحيوية دافقة حتى إن هيستر لم تـكن تمالك أن تشك في لحظات كتلك في كون بورل طفلة آدمية. حقا كانت تبدو روحاً من هواء تلهو بعض الوقت على أرضية الـكوخ ، ثم تنفلت مارقة وتطير بضحكة ساخرة : وكلما قفزت تلك النظرة إلى عينيها البراقتين الوحشيتين بسوادهما العميق ، أحاطتهما بجو غريب من الانفصالية والغموض — كأنما تحوم في السماء وكأنها سوف تتلاشى كشماعة النور التي تأتى من حيث لا نعلم وتذهب إلى حيث لا نعلم . فما ترى هيستر ذلك حتى تندفع نحو الطفلة تلاحق الجنية الصغيرة وهي تهرب منها وتحاورها . ثم تجذبها إلى صدرها وتضمها بعنف وتغرقها بقبلات ملهوفة — لا عن حب دافق وحسب ولـكن لتؤكد لنفسها أن بورل من لحم ودم حقا وليست خيالاأو وهما : ولـكن ضحكات بورل بعد أن تمسك بها أمها — على رغم مرحها وموسيقيتها — تعود بالأم الى شك أعظم من ذى قبل .

وتصدع قلبها لذلك السحر المحير المضلل الذى كثيراً ما فصلها عن ابنتها — كنزها الوحيد — والتي اشترتها بثمن غال . والتي هي كل دنياها فتنفجر « هيستر » باكية فتقطب « بورل » حاجبيها — فلم يكن في المستطاع التكهن بتأثير تلك الدموع فيها — تقطب وتلوح بقبضتها الصغيرة وتتجهم قسماتها الدقيقة في نظرة جادة قاسية غير راضية . وأحياناً تنطلق ضاحكة مرة ثانية وبصوت أعلى — كأنها شيء لا يدرك بل لا يفهم

الحزن البشرى . وأحياناً أخرى نادرة يتقلص بدنها ويهتز مع نحيبها وهى تبكى وتؤكد حبها لأمها فى كلمات متقطعة ، وتبدو مصرة على إثبات حيازتها لقلب أمها بتحطيمه على ذلك النحو . ومع هذا فلم تكن « هيستر » مطمئنة إلى الثقة بحنان عاصف كهذا — ينضب فجأة كما انهمر . وكانت « هيستر » وهى تقلب تلك الأفكار على جميع وجوهها تشعر أنها استحضرت روحاً لكنها خلال تعزيمها وسحرها عجزت عن معرفة كلمة السر التى تتحكم بها فى ذلك الذكاء الوقاد الذى لا تدرك كنهه . كانت راحتها الوحيدة الحقة حين تنام الطفلة . حينئذ تطمئن عليها وتتذوق ساعات من سعادة هادئة حزينة شهية ، حتى تستيقظ « بورل » الصغيرة ثانية بالتعبير الشرير المفيد نفسه يبرق تحت جفنيها المنفرجين .

ومضت فترة قصيرة — ويالها من سرعة غريبة ! — نمت فيها « بورل » ووصلت إلى سن تسمح لها بعلاقات اجتماعية أخرى غير ابتسامة أمها الحاضرة وكلماتها التافهة . ولو أن « هيستر » سمعت صوت حبيبتها الصافى المفرد بين ضجيج أصوات صغيرة أخرى ، واستطاعت أن تميز نبراتها الحلوة من بين الصراخ المتشابك الذى يصدر عن جمع من الأطفال الناشطين لسعدت سعادة مابعدها سعادة ! ولكن كان ذلك من المحال . فقد ولدت « بورل » طريدة عالم الطفولة . فهى ظل الرذيلة . . رمز الإثم وثمرته فلا حق لها بين الأطفال المسيحيين . ولم يكن فى الطفلة أروع من إدراكها الغريزى لوحدتها تلك . . للقدر الذى أحاطها بسياج لا يستباح . . لموقفها

الغريب بين الأطفال الآخرين . ومنذ أطلق سراحها لم تلتق « هيستر »
قط بنظرات الجمهور دون صحبة ابنتها . فأثناء سيرها فى أنحاء البلدة كانت
« بورل » معها دائما — وليدة على الذراعين بادىء بدء ثم بعد ذلك بنتاً
صغيرة . رفيقة أمها تقبض على إصبع من أصابعها بكل ماتمتلك من قوة
وتهرول إلى جوارها ثلاث خطوات أو أربعاً لكل خطوة تخطوها «هيستر»
فشاهدت أطفال المستعمرة على حافة الشارع المزروعة عشباً ، أو على عتبات
البيوت وهم يلعبون بالطريقة الجافة التى رضعوها من أهلهم «البيوريتانز»
كأن يمثلوا الذهاب إلى الكنيسة .. أو جلد أفراد من شيعة «الكويكرز»
بالسياط . أو نزع فروة رأس هندى أحمر فى معركة وهمية . أو تخويف
بعضهم بعضاً بتقليد السحرة . رأتهم « بورل» وراقبتهم عن كثب لكنها
لم تسع قط إلى التعرف بهم فإن كلمها أحدهم لم تجبه . وإن تجمع الأطفال
حولها كما كانوا يفعلون أحياناً بدت «بورل» فظيعة حقاً فى غضبها وثورتها
الصغيرة فتلتقط حجارة تقذفهم بها وهى تطلق صيحات حادة لامعنى لها
تجعل أمها ترتعد لسماعها لأنها تشبه إلى حد كبير لعنات ساحرة بلغة
غير مفهومة .

أما الحقيقة فهى أن صغار « البيوريتانز » هؤلاء كانوا سلالة أشد
الناس تعصباً ، وقد كونوا فكرة مبهمة عن الأم وابنتها — فهموا أن
بهما شيئاً شاذاً يختلف اختلافا بيناً عن طبائع الأشياء المادية . وعلى هذا
احتقروهما بكل قلوبهم وكثيراً ما أهانوهما علانية . وشعرت « بورل »

بذلك الاحتقار وبادلتهم شعورهم بمقت مرير أشد مرارة مما يتحرق فى أى صدر صغير . وكانت لانفجارات المزاج الحاد تلك قيمة خاصة . بل كانت سلوى للأم لأنها على الأقل صادرة عن حالة نفسية واعية متحمسة، لا عن النزوة الطارئة التى كثيراً ما خيبت أملها وهى ترقب ابنتها وتصرفاتها . ومع ذلك أزعجها أيما إزعاج أن تلمح ظلا للشر الذى كان يحيا فى نفسها هى. فذلك العداء كله وتلك المشاعر الحارة الحادة كلها ورثتها « بورل » بحق شرعى عن قلب « هيستر » . وقفت الأم والابنة معاً فى دائرة واحدة من العزلة عن مجتمع البشر . فقد خلدت فى طبيعة الطفلة العناصر الثائرة التى أضنت « هيستر براين » قبل مولد « بورل » والتى بدأت منذ ذلك الحين تهدأ وتتلاشى متأثرة بالأمومة الناعمة الرقيقة .

أما فى البيت — داخل كوخ أمها وخارجه — فلم تحتج « بورل » إلى دائرة أصدقاء واسعة متعددة . انبعث سحر الحياة من روحها المبدعة متوالياً يعدى ألف شىء وشىء كما توقد شعلة لهباً أينما استخدمت . فأشياء وأشياء لا تخطر على البال قط : عصا . . لفافة هلاهل . . وردة — كلها كانت لعب « بورل » التى تبعث فيها بفنها وسحرها — دون أى تغيير ظاهرى — الروح الملائمة لتقوم بأدوار المسرحية التى تدور فى خلدها ، فى عالمها الوجدانى ، وكان صوتها الطفل يؤدى أصوات شخصيات خيالية جمة . . مسنة وشابة . . تتحدث كلها . فأشجار الصنوبر العجوز — تلك السوداء الكئيبة التى ترسل نوحاً حزيناً مع النسيم — لم تكلفها جهداً كبيراً

لتتخيلها عجائز شيمة «البيوريتانز» .. أما أقبح أعشاب الحديقة فأولادهم التى كانت « بورل » تضربها ضرباً مبرحاً وتقتلعها من جذورها بقسوة شديدة . كانت مدهشة حقا تلك الأشـكال العديدة المختلفة التى ابتدعها خيالها لا مسترسلاً بل متقافزاً أبداً يتراقص بنشاط غير طبيعى ، ثم تخور قواه كأنما أجهده تيار الحياة هذا السريع المحموم ، ثم يهب مرة ثانية يتابع نشاطه الجارف . . كانت تخيلاتها كمسرحية وهمية من مسرحيات الشمال . ومع ذلك لم يكن المرء ليلحظ فى تمرين الخيال هـذا ورياضة العقل النامى تلك شيئاً مخالفاً لما فى الأطفال الآخرين الأذكياء . ولـكن القحط الذى كانت تعانى منه « بورل » فى الأصدقاء الآدميين جعلها تتعلق بالمجموعة الخيالية التى خلقتها . أما الشىء الطريف حقاً فكان الشعور العدائى الذى تصبه الطفلة على ذرية عقلها وقلبها . لم تخلق صديقة قط ، بل بذرت أعداء وحسب يميناً وشمالا ثم اندفعت تقاتلهم — أمر محزن للغاية وخاصة لأم تعرف السبب من أعماق قلبها وهى ترقب فى مخلوقة صغيرة كهذه تسليمها الراسخ بأن حولها دنيا معادية ،ثم تراها تمرن قواها بعنف ووحشية للنزال الذى هو لا بد واقع .

وكثيراً ما ألقت « هيستر براين » بتطريزها على ركبتيها وهى تحدق فى« بورل » ، ثم تصيح بألم صيحة تفلت غصباً — صيحة بين الـكلام والأنين :

— « يا إله السموات — لو أنك ما زلت أبى الروحى — ما هذه المخلوقة التى أتيت أنا بها إلى هذه الدنيا ! »

فتستدير « بورل » وقد سمعت تلك الصيحة — أو ربما أدركت بوسيلة أخرى وجدانية كنه نبضات العذاب تلك — تدير وجهها الجميل الصغير المتوهج إلى أمها ثم تبتسم بذكاء الجن وتعاود لعبها .

وهناك ميزة أخرى غريبة فى سلوك الطفلة علينا أن نذكرها . فلم يكن أول شىء لاحظته فى حياتها ابتسامة أمها ومجاوبتها بابتسامة شاحبة تشرق على الثغر الصغير كما يفعل المواليد ، ويذكرها الأهل فيما بعد ويتناقشون بإيناس فى كونها ابتسامة حقاً . لا .. وقطعاً لا ! كان الشىء الأول الذى استرعى انتباه « بورل » — هل نقول ؟ هو الشارة القرمزية على صدر أمها ! ففى ذات يوم وقد انحنت الأم على المهد الصغير تعلقت عينا الوليدة بالتطريز المذهب حول الشارة ، فبسطت يدها الصغيرة وتشبثت به وهى تبتسم لا بتردد بل ببريق حازم أضفى على وجهها سمت طفلة أكبر سناً . فشهقت « هيستر براين » وراحت تحاول وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة أن تجذبه منها وتمزقه عن صدرها — كان عذاباً لا يقدر ذلك الذى أنزلته بها تلك اللمسة الفطنة من يد الوليدة « بورل » . ومرة أخرى ... كأنما عذاب الأم وتألمها ليس إلا لتسلية الطفلة ، نظرت « بورل » الصغيرة فى عينى « هيستر » وابتسمت ! ومنذ ذلك الحين لم تشعر « هيستر » بطمأنينة قط إلا و « بورل » نائمة — لا .. ولا بلحظة هناء هادئ . حقاً كانت تمر أسابيع أحياناً دون أن تركز « بورل » نظرتها مرة واحدة على الشارة القرمزية ، ولكن ذلك كان يحدث فجأة كضربة الموت .. ودائماً بالابتسامة الغريبة عينها .. وبتعبير العينين الشاذ نفسه .

وحدث يوماً أن قفز ذلك التعبير الشيطانى المتقلب إلى عينى الطفلة و « هيستر » تنظر إلى خيالها فيهما ، كما أولعت بعض الأمهات بأن يفعلن. وبغتة — فإن النساء الوحيدات ذوات القلوب المهمومة تناوشهن أوهام لا تحصى — بغتة خيل إليها أنها لا ترى انعكاس صورتها هى ولكن ترى وجها آخر فى المرآة الصغيرة السوداء داخل عينى « بورل ». كان وجهاً شيطانياً يغشاه حقد متبسم ومع ذلك يشبه قسمات شخص عرفته جيداً وإن كان نادر الابتسام لم يعرف الحقد مطلقاً . بدت الطفلة كأنما تملكتها روح شريرة أطلت الآن بنظرة ساخرة . وتعذبت « هيستر » مرات أخرى عديدة بذلك الوهم عينه .

وعصر يوم من أيام الصيف وقد كبرت « بورل » وأصبح فى وسعها الركض هنا وهناك ، راحت تتسلى بجمع ملء حفنتيها ورودا برية وتقذف صدر أمها بواحدة تلو الأخرى وهى ترقص وتقفز كجنية صغيرة كلما أصابت الهدف ولطمت وردة الشارة القرمزية . فكان أول ما خطر ببال « هيستر » هو أن تخفى صدرها بيديها ، وبباعث من عزة نفس .. أو من استسلام .. أو من شعور بأن تفكيرها ربما صار أشد تأثرا بذلك العذاب غير المحتمل قاومت ذلك الخاطر المفاجىء وجلست معتدلة شاحبة كالأموات تنظر بحزن فى أعماق عينى « بورل » الصغيرة الوحشيتين . واستمرت مدفعية الورود ، كل وردة منها تقريباً تصيب الهدف وتغطى نهدى الأم بجراح لا تجد لها دواء فى هذه الدنيا ولا تعرف كيف تبحث عنه فى دنيا

أخرى . وأخيراً وبعد أن انتهت كل الورود التى مع الطفلة ، وقفت هادئة تحملق فى « هيستر » وذلك الشيطان الصغير الضاحك يطل — كما خيل للأم سواء أطل أو لم يطل — من الهوة السحيقة فى عينيها السوداوين .

فصاحت الأم :

— « من أنت أيتها الطفلة ؟ »

وأجابتها الطفلة :

— « أنا صغيرتك » « بورل ! »

لكنها قالت ذلك وهى تضحك وتتراقص ... وهى تقفز فى حركات هزلية كالتى تقوم بها جنية وربما كانت نزوتها التالية أن تطير من المدخنة .

فسألتها « هيستر » :

— « هل أنت طفلتى حقاً ؟ » .

ولم تلق بسؤالها هذا عبثاً ، ولكن بنصيب من الحماسة الحقة . فقد دفع ذكاء « بورل » الرائع أمها إلى الشك فى أن طفلتها مطلعة على سر وجودها ، فهى على وشك الكشف عن نفسها .

أما الطفلة فكررت قولها عينه وهى مسترسلة فى رقصها وقفزها :

— « نعم . نعم .. أنا « بورل » الصغيرة ! » .

فقالت الأم فى شبه مداعبة — فكثيراً ما انتابتها نزوة الدعابة وسط أعمق عذابها وأعنفه :

— « لست بطفلتى . . ولست بصغيرتى « بورل » ! قولى لى من تكونين ؟ ولماذا أرسلت هنا ! » .

فاقتربت الطفلة من « هيستر » تلتصق بها وتقول جادة :

— « قولى لى أنت يا أمى — قولى لى ! » .

فأجابتها « هيستر براين » :

— « لقد أرسلك أبوك السماوى ! » .

لكنها ترددت وهى تقول ذلك . ولم يفت الطفلة الفطنة ترددها ، وبباعث من شيطنتها المعتادة أو من روح شريرة دافعة ، رفعت أناملها الصغيرة ولمست الشارة القرمزية وهى تصيح مؤكدة :

« لا . . هو لم يرسلنى ! فليس لى أب سماوى ! » .

فأجابت الأم وهى تكبت زفراتها :

« صه يا « بورل » . . صه ! لا تتكلمى هكذا ! إنه هو الذى أرسلنا إلى هذه الدنيا ! حتى أنا . . أمك — أرسلنى ، وأهم من ذلك بكثير ، أرسلك أنت ! فإن لم يكن هو الذى أرسلك ، فمن أين أتيت أيتها الجنية الصغيرة ؟ » .

فكررت « بورل » ما قالته ولكن فى غير جد بل فى تضاحك وقفز على أرضية الحجرة :

— « قولى لى أنت . . قولى لى ! أنت التى يجب أن تخبرينى ! » .

ولكن « هيستر » لم تستطع أن تجيب عن هذا التساؤل ، فقد كانت هى نفسها فى محنة كئيبة مظلمة من الحيرة والشك . وتذكرت — بابتسامة ورجفة — حديث الجيرة من أهل البلدة الذين حاولوا سدًى أن يكتشفوا أبا الطفلة ، فلما عجزوا وتبينوا بعض تصرفاتها الشاذة انتهوا إلى أن « بورل » الصغيرة المسكينة واحدة من سلالة الشيطان . ومنذ عهد الكاثوليكية الأول ، وأفراد تلك السلالة يظهرون فى الفينة بعد الفينة على أرضنا بسبب إثم أمهاتهم ، أو لكى يقترفوا شراً آخر . وكان «لوثر» وفق الوصمة التى رماه بها أعداؤه الرهبان واحداً من هذه السلالة الجهنمية فلم تكن «بورل» بين سكان «انجلترا الجديدة» من شيمة «البيوريتانز» هى الوحيدة التى ألصق بها ذلك النسب المشئوم .

الفصل السابع

ردهة الحاكم

ذهبت « هيستر براين » ذات يوم إلى قصر الحاكم « بيلينجهام » تحمل زوجاً من القفازات طرزته وجملت لهسجافاً ليرتديه فى مناسبة رسمية كبرى . فمع أن الأمل فى انتخابه بالتزكية قدجعل ذلك الحاكم السابق يهبط درجة أو درجتين من أعلى مركز ، فإنه لم يزل يحتل مكانة مشرفة ذات سلطة واسعة بين ولاة أمور المستعمرة .

ولكن كان هناك سبب آخر أكثر أهمية من تسليم زوج من القفازات المطرزة هو الذى دفع « هيستر » فى ساعة كهذه إلى السعى وراء لقاء شخصية ذات سلطة ونفوذ فى شئون المستعمرة ، فقد بلغ أذنيها رذاذ من إشاعة تردد أن بعض زعماء السكان الذين يحبذون نظام المبادىء المتزمتة فى الدين والحكومة يضمرون حرمانها من ابنتها . وكانت حجة هؤلاء الناس الطيبين الذين تشبثوا بتلك المبادىء أنه مادامت البنت قد اعتبرت من سلالة شيطانية ، فواجبهم باعتبارهم مسيحيين ولصالح روح الأم أن يخلصوا طريقها من تلك العقبة الكؤود . أما إذا تبين أن الطفلة تستجيب للتوجيه الخلقى والدينى وأنها تمتلك العناصر القصوى لخلاص روحها وتطهيرها ، فسوف

تتمتع حينئذ دون شك بتلك الفوائد والمزايا إلى أقصى حد عندما توضع فى رعاية خير من رعاية « هيستر براين » وأوفر حكمة منها . وقد قيل إن الحاكم « بيلينجهام » أنشط زعماء تلك الخطة . وربما بدا أمراً فريداً بل هزلياً أن قضية كهذه لم تكن فى الأيام التى تلت ذلك العهد لتعرض على مجلس قضائى أعلى من رجال البلدة الممتازين — يتناقش فيها الجميع الآن علانية وينقسم رجال الدولة البارزون على أنفسهم بسببها . وعلى كل حال فى تلك الحقبة من السذاجة الفطرية كانت أمور أقل أهمية المصلحة العامة وأوهى قيمة جوهرية من حادثة « هيستر براين » وطفلتها — تختلط بمناقشات رجال السلطة التشريعية وأحاجيهم بل بلوائح الدولة نفسها . وجاء زمن — ليس أقدم بكثير من زمن روايتنا هذه — كان إذا نشب فيه نزاع بشأن ملكية خنزير ، لم يسبب نزالا عنيفاً مريراً فى لجنة السلطة التشريعية التابعة المستعمرة وحسب بل ينتج عنه تعديل هام فى هيئة اللجنة نفسها .

خرجت إذن « هيستر براين » من كوخها المنعزل ووجهتها قصر الحاكم وهى تشعر بقلق وإن ملأتها ثقة بحقوقها حتى لم تبد المباراة متعادلة بين جموع الشعب فى جانب ، وامرأة وحيدة تؤازرها الطبيعة فى الجانب الآخر . وطبعاً كانت « بورل » الصغيرة فى صحبتها ، وقد بلغت سناً تمكنها من الركض بخفة إلى جوار أمها . ولما لم تكن تهدأ من الصباح حتى الغروب ، فقد كان فى وسعها القيام برحلة أطول مما يمتد أمامها . ومع ذلك

فكثيراً ماطلبت من أمها — بدافع نزوة لا اضطراراً — أن تحملها على ذراعيها . لكنها سرعان ما تحزم رأيها وتصر أن تضعها أمها على الأرض مرة ثانية ثم تندفع تحجل أمام «هيستر» على الطريق المعشوشب وهى تقع وتتمتر دون أن يلحقها أذى .. ولقد تحدثنا عن جمال « بورل » السخى الغض — جمال متوهج بألوان مشرقة نيرة؛ بشرة ساطعة، وعينان ذواتا عمق ، وحدة بريق .. وشعر كستنائى لامع قاتم سيتحول على مدى السنين إلى لون يقرب من السواد . كانت هناك نار تملأها وتتخللها فبدت كأنها ثمرة غير مقصودة للحظة من لحظات الشهوة الطاغية . وقد أطلقت أمها لخيالها الرائع العنان وهى تحوك ثوب الطفلة وتطرزه . فألبستها ثوباً من القطيفة القرمزية حاكته على نمط غريب خاص وسخت فى تطريزه بخيوط ذهبية . فألوان قوية صارخة كهذه كانت لاريب تضفى شحوباً على خدين أقل إشراقا من خديها ، لكنها لاءمت جمال « بورل » حتى جعلتها أبهج نافورة لهب صغيرة تراقصت على هذه الأرض .

وكانت ميزة ذلك الثوب بل كان مظهر الطفلة بأكمله يذكر المرء تذكيراً محتوما لا يقاوم بالرمز الذى قدر على « هيستر براين » أن ترتديه فوق صدرها .. كانت شارة قرمزية أخرى — بل الشارة القرمزية قد دبت فيها الحياة ! فالأم نفسها — وقد حرق العار القرمزى أعماق عقلها حتى إن تصورها لفحوى المعانى كلها اتخذ شكله وهيئته — شكلت بدقة شبيهاً له وهبت بسخاء ساعات من الابتكار السقيم لخلق تشابه بين محور عاطفتها

وبين رمز خطيئتها وعذابها ، والحــق يقال إن « بورل » كانت الشيئين لأمها ، لذلك استطاعت «هيستر» — نتيجة لتلك الوحدة — أن تتحايل بنجاح باهر لتمثيل الشارة القرمزية فى مظهر ابنتها .

وعندما وصلت عارتا السبيل إلى حدود البلدة، رفع أطفال «البيوريتانز» عيونهم عما كانوا يلهون به — أو عما اعتبره هؤلاء المفاريت المتجهمون لهوا ، وقال بعضهم لبعض :

— « انظروا .. هاهى ذى المرأة ذات الشارة القرمزية ! وفضلا عن تلك ... هاهى ذى شبيهة الشارة القرمزية نفسها تركض إلى جــوارها ! تعالوا إذن نقذفهما بالوحل !. »

ولــكن « بورل » التى كانت طفلة جسوراً لاتخشى شيئاً ، قطبت حاجبيها وضربت الأرض بقدمها وهى تهز يدها وتلوح بتهديدات شتى . . ثم اندفعت فجأة إلى لمة أعدائها واضطرتهم إلى الهرب . كانت تشبه فى مطاردتها العنيفة لهم وباء مما يصيب الصغار — الحمى القرمزية مثلا . . أو ملــكا له بعض الريش من ملائــكة يوم الحساب واجبه أن يعاقب الجيــل الناهض . صرخت وصاحت بصوت هائل جعل قلوب الهاربين ترتجــف دون ريب فى صدورهم . ولما انتصرت « بورل » عادت إلى أمها فى هدوء ورفعت إليها عينيها وابتسمت فى وجهها .

ووصلا إلى مسكن الحاكم « بيلينجهام » دون أية مغامرات أخرى وكان مسكنه هذا بيتاً خشبياً كبيراً بنى على طراز لا تزال نماذج منه قائمة

فى شوارع بلدائنا القديمة — بيوت متهاوية يملوها الطحلب ويملأ قلوبها شجن الأحداث السعيدة أو الحزينة . . المنسية أو المذكورة .. التى وقعت فى حجراتها المظلمة .. ومرت .. وانقضت. أما بيت الحاكم فكان يتوهج بنضارة الحاكم الحاضر .. وبالبهجة التى تشع من نوافذه المشمسة . وبالحياة التى تدب داخله حيث لم يعرف الموت طريقاً إليه . كان مظهره الخارجى بهيجاً بلا شك قد طليت جدرانه بلون من الطلاء الجيرى المخلوط بمنثور الزجاج حتى إذا سطعت الشمس جانبية على وجهة البناء تألق وتلألأ كأنما ألقيت عليه حفنات من الماس. كان ذلك البريق يليق بقصر «علاء الدين» بطل الأسطورة الشهيرة لا بقصر حاكم بيوريتانى مسن متجهم. وقد زينت وجهته برسومات وتخطيطات غريبة كأنها رموز سحرية تلائم ذوق العصر وقد شكلت فى الطلاء نفسه وهو بعد لزج ، ثم جف ويبس وصار صلباً إلى الأبد لتعجب به الأزمنة المقبلة .

فنظرت « بورل » إلى ذلك البيت المتألق العجيب وراحت ترقص وتتواثب ، ثم طلبت بلهجة آمرة نزع كل تلك الرقعة من أشعة الشمس وإعطائها إياها لتلهو بها !

فقالت أمها :

— « لا يا صغيرتى « بورل » ! عليك أن تجمعى لنفسك نوراً من الشمس — فليس لدى أنا أى نور أعطيك إياه ! » .

واقتربا من الباب الذى كان مقوساً يقوم على كل من جانبيه حصن رفيع ضيق . أو شىء يشبه نتوءاً بارزاً . له نوافذ عليها شبك من أسلاك معدنية ولكل نافذة مصراعان يفتحان ويغلقان عند الطلب . فرفعت « هيستر براين » المطرقة الحديدية المعلقة فوق الباب ودقته بها . فلبى النداء رجل من خدم الحاكم الأرقاء — ولد انجليزياً حراً لكنه أضحى الآن عبداً رقيقاً لمدة سبع سنوات ، يظل خلالها ملكا لسيده وسلعة مباحة للمساومة والبيع كأى ثور أو كرسى . وكان العبد يرتدى المعطف الأزرق الذى كان الرداء التقليدى لخدم تلك الحقبة من الزمن والحقبة التى سبقتها ، فى قاعات لندن الموروثة .

وسألته « هيستر » :

— « هل السيد الحاكم « بيلينجهام » فى الداخل ؟ » .

فأجابها العبد الرقيق وهو يحملق بدهشة فى الشارة القرمزية التى لم يرها من قبل وهو القادم الجديد .

— « نعم ، إن سيدى المبجل فى الداخل . لكنه فى صحبة قس ورع أو قسين كما أن معه طبيباً . فلن تتمكنى من مقابلته الآن ! » .

فأجابت « هيستر براين » :

— « ومع ذلك فإنى داخلة إليه ! » .

فلم يعترض الخادم العبد ، فربما ظن من لهجتها الحاسمة ومن الرمز اللامع على صدرها أنها سيدة عظيمة فى البلاد .

وهكذا أدخلت الأم و « بورل » الصغيرة إلى ردهة المدخل . وقد شيد الحاكم « بيلينجهام » مسكنه الجديد على نمط مساكن السادة ذوى المنزلة المحترمة فى مسقط رأسه ، ولكن بملاحظة الجو المتقلب . . وأسلوب من الحياة الاجتماعية مختلف . . ومواد البناء الميسرة . فكانت ردهة المدخل واسعة عالية تمتد إلى أعماق الدار كلها وتصل الحجرات والأجنحة بعضها ببعض . وتنير تلك الردهة الواسعة من طرف قصى نوافذ البرجين القامين على الباب ، وينيرها من الطرف الآخر — إنارة قوية برغم ستارة ثقيلة — شباك عال مقوس كالذى نقرأ عنه فى الكتب القديمة مفكك وله قاعدة عريضة عليها مخدة . وهنا . . على هذه المخدة . . استلقى مجلد ضخم فى تاريخ انجلترا القديمة لا ريب ، أو فى بحث متين خطير فى أدب اللغة — كما نفعل فى أيامنا هذه عندما نبعثر على مائدة الوسط بعض كتب بأغلفة مذهبة ليقلب فيها الزائر العابر . أما أثاث الردهة فكان يتألف من مقاعد ضخمة مفرطة فى الثقل حفرت على ظهورها الخشبية بزخرفة وإتقان طاقات من الورد ثم مائدة للوسط تحاكيها زخرفة (والأثاث كله من طراز الملكة « اليزابيث » أو ربما كان من طراز أقدم) ثم بعض الأشياء الأخرى الموروثة أتى بها الحاكم من بيت أبويه . ولكى لا يقال إن الكرم الإنجليزى قد نبذ وراء الظهور ، وضع فوق المائدة إبريقاً من الصاج ، لو أن « هيستر » أو « بورل » اختلست نظرة إلى قاعه لرأت بقايا من زبد الجعة .

أما الجدران فقد زينت بصف من صور أجداد « بيلينجهام » ، يرتدى بعضهم عدة الحرب على حين يرتدى البعض الآخر الياقات المنشاة وأردية السلام والقضاء . لكنهم جميعاً وبلا استثناء يتميزون بجد وصرامة نراها دائماً فى الصور العتيقة — كأنهم أشباح لا صور . هؤلاء الراحلون المحترمون يحدقون بتجهم وانتقاد متزمت للحياة والمتع التى يعيشها الرجال الأحياء .

وفى منتصف أضلع الجدران الخشبية تدلت عدة حربية لم تكن تراثاً عن الأجداد كالصور ، بل عدة حديثة قام بصياغتها صانع للسلاح ماهر فى « لندن » فى نفس السنة التى جاء فيها الحاكم « بيلينجهام » إلى « انجلترا الجديدة » . وكان يتألف من خوذة من الصلب . . ودرع . . وطوق للرقبة . . ومسماة للساق . . وقفاز يتدلى تحته سيف . وكانت هذه الأشياء كلها — وخاصة الخوذة والدرع — ينفذ منها بريق أبيض يرى يلقى ضياء على كل مكان فى الأرض .

ولم تكن هذه العدة الحربية معروضة دون جدوى ، بل إن الحاكم كثيراً ما ارتداها فى ساحات التمرين والاستعراضات المهيبة كما أنه ظهر داخلها على رأس كتيبة فى حرب « بيكود » . فمع أنه نشأ محامياً واعتاد الحديث عن « بيكون » .. و « كوك » .. و « نوى » .. و « فينسن » كزملائه المحترمين ، فإن حاجة تلك البلاد الجديدة أحالت الحاكم « بيلينجهام » إلى جندى .. ثم سياسى .. ثم حاكم .

فراحت « بورل » الصغيرة التى سرت سروراً عظيما بالدرع البراقة كما سعدت من قبل بوجهة البيت البراقة — راحت تحملق فترة فى مرآة الدرع المصقولة .

وصاحت :

— « أمى .. إننى أراك هنا : أنظرى .. أنظرى ! » .

فنظرت « هيستر » إرضاء للطفلة . فرأت أن طبيعـــة تلك المرآة المحدودبة قد عكست الشارة القرمزية فى أحجام عملاقة مبالغ فيها حتى صارت أبرز ما فى مظهرها كله . بل الحقيقة أن « هيستر » بدت مختفية تماماً خلفها . فأشارات لها « بورل » إلى أعلى حيث يتضوأ انعـكاس آخر لها فى الخوذة ، وابتسمت لأمها بذلك الذكاء الشيطانى المميز لها — وقد انعـكست أيضاً تلك النظرة الماكرة المرحة فى المرآة بأحجام عرضية وبتأثير أدق وأعمق حتى إن « هيستر براين » شعرت أن تلك الصورة لا يمكن أن تـكون لطفلتها هى ، بل لجنية صغيرة تحاول أن تشكل نفسها على هيئة « بورل » .

فقالت وهى تسحبها بعيداً :

— « تعالى يا « بورل » — تعالى وانظرى إلى هذه الحديقة الجميلة . فربما رأينا فيهازهوراً — زهوراً أكثر جمالامما نجده فى الأحراج ! »

فركضت « بورل » إلى النافذة المقوسة فى طرف الردهة القصى ومالت

تنظر خلال الأشجار فى ممشى الحديقة المغطى بالحشائش المشذبة وحوله إطارا من محاولات بدائية لزراعة أشجار الورد القصيرة . ولكن يبدو أن المالك يئس نهائيا من مداومة تملقه كالإنجليز بهواية الحدائق ، وذلك بسبب الجو . . والتربة الجافة .. وموقع مسكنه على ذلك الجانب من المحيط الأطلنطى . . وهذا الكفاح المرير للعيش . كانت فى الحديقة رءوس كرنب . . وعريش قرع عسلى زرع على بعد فامتدت فروعه تملأ المكان حتى أودعت ثمرة عملاقة من ثمراتها تحت نافذة الردهة مباشرة — كأنما تؤكد للحاكم أن تلك الكتلة الذهبية الضخمة من الخضر زينة ثمينة بوصفها خير ما تنتجه له أرض « انجلترا الجديدة » . كما كانت هناك أيضاً بضع شجرات للورد وعدد من شجر التفاح ربما كان من سلالة الأشجار التى زرعها السيد الجليل « بلاكستون » أول من استوطن المستعمرة وصاحب الشخصية نصف الخرافية ، ذلك الذى صوروه فى سجلاتنا الأولى ممتطياً ظهر ثور .

فما إن رأت « بورل » شجر الورد حتى انفجرت باكية من أجل وردة ولم تنجح الجهود لتهدئتها .

فقالت لها أمها بهمة :

— « صه ياصغيرة .. صه ! لا تبكى يا (بورل) الصغيرة الحبيبة ! فإننى أسمع أصواتاً فى الحديقة . ها هو ذا الحاكم مقبلا ومعه ضيوف » .

وفملا رأيا عدداً من الناس يسيرون فى ممر الحديقة الرئيسى . ولكن لكى تظهر (بورل) سخريتها التامة من محاولة أمها لتهدئتها أطلقت صرخة شيطانية ثم سكتت من فورها — لا عن طاعة بل لأن نفسيتها المتقلبة الفضولية أثارها ظهور هذه الشخصيات الجديدة .

الفصل الثامن

الطفلة الجنية والقس

كان الحاكم « بيلينجهام » يتقدم القوم وقد ارتدى ثوباً فضفاضاً وقلنسوة مريحة — كما يحب الرجال المتقدمون فى العمر أن يرتدوا فى خلوتهم وراح يشير إلى أملاكه وإلى ضيعته ويطنب ويفيض فى شرح التعديلات المنتظرة . وقد جعلت ياقته العريضة المستديرة المنشاة تحت لحيته الرمادية (طبقاً للطراز العتيق فى عهد الملك « جيمس ») جعلت رأسه يشبه رأس يوحنا المعمدان موضوعاً على طبق ، ولم يكن هناك توافق قط بين ما جاهد كى يحيط به نفسه من ألوان بهجة الدنيا وزينتها و بين هيئته الجافة الصارمة التى أثقلها خريف العمر . ولكن من الخطأ أن نفترض أن أجدادنا المتجهمين — برغم تعودهم الحديث والتفكير فى الحياة كأنها فترة امتحان وحرب وحسب، وبرغم استعدادهم للتضحية بممتلكاتهم وأرواحهم فى سبيل الواجب — نفترض أن ضميرهم كان يضطرهم إلى رفض وسائل الراحة بل البذخ التى تأتى فى متناول يدهم . فمثلا ، لم ينشر تلك العقيدة قط راعى الكنيسة الورع « جون ويلسون » الذى كانت لحيته البيضاء كالثلج والتى ظهرت الآن خلف كتف الحاكم « بيلينجهام » ، وهو يقترح أن الكمثرى

والخوخ ربما تأقلما فى جو « انجلترا الجديد » . . . وأن العنب البنفسجى ربما أرغم على الإزدهار إذا زرع على جدار حديقة مشمس . كان رجل الكنيسة الهرم الذى رضع ثدى الكنيسة الإنجليزية الخصب ، قد اعتاد منذ زمن بعيد الأشياء المريحة والجيدة ، فهو مهما بدا صارماً على منبره أو فى عظات زجره وتعنيفه العلنى بسبب خطأ ما كخطأ « هيستر براين » فإن حياته الخاصة البهيجة أكسبته حباً أدفأ مما اكتسبه أى رجل من زملائه المعاصرين .

وسار خلف الحاكم والسيد « ويلسون » ضيفان آخران : أحدهما القس الجليل « أرثر ديمسدال » الذى قد يذكره القارئ عندما قام بدور قصير اضطر إليه اضطراراً فى مشهد خزى « هيستر براين » العلنى . وسار على مقربة منه الشيخ « روجر شيلنجورث » وهو شخص ذو خبرة ودراية بالطب استوطن البلدة منذ ثلاث سنوات . وكان المعروف أن ذلك العالم المثقف هو طبيب القس الشاب وصديقه . فقد انهارت أخيراً صحة القس الشاب لتضحيته بنفسه دون ما رحمة فى سبيل واجباته وأعماله فى الأبرشية .

وصعد الحاكم الذى كان يتقدم ضيوفه درجة أو درجتين ، ثم فتح نافذة الردهة الضخمة على مصراعيها ليجد نفسه بجوار « بورل » الصغيرة ، أما « هيستر براين » فقد سقط ظل الستارة عليها وأخفاها شيئاً .

فقال الحاكم « بيلينجهام » وهو يرمق بدهشة الإنسانة القرمزية الصغيرة الواقفة أمامه :

— « ماذا لدينا هنا ؟ أعترف أننى لم أر مثلها قط — منذ عهد صباى الغر أيام « الملك جيمس » الهرم يوم كنت أعتقد أننى أنال شرفا عظيما يدعونى إلى حفل تنكرى . كان حشد من تلك الرؤى الصغيرة يملأ عطلاتنا ، وكنا ندعوها « أطفال إله الظلم » — ولكن من أتى بضيفة كهذه إلى ردهتى ؟ »

فصاح السيد « ويلسون » الهرم :

— « حقاً ! أى عصفورة صغيرة ذات ريش قرمزى هذه ؟ يخيل إلى أننى رأيت مثيلاتها عندما كانت الشمس تسطع على نافذة ملونة بألوان صارخة فترسم على الأرض صوراً قرمزية وذهبية. ولكن ذلك كان فى البلد القديم. بربك ياصغيرة ، من أنت ؟ . ومادهى أمك حتى ألبستك ثياباً كهذه ؟ أطفلة مسيحية أنت ؟ هيه ؟ أتحفظين دروسك الدينية ؟ أم أنت إحدى الجنيات الماكرات التى ظننا أننا خلفناها وراءنا فى « انجلترا » العجوز المرحة ؟ »

فأجابت الرؤيا القرمزية :

— إننى ابنة أمى .. واسمى « بورل » !

فهتف القس الشيخ مجيباً وهو يبسط يده يحاول سدى أن يربت خدها:

—« بورل » ؟ لؤلؤة؟ بل قولى إن أسمك «ياقوت» .. أو «مرجان» أو على الأقل وردة حمراء طبقاً للونك ! ولكن أين أمك ؟ أوه ..

ثم استدار إلى الحاكم « بيلنجهام » يهمس :

— « إنها الطفلة عينها التي كنا نتحدث عنها ، وانظر .. هاهي ذي المرأة التعيسة « هيستر براين » أمها ! »

فصاح الحاكم :

« أحقا تقول ؟ كان يجب علينا أن نحكم بأن أم طفلة كهذه لا بد أن تكون امرأة قرمزية — صنف جدير بالحياة في « بابيلون » ! ومع ذلك فقد حضرت الآن في الوقت المناسب ، وسوف ننظر في الأمر فوراً ! »

ومر الحاكم « بيلينجهام » من نافذة الردهة إلى الداخل وتبعه ضيوفه الثلاثة .

وقال وهو يرمق حاملة « الشارة القرمزية » بنظرته الصارمة المألوفة :

— « أي « هيستر براين » — لقد أثيرت مسألة خاصة بك أخيراً ، وقد نوقشت بدقة واتزان من جميع زواياها . هل نحن — ذوي السلطة والنفوذ — نرضي ضمائرنا بترك روح خالدة كروح تلك الطفلة تحت رعاية إنسانة تعثرت وسقطت بين حفر هذه الدنيا ؟ تكلمي أنت بوصفك أم هذه الطفلة ! ألا تظنين أن من صالح ابنتك الآن وإلى الأبد معاً أخذها منك وإلباسها ثياباً متحشمة .. وتنشئتها تنشئة حازمة صارمة .. وتعليمها حقائق السماوات والأرض ؟ فماذا في وسعك أنت أن تفعليه حيال كل تلك الأمور ؟ » .

فأجابت « هيستر براين » وهي تضع إصبعها على « الشارة القرمزية » :

— « في وسعي أن أعلم صغيرتي « بورل » ما تعلمته أنا من هذه ! »

فأجابها الحاكم الصارم :

— « إن هذه لشارة عارك يا امرأة ! ومن أجل تلك الوصمة التي ترمز إليها هذه الشارة نريد أن ننقل الطفلة إلى أيد أخرى ! » .

فقالت الأم بهدوء وإن ازداد شحوبها :

— « ومع ذلك فقد علمتني تلك الشارة — بل إنها تعلمني كل يوم .. بل إنها تعلمني هذه اللحظة — دروساً قد تجعل طفلتي أكثر حكمة وصلاحاً . . مع أنها لا تستطيع أن تفيدني أنا بشيء ! » .

فقال « بيلينجهام » :

— « سنحكم بحذر ونوازن بين الأمور بدقة لنرى جيداً ما نحن مقدمون عليه . فيا سيدي الصالح « ويلسون » . . . أرجوك أن تمتحن « بورل » هذه — مادام هذا هو اسمها — وترى هل نالت غذاء مسيحياً يجدر بطفلة في مثل عمرها ! » .

فجلس القس الشيخ في مقعد مريح وحاول أن يجذب « بورل » بين ركبتيه . ولكن الطفلة التي لم تعتد لمسات أو مداعبات من أحد غير أمها، هربت من النافذة المفتوحة ووقفت على درجة السلم العليا كأنها عصفورة وحشية من المناطق الاستوائية على وشك الطيران إلى طبقات الجو العليا بريشها القرمزي الفخم .

ومع أن دهشة السيد « ويلسون » لم تكن بسيطة — فقد كانت له شخصية الجد الطيب الحنون ويحب الأطفال حباً جماً — فإنه حاول برغم ذلك أن يستأنف الامتحان .

فقال بوقار وهيبة كبيرة :

— « أى « بورل » — يجب أن تلتفتى للتعليم والتوجيه وتعيهما جيداً ، حتى إذا ما آن الأوان ضمت ضلوعك لؤلؤة ثمينة حقاً . هل تستطيعين أن تقولى لى من خلقك ؟ » .

كان « بورل » تعلم تمام العلم من خلقها . فإن « هيستر براين » سليلة بيت تقى ، ما إن تحدثت إلى طفلتها عن الله .. أبيها السماوى .. حتى بدأت تطلعها على الحقائق التى تتلقفها — بلهفة وشوق — الروح البشرية فى أى مرحلة من مراحل ما قبل البلوغ . فكان فى وسع « بورل » مع غزارة ما تعلمته فى سنى عمرها الثلاث أن تنجح نجاحاً طيباً لو عقد لها امتحان فى كتاب « قراءة انجلترا الجديدة الأولية » أوفى العمود الأول من « وصايا كاتدرائية وستمنستر » مع أنها تجهل المظهر الخارجى لكل من هذين العملين الشهيرين . ولكن العناد الذى لا يخلو طفل من نصيب منه — وخاصة « بورل » التى كان لها منه عشرة أنصبة ، ركب رأسها الآن فى لحظة غير مناسبة البتة وأطبق شفتيها أو جعلها تهرف بكلمات لا صلة بين بعضها وبعض . فبعد أن وضعت إصبعها فى فمها ورفضت بفظاعة .. مراراً وتكراراً .. أن تجيب عن سؤال السيد الطيب

« ويلسون » ، أعلنت آخر الأمر أنها لم تخلق قط بل اقتطفتها أمها من شجرة الورد الأحمر التي تنمو على عتبة باب السجن .. !!

ربما كان الورد الأحمر فى حديقة الحاكم هو الذى أوحى إلى « بورل » باختلاق تلك الأكذوبة الوهمية وهى واقفة خارج نافذة الردهة — كما أوحت بها إليها أيضاً شجرة الورد على باب السجن الذى مرت أمامه فى مجيئها إلى هنا .

فمال « روجر شيلينجورث » الهرم بابتسامة على وجهه وهمس شيئاً فى أذن القس الشاب . فنظرت « هيستر براين » إلى رجل العلم والمهارة وصعقت — حتى فى تلك اللحظة التى يتأرجح فيها قدرها — وقد لحظت التغيير الكبير الذى حل بقسماته .. كيف أصبحت أشد قبحاً مما كانت عليه .. كيف أن بشرته القاتمة أضحت مغبرة .. كيف أن قامته أصبحت أكثر تشوهاً منها فى الأيام التى عرفته فيها معرفة وثيقة . وتقابلت عيونهما لحظة خاطفة ثم تمالكت « هيستر » وصبت جل اهتمامها على المشهد الذى يدور أمامها .

وقال الحاكم وهو يستعيد رباطة جأشة بعد الدهشة التى ألقاه فيها جواب « بورل » :

— « هذا شىء فظيع : هنا طفلة تبلغ الثالثة من عمرها ولا تعرف من خلقها !! فطبعاً .. وبلا أدنى شك .. هى جاهلة كذلك فيما يتعلق بروحها : فسادها الذى تعيش فيه ومصيرها فى المستقبل . أعتقد يا سادة أننا لسنا فى حاجة لمزيد من الأسئلة ! » .

فاختطفت « هيستر » « طفلتها » « بورل » وجذبتها بعنف بين ذراعيها، وواجهت الحاكم البيوريتانى المرم بتعبير شرس يكاد يكون ضارياً، كانت وحيدة فى العالم الذى نبذها وليس لديها سوى هذا الكنز الفرد ليحيي قلبها . فشعرت أنها تمتلك حقوقا لا تلغى أبداً ضد هذا العالم . وكانت على استعداد لتدافع عنها حتى الموت ...

فصاحت :

— « لقد وهبنى الله الطفلة — أعطانى إياها لقاء كل الأشياء الأخرى التى أخذتموها منى . إنها هنائى . . إنها شقائى . . وعذابى ! إن « بورل » تربطنى بهذه الحياة .. وهى تعاقبنى أيضاً ! ألا ترون أنها هى نفسها « الشارة القرمزية » — إلا أنها شارة حبيبة وعلى ذلك لها قدرة أقوى مليون مرة على التكفير عن إثمى ؟ لن تأخذوها ! سأموت أولا ! »

فقال القس الشيخ الطيب :

— « أيتها المرأة المسكينة ! ستعتنى بالطفلة خيراً مما فى وسعك أنت أن تعتنى بها ! » .

فكررت « هيستر براين » قولها وقد علا صوتها حتى كاد يستحيل صراخاً :

— « لقد وضعها الله فى رعايتى . . فلن أنزل عنها ! ! »

وهنا استدارت بغريزتها إلى القس الشاب السيد « ديمسدال » الذى لم تلتفت إليه طوال الوقت بأكثر من نظرة عابرة ، وصاحت :

— « تكلم بدلا مني! لقد كنت راعي كنيستي المسئول عن روحي . وتعرفني أكثر من هؤلاء الرجال . لن أدع الطفلة تضيع مني ! تكلم عني أنت تعرف — فلديك حنان ليس عند هؤلاء الرجال — أنت تعرف ما في قلبي . . وتعرف حقوق الأم . . ومدى قوة تلك الحقوق إذا كانت الأم لا تمتلك سوى طفلتها و « الشارة القرمزية » ! انظر أنت إليها ! لن أدع الطفلة تضيع مني ! انظر إليها ! »

واستجابة لهذا الابتهال الفريد الحار الذي دل على أن موقف « هيستر براين » استفزها لدرجة تقرب من الجنون ، خطا القس الشاب من فوره إلى الأمام . . شاحب الوجه . . يضع يده فوق قلبه كمادته كلما أثيرت أعصابه المرهفة . وبدا تلك اللحظة أكثر إجهاداً وسقماً مما كان عليه عندما وصفناه في مشهد خزي « هيستر » العلني ، وسواء أكان هذا بسبب صحته المنهارة أم لأي سبب آخر فإن عينيه السوداوين امتلأتا بقلق العالم كله وحزنه كله .

وقال القس بصوت حلو مختلج لكنه قويّ ، دوّى صداه في الردهة ورنت به العدة الحربية الفارغة المعلقة على الحائط :

— في قولها صدق . . صدق هناك فيما تقوله « هيستر » . . . وفي الشعور الذي يلهمها ! لقد أعطاها الله الطفلة كما أعطاها معرفة غريزية بطبعها واحتياجاتها — شيئان . . فيما يبدو . . فريدان في تلك الطفلة — معرفة لم يعطها لأي مخلوق آخر . وغير ذلك ، أليس هناك شيء فظيع مقدس في العلاقة بين هذه الأم وهذه الطفلة »

فقاطعه الحاكم يسأل :

— « كيف ذلك ياسيدى الصالح « ديمسدال » ؟ أرجوك أن تفسر لنا قولك ! »

فاستطرد القس :

— « لا بد أن الأمر كما ذكرت أنا . أما إذا تصورنا أنه غير ذلك ، أفلا نقر حينئذ أن الله سبحانه . خالق كل حى ، لم يعر هذا الإثم إلا اهتماماً عابراً ولم يقم وزناً للفرق بين الشهوة الآثمة والحب الطاهر ؟ إن هذه الطفلة ولدت من جرم أبيها وعار أمها ، وخلقتها يد الله لتؤثر بطرق شتى فى قلب تلك التى تقف أمامكم الآن تبتهل بحرقة وبمرارة روحها كلها من أجل الاحتفاظ بها . لقد أراد الله أن تكون الطفلة نعمة — النعمة الوحيدة فى حياة أمها . كما أرادها الله أيضاً دون ريب • — وكما قالت لنا أمها بنفسها — أن تكون عقاباً . . ثروة تتحسسها فى لحظات كثيرة غير منتظرة — غصة . . لسعة . . عذاباً دائماً وسط هناء قلق ! ألم تعبر عن هذه الفكرة بذاك الثوب الذى ترتديه الطفلة البائسة والذى يذكرنا فى قوة وإصرار بتلك الشارة الحمراء التى تكوى صدرها ؟ »

فصاح السيد الصالح « ويلسون » :

— « أحسنت الكلام هذه المرة أيضاً ! لقد كنت أخشى أن تكون المرأة لم تبغ إلا جعل ابنتها دجالة ! »

فاستطرد السيد « ديمسدال » :

— « لا .. لا ! ليس الأمر كذلك بحال ! إنها تعرف .. صدقونى .. المعجزة الخطيرة الذى أتى بها الله بوجود هذه الطفلة . ولعلها تعرف أيضاً — ما أعتقــد أنه الحقيقة الـكبرى — أن تلك النعمة وهبت لتبعث فى روح أمها حياة ولتحميها من هاوية للآثم أشد سواداً قد يسعى إبليس لإغراقها فيها! وعلى ذلك فمن الخير أن تـكون لتلك المرأة البائسة الخاطئة طفلة حية — مخلوقة تحت رعايتها تبعث فيها حزناً دائماً أو هناءً دائماً — تهذبها هى وتعلمها الفضيلة ، مخلوقة تذكرها فى كل لحظة بسقطتها ، ومع ذلك تعلم أمها بإيحاء مقدس من الخالق أنها إذا نشّأت الطفلة صالحة وقادتها إلى هدى السماء فإن الطفلة سوف تذهب بأمها أيضاً إلى هناك ! فهذه الأم الآثمة أسعد من الأب الآثم . فدعونا إذن من أجل « هيستر براين » ومن أجل الطفــلة المسكينه نتركهما معاً كما أرادت الأقدار ! »

فقال له « روجر شيلينجورث » الهرم وهو يبتسم له :

— « إنك تتحدث بحماسة ياصديقى ! »

فأضاف القس الجليل « ويلسون » :

— «وفى حديث أخى الشاب معنى عميق ! ماقولك أنت ياسيدى الحاكم « بيلينجهام » ؟ ألم يكن دفاعه عن المرأة المسكينة مجيداً ؟ »

فأجاب الحاكم :

— « بلا أدنى شك ! وقد ساق أحاجى ومناقشات حتى إننا سنـدع الأمر الآن كما هو ـ على الأقل مادامت المرأة لاتلصق بها فضيحة جديدة ولـكن يجب أن توضع الطفلة رهن رعاية دينية حازمة ـ إما رعايتك أنت وإما رعاية السيد « ديسدال » . وفوق ذلك يجب على رجال الضرائب أن يختاروا موسماً مناسباً فيدخلوها المدرسة ويحضروها الاجتماعات الدينية ! »

وكان القس الشاب عندما أنهى حديثه قد تراجع خطوات قليلة عن الجمع ووقف إلى جانب ، تخفى وجهه شيئا ما ظلال ستارة النافذة، على حين اختلج ظل قوامه الذى ترسمه الشمس على الأرض لفرط حماسته أثناء دفاعه. أما « بورل » تلك الجنية المندفعة الطائشة فتسللت برفق إليه وأخذت يده بين يديها كلتيهما وأراحت خدها عليها ملاطفة غير فضولية .. بل رقيقة عذبة للغاية حتى إن أمها التى كانت ترقبها سألت نفسها : أهذه صغيرتى « بورل » ؟ ومع ذلك فقد كانت تعلم أن قلب الطفلة يجيش بالحب برغم أنه يفصح عن نفسه غالباً فى اندفاع ونزوات ، ولم يحدث طوال حياتها كلها أن صار دمثاً رقيقاً كما هو الآن أكثر من مرتين : وفيما يتعلق بالقس — فبعد عطف المرأة المنشود ليس هناك أحلى من دلائل ميل طفل إليك وتفضيله إياك بدافع غريزة روحانية محضة ، وهكذا يوحى إلينا بشىء يستحق الحب عن جدارة — تلفت القس حوله لحظة ووضع يده على رأس الطفلة ، وتردد لحظة أخرى ثم قبل جبهتها . ولـكن حالة « بورل » النفسية لم تستمر أطول من ذلك . فإنها ضحكت وقفزت راكضة إلى أقصى الردهة

بخفة متناهية حتى إن السيد « ويلسون » الهرم ساءل نفسه عن أطراف أصابع قدميها هل لامست الأرض أو لا . وقال للسيد « ديمسدال » :

— « أجزم أن تلك الطفلة ساحرة . . ولا تحتاج لمكنسة قديمة كى تمتطيها وتطير بها فى الجو كما تفعل الساحرات ! »

فعلق روجر شيلينجورث الهرم :

— إنها طفلة غريبة ، من السهل استجلاء ما ورثته عن أمها . فهل ياترى يصعب على فيلسوف أن يبحث وينقب فى أعماق طبيعة تلك الطفلة ويحلل القالب الذى صبت فيه ثم يتكهن بحذق وفطنة من يكون أباها ؟ .

فقال السيد « ويلسون » :

— « لا . . فسوف يكون من الإثم فى مسألة كتلك تتبع إرشاد الفلسفة المحضة . الأفضل أن تصوم وتصلى لتحل اللغز — بل ربما كان أفضل من كل ذلك ترك اللغز كما وجدناه حتى يكشف القدر عنه من تلقاء نفسه فعلى كل رجل مسيحى صالح أن يظهر عطفاً أبوياً على الطفلة المسكينة المهجورة ! » .

فلما انتهت تلك المشكلة النهاية المرضية ، رحلت « هيستر براين » ومعها « بورن » . ويقال إنه بينما كانت الطفلة وأمها تهبطان الدرج ، انفتحت نافذة إحدى الحجرات العليا على مصراعيها وأطلت منها السيدة هيبنز أخت الحاكم « بيلينجهام » ذات الخلق الحاد والتى نفذ فيها حكم

الإعدام بتهمة السحر بعد بضع سنوات ، فصاحت وهى تطل بوجهها القبيح المشئوم الذى ألقى ظلا قاتماً على بهجة البيت الجديد :

« إلىّ . . . يا « هيستر » ! هل تأتين معنا الليلة ؟ سوف نؤلف مجموعة مرحة فى الغابة . وقد وعدت الرجل الأسود (الشيطان) بأن تكون « هيستر براين . الجميلة معنا » .

فأجابتها « هيستر » بابتسامة ظافرة :

— هل لك أن تعتذرى له عنى ؟ لا بد أن أمكث فى البيت أرعى صغيرتى « بورل » ولو أنهم كانوا أخذوها منى لذهبت معك بكل رضا إلى الغابة ولكتبت اسمى فى سجل « الرجل الأسود » . . . وبدمائى ! .

فقالت الساحرة العجوز غاضبة وهى تتراجع برأسها :

— « ستكونين لنا عما قليل ! » .

أما إذا فرضنا أن ذلك الحديث الذى دار بين السيدة « هيبنز » وبين « هيستر براين » حقيقة وليس مجازاً ، فإنه يكون مثلا لدفاع القس الشاب ضد حرمان أم ساقطة من فلذة كبدها . فإن الطفلة بادرت مبكرة إلى إنقاذ أمها من فخ الشيطان .

الفصل التاسع

الطبيب

سيذكر القارىء أن تحت اسم « روجر شيلينجورث » كان يختفي اسم آخر قرر صاحبه ألا يعرف به أبداً . فقد قصصنا كيف أن بين الحشد الذى شهد خزى « هيستر براين » العلنى ، وقف رجل متقدم فى السن مجهد من السفر برز من البرية المحفوفة بالمخاطر من فوره فلمح المرأة التى أمل أن يجد دفء البيت وهناءته مجسمين فيها ، وقد نصبوها رمزاً للإثم . وهرست أقدام الرجال كلهم سمعتها الزوجية . وثرثر العار حولها فى ساحة السوق العامة . أما أهلها ورفاق فترة حياتها الطاهرة — إذا بلغتهم الأخبار يوماً — فسوف تصيبهم عدوى العار الذى سيوزع بدقة وبقدر على كل منهم وفق الرابطة الوثيقة التى تربطه بها . فلماذا إذن يتقدم الشخص الذى كانت تربطه بالمرأة الساقطة أوثق رابطة وأقدسها ويثبت حقه فى ميراث غير مرغوب فيه كهذا مادام الأمر بيده ؟ لقد قرر ألا يدعهم ينصبونه إلى جوارها فوق منصة عارها . ولما لم يكن يعرفه إلا « هيستر براين » وقد أصبح يمتلك فى شأن صمتها القفل والمفتاح ، فقد اختار أن يحذف اسمه من

قائمة الأحياء . أما فيما يختص بعلاقاته وشئونه السابقة فسوف يختفى من الحياة اختفاء تاماً كأنما يرقد حقاً فى قاع المحيط حيث ألقته الإشاعات . فما ينفذ غرضه هذا حتى تنشأ له علاقات جديدة وكذلك أهداف وأغراض أخرى جديدة — قائمة ومريبة حقاً إن لم تكن مجرمة ، لكنها قوية إلى حد أن تستحوذ على قدرته بأكملها .

ولكي يحقق غرضه هذا اتخذ له مقاماً فى بلدة « البيوريتانز » تحت اسم « روجر شيلينجورث » دون أى تعريف آخر غير علمه وذكائه اللذين يحوز منهما قدراً غير عادى . ولما كانت العلوم التى تلقاها فى فترة سابقة من حياته جعلته مطلعاً اطلاعاً واسعاً فى شئون الطب ، فقد قدم نفسه على أنه طبيب . وقوبل بترحاب لتلك الصفة فإن الرجال المهرة فى مهنة الطب والجراحة كانوا قلة نادرة فى المستعمرة لأن الحماسة الدينية التى جاءت بالمهاجرين عبر الأطلنطى قلما حفزت الأطباء أيضاً . فلعلهم . . . خلال البحوث والفحوص التى قام بها هؤلاء الرجال فى الهيكل الآدمى . . . قد انقلبت مواهبهم السامية الرقيقة إلى مادية مجسمة . فأضاعوا النظرة الروحانية إلى الحياة بين عقد تلك الآلة الرائعة التى لها من الفن ما جعلها تشمل الحياة كلها داخلها . على كل حال ، كانت الشئون الصحية الخاصة ببلدة « بوسطن » ذلك الوقت تحت رعاية شماس كنيسة طاعن فى السن وبائع عقاقير . وكان عطفها ومعاملتها الرحيمة شهادة فى صالح « روجر شيلينجورث » أقوى من كل إجازة علمية لو أنه أبرزها . كان الطبيب الوحيد لديهم يجمع بين ممارسة تلك المهنة النبيلة بين

آن وآن وبين مهنته الأصلية باعتباره حلاقاً . فكان «روجر شيلينجورث» كسباً لاسماً لهيئة علمية كهذه . وسرعان ما أظهر اطلاعه على أساليب الطب العتيقة المعقدة التى كان كل دواء فيها يحتوى على حشد وافر من عناصر مختلفة جيء بها من أمكنة سحيقة ، ثم تدق وتمزج بتأنق وإتقان كأنما النتيجة المرجوة هى إكسير الحياة نفسه . وعـلاوة على ذلك فخلال فترة أسره عند الهنود الحمر اكتسب علمـاً وافراً بخصائص الأعشاب والجذور المحلية . ولم يخف عن مرضاه أن تلك العقاقير البسيطة — هبة الطبيعة للمتوحش الجاهل — لها نصيب كبير من ثقته بنفسه كعلم الصيدلة سواء بسواء ، ذلك الذى أنفق الأطباء أجيالاً فى تهذيبه والرقى به .

وكان ذلك الغريب المثقف قدوة — فى الظاهر على الأقل — فيما يتعلق بحياته الدينية. فسرعان ما بادر حال وصوله إلى اتخاذ القس الجليل «ديمسدال» رائداً روحانياً له . وكان المعجبون والمتحمسون للقس الشاب — الذى لا يزال تفوقه فى علومه عالقاً بالأذهان فى أكسفورد — يعتبرونه رسولاً بعثته السماء ، لو قدر له أن يجاهد ويعيش العمر المكتوب له لأنجز أعمالاً عظيمة من أجل رفعة كنيسة « انجلترا الجديدة » الضعيفة الآن، كما جاهد الآباء الأوائل لمؤازرة الدين المسيحى إبان طفولته . وكانت صحـة السيد « ديمسدال » قد أخذت فى الانهيار حوالى تلك الفترة . وقال الذين يعرفونه معرفة وثيقة إن شحوب خده يعود إلى تعلقه الشديد الجاد بالدراسة وإلى أدائه واجبات أبرشيته أداء تاماً دقيقاً، ويعود أيضاً — وهذا أهم من كل

ذلك — إلى فترات الصوم الطويلة والتهجد المستمر فى عبادة وصلاة لا يني يؤديها كى يمنع كثافة المادة والجسد من إخفات مصباح روحه . وقال البعض الآخر إن السيد « ديسدال » إذا مات فذلك لأن هذه الدنيا لا تستحق بعد أن يطأها بقدميه ، على حين كان هو يؤكد بتواضعه المأثور أن القدر لو رأى الخير فى موته فذلك لأنه ليس جديراً أن يقوم برسالته المتواضعة هنا على هذه الأرض . وبرغم اختلاف الآراء فى أسباب انهيار صحته لم يكن هناك شك فى تدهورها فعلا ؛ هزل عوده ، وأما صوته فبرغم احتفاظه بقوته وطلاوته فإن نبرة حزينة تسللت إليه تنبىء باضمحلال وانهيار . ولاحظ الناس عليه أنه يضع يده فوق قلبه لأقل إزعاج أو لأتفه حادث ، على حين تندفع الدماء إلى وجهه ثم تغيض — دليل ألم بالغ .

كانت هذه حالة القس الشاب ، وقد تزايد الخوف من انطفاء فجر حياته قبل الأوان ، عندما حل « روجر شيلينجورث » بالبلدة . وكان بدء دخوله المشهد مشوباً بغموض ازداد حتى قرب من الإعجاز ، فلم يعرف إلا قليلون من أين أتى — هل هوى من السماء أو انشقت عنه الأرض . وقد اشتهر الآن بأنه رجل بارع يجمع الأعشاب والزهور البرية ويقتلع الغصون ويقتطف أزهاراً غضة من أشجار الغابة كأنه عليم بالمزايا الخفية فى الأشياء التى تبدو للعيان عديمة القيمة . وقد سمعه الناس يتحدث عن السير « كينيلم ديجبى » وغيره من مشهورى الرجال الذين حازوا مرتبة علمية خارقة — وكأنهم زاملوه أو راسلوه . لم جاء إلى هنا مادام من تلك الطبقة

الرفيعة فى دنيا الملوم ؟ وعلام يسعى فى البرية شخص مجاله فى المدن ؟
وجواباً عن ذلك التساؤل انتشرت إشاعة — حبذها بعض أناس ذوو رزانة — أن السماء أتت بمعجزة حين نقلت طبيباً شهيراً من جامعة ألمانية رفعت جسده فى الهواء رفعاً ثم أنزلته على عتبة مكتبة السيد « ديسدال »!
أما المؤمنون إيماناً أكثر حكمة وروية والذين يعلمون أن السماء تنفذ أغراضها دون وساطة المعجزات المسرحية ، فقد رأوا يد القدر فى وصول « روجر شيلينجورث » المناسب .

وقد أيد تلك الفكرة الاهتمام الشديد الذى أبداه الطبيب نحو القس الشاب . فقد قيد نفسه به كأنه أحد أفراد أبرشيته وسعى كى يتغلب على تحفظ القس الطبيعى الرزين ويحوز ثقته وصداقته . كان يبدى انزعاجاً شديداً لحالة قس كنيسته لكنه كان دائماً متلهفاً للقيام بعلاجه الذى إن أسعفه به أتى بنتائج طيبة . فيلح الكبار .. وشماسو كنيسته .. والأمهات والصبايا الملاح — أفراد جمهور « ديسدال » — يلحون عليه إلحاحاً شديداً متصلاً كى يعرض نفسه على الطبيب المحنك البارع .

فيصد تضرعهم مترفقاً ويقول :

— « لست بحاجة إلى دواء ! »

ولكن كيف يقول القس الشاب ذلك وخده يزداد شحوباً وهزالاً بمرور الأيام ، وصوته يزداد اختلاجاً عن ذى قبل ، وقد صارت عادة دائمة لديه لا حركة طارئة أن يضغط قلبه بيده ؟ هل ترهقه جهوده ؟ هل يتمنى

الموت ؟ وقد سأله تلك الأسئلة قسس مدينة «بوسطن» الذين يكبرونه سنا وشماسو كنيسته الذين حاوروه — وهذا تمييزهم الخاص — فى شأن الذنب الذى يقترفه برفض معونة السماء التى تبسطها له . فأنصت لهم فى صمت ثم وعدهم باستشارة الطبيب .

وقال السيد « ديمسدال » للطبيب الشيخ « روجر شيلينجورث » عندما ذهب إليه على حسب وعده أن يستشيره :

— « سوف أرضى إذا كان أمر الله أن أنتهى وتنتهى معى جهودى .. وأحزانى .. وآثامى .. وآلامى . تدفن معى فى قبرى وتذهب روحى إلى الخلد . فلا داعى أن تثبت مهارتك فى خدمتى !. »

فأجاب « روجر شيلنجورث » بهدوء سواء أكان طبيعياً أم متصنعاً فهو هدوء الذى يميز سلوكه كله :

— « هكذا ينتظر من قس شاب أن يتحدث . فالشبان يتنزلون بسهولة عن الحياة لأن جذورهم لم تتغلغل بعد فى أعماقها . أما الرجال الأتقياء الذين يسيرون مع الله على الأرض ، فإنهم يتوقون إلى الذهاب إليه ليسيروا معه فى السماء ! »

فأجاب القس الشاب وهو يضع يده على قلبه وقد غشيت جبهته موجة ألم :

— « لا . فلو أننى كنت جديراً بالسير هناك لرضيت بالجهاد هنا ! »

فقال الطبيب :

— « هكذا الرجال الصالحون ... يبخسون قدر أنفسهم أبداً ! »

وهكذا صار « روجر شيلينجورث » الشيخ الغامض مستشاراً للسيد « ديمسدال » الطبي . ولما لم يكن المرض وحده هو الذى يستهوى الطبيب بل إنه أراد تحليل نفسية المريض وشخصيته ، فإنه بمرور الزمن أضحى الرجلان اللذان يختلفان فى العمر اختلافا بيناً يمضيان أوقاتاً كثيراً معاً . سارا مسافات ومسافات على شاطىء البحر أو فى الغابة — من أجل صحة القس .. ولكى يتيسر للطبيب جمع أعشاب طبية . كانا يمزجان أحاديث مختلفة بهدير الأمواج أو بنشيد الرياح الذى تعزفه فوق رءوس الأشجار . كما أنهما كثيراً ما تبادلا الزيارات سواء فى مكتبة كل منهما أو فى داره ؛ كان القس يشعر بانجذاب وهو فى صحبة رجل العلم وقد وجد فيه ثقافة ذهنية أفضل من المستوى العام فى الأفق والعمق ، وسلسلة من الأفكار المتحررة التى كان سيبحث عنهما سدى بين رفقاء مهنته . وقد دهش ، بل صعق فى الحقيقة عندما عثر على تلك الميزة فى الطبيب . فالسيد « ديمسدال » كان قساً صادقاً .. ورجل دين صادقاً .. يملؤه شعور عميق ناضج بالرهبة والإجلال ، له عقل يفرض بقوة على نفسه التمسك بعقيدة ويسير عليها ويتعمق فيها يوماً بعد يوم . لا يمكن أن يسمى فى أى مجتمع بأنه رجل « ذو ميول متحررة » ، فكان من الضرورى لهدوء نفسه أن يشعر دواماً بضغط إيمان ما عليه يشد أزره ويسجنه فى الوقت عينه داخل قفصه

الحديدى . ومع ذلك كان يشعر بسعادة مختلجة، فى الفينة بعد الفينة ، عندما ينظر إلى العالم خلال وسيط ذهنى آخر غير الذى اعتاد أن يبادله الحديث كأنما انفتح شباك على مصراعيه ليدخل هواء طلق مرح إلى المكتبة المغلقة الخانقة حيث يبـذر حياته بين ضوء المصابيح .. وشعاعات النهار السقيمة .. والرائحة العفنة التى تنبعث من الكتب — سواء أكانت حسية أم معنوية . ولكن ذلك الهواء كان منعشاً ومثلجاً أكثر مما يستطيع استنشاقه براحة . فسرعان ما يتقهقر القس وصديقه الطبيب ثانية ويلزمان الحدود التي أقرتها كنيستهما .

وهكذا راح « روجر شيلينجورث » يرقب مريضه بدقة كما يراه فى حياته العادية وبينهما طريق مألوف من أفكار مألوفة لكليهما ، وكما يبدو عندما يوضع فى مشهد خلقى آخر قد تجعل جدته شيئاً جديداً يطفو على سطح أخلاقه . كان يعتقد أن معرفته للرجل أمر جوهرى قبل أن يحاول خدمته . فأينما كان هناك « قلب » و « ذكاء » فأمراض البدن كلها تصطبغ بخصائص هذين . ففى « أرثر ديمسدال » كان الفكر والخيال فى غاية من النشاط، كما كانت الحساسية فى غاية من العمق والتركيز حتى إن ضعف بدنه وسقمه يعودان حتماً إلى تلك الأسباب . فحاول « رجر شيلينجورث » الرجل الماهر والطبيب الحنون الصديق أن يغوص فى أعماق قلب مريضه . . . وينبش فى مثله العليا . . . ويدس أنفه فى ذكرياته . . . ويلمس كل شيء بحذر — كالباحث عن كنز فى جب

مظلم . فأسرار قليلة تلك التى تفلت من باحث منقب لديه الفرصة والإذن ليبحث وينقب، كما أن له المهارة أيضا ليواصل جهده . فالرجل الذى يثقل كاهله سر يجب على وجه خاص أن يتجنب صداقة طبيبه . فإذا كانت لدى هذا الطبيب فطنة فطرية وشىء آخر مبهم لا يسمى — ولندعه « قوة بديهة » — ثم إذا هو لم يظهر أنانية متطفلة ولا غيرها من صفاته غير المستحبة ، ثم إذا كانت لديه القدرة (التى لا بد أن تولد معه) على توثيق العلاقة بين عقله وعقل مريضه إلى حد يجعل المريض يتحدث دون وعى عما يظن أنه دار بخلده وحسب ، ثم إذا أفضى المريض بتلك التصريحات لطبيبه فى غير نضال وأجيب عنها لا بتعبير عطف بل بصمت . . . أو بتنهدة ... أو بكلمة واحدة هنا أو هناك دليل استيعاب أقواله كلها ، ثم إذا أضيفت إلى صفات المستمع هـذه صفة الطبيب ، فحينئذ . . وفى لحظة ما لا بد منها .. ستذوب حتما روح المتألم المعذب وتسيل رقراقة فى جدول مظلم منهمر لـكنه شفاف ، وتـكشف الروح عن خفاياها وأسرارها فى وضح النهار .

وكانت لدى « روجر شيلينجورث » الصفات المـذكورة كلها أو معظمها . ومرّ الزمن . ونشأت صـداقة ما وثيقة — كما قلنا — بين هذين العقلين المثقفين اللذين كان أمامهما أفق التفـكير والعلم البشرى كله ليلتقيا فيه . فتناقشا فى كل موضوع يتعلق بعلم الأخلاق . . . والدين . . . والشئون العامة ... والخلق الخاص . تـكلما كثيراً .. كلاهما .. فى أمور

شخصية تختص بكل منهما ، ومع ذلك لم يفلت قط إلى أذن الطبيب السر الذى كان يوقن بوجوده فى أعماق ضمير زميله . حتى إن الشكوك كانت تملأ صدر الطبيب فى أن مرض « ديمسدال » الجسدى لم يتكشف له بعد تماماً . يا له من تحفظ غريب !

وبعد وقت قصير . وبإيحاء من « روجر شيلينجورث » نظم أصدقاء « ديمسدال » الأمور بحيث صار الطبيب يعيش فى بيت واحد مع مريضه حتى ترقب عين الطبيب المتلهف المحب أى مد وجزر لمجرى الحوادث فى حياة القس . وقد سر جميع أهل البلدة عندما بلغهم ذلك النبأ الذى طالما تمنوه واعتبروه خيراً عظيما لرجل الكنيسة الشاب ، إلا إذا عمل بمشورة أولى الشأن الذين طالما ألحوا عليه — واختار إحدى الصبايا اليانعات اللائى يترددن على كنيسته واللائى يتعلقن به تعلقاً روحياً ، وتزوجها . ولكن لم تبدر من « أرثر ديمسدال » أية بادرة تدل على نيته لاتخاذ تلك الخطوة ، ورفض كل اقتراح يتعلق بهذا الشأن كأنما العزوبة من شروط آداب الكنيسة . فحكم « ديمسدال » على نفسه باختياره أن يأكل لقمته غير السائغة على مائدة شخص آخر وأن يتحمل البرودة الدائمة دوام العمر تلك التى هى من نصيب الذى يسعى إلى تدفئة نفسه بجوار مدفأة غيره . ولهذا بدا ذلك الطبيب الشيخ الطيب الفطن المحنك خير رجل بين الرجال جميعاً ليكون دائماً بقربه .

واختار الصديقان لسكناهما بيت أرملة تقية ذات مكانة محترمة ، تعيش

فى دار تشغل تقريباً كل المساحة التى أقيم عليها فيما بعد المبنى الجليل المهيب المسمى « كنيسة الملك » . وكانت تقع إلى جوار تلك الدار المقبرة التى كانت بادىء بدء حقل « اسحق نيوتون » . وبذلك تهيأ الجو لتفكير عميق يليق بمهنة كل من الصديقين : القس والطبيب . وقد خصت الأرملة الرءوم « ديمسدال » بشقة فى صدر الدار معرضة للشمس ولنوافذها ستائر ثقال تهيىء له ظلا ظليلا وقت الظهيرة — كلما شاء . وقد اختفت الجدران تحت طنافس معلقة يقال إنها من نسج بلدة « جوبلن » ، نقشت عليها قصة النبي « داود » وملكة سبأ والنبى « ناثان » بالألوان التى لم تنصل بعد وإن أحالت المرأة الجميلة فى المشهد إلى شىء متجهم شديد الشبه بعرافة شرسة تنذر وتهدد بالويل والثبور . فى تلك الشقة إذن جاء القس الشاحب بمكتبته التى تتكون من سجلات مغلفة من عهد الآباء الأوائل .. وحكمة الحاخامات وأساطيرهم .. وعلوم الرهبان التى اضطر قادة « البروتستانت » إلى الاستفادة منها برغم مهاجمتهم لتلك الطبقة من الكتاب وطعنهم فيهم . وأقام « روجر شيلينجورث » فى الجناح الآخر من البيت حيث نظم مكتبته ومعمله — ولم يكن معملا كاملا من وجهة نظر عالم فى عهدنا الحديث ، لكنه يحتوى على جهاز تقطير وهاون اصحن العقاقير والمواد الكيموية التى كان الكيموى القدير يلم بكيفية إعدادها إلماماً تاماً . على هذا النظام أقام كل من الصديقين المثقفين فى مملكته وإن راح يزور كل منهما الآخر فى شقته بلا كلفة ويبادله تفقداً ودياً لأحواله .

فخيل — بحق — لأصدقاء القس الجليل « أرثر ديسدال » أن يد القدر هى التى نظمت كل هذا كى يسترد القس الشاب صحته استجابة للدعاء المتصاعد سراً وعلانية . . من الجوع ومن البيوت . ولكن آن الأوان كى نقول إن جانباً من مجتمع المستعمرة بدأ أخيراً يفصح عن وجهة نظره فى العلاقة القائمة بين السيد «ديسدال» والطبيب الشيخ الغامض . وعندما يحاول حشد غير مثقف أن يرى بعينيه ، يتعرض تعرضاً خطيراً للزلل والخديعة . ومع ذلك ، عندما يصدر ذلك الحشد حكمه المبنى على فطنة قلبه الكبير الحار ، تأتى النتائج فى أكثر الأحيان عميقة صادقة تكاد تكون مطابقة للحقيقة لدرجة غير طبيعية . ولكن الناس ، فى حالة « روجر شيلينجورث » لم يستطيعوا أن يبرروا تحاملهم عليه بواقعة أو حجة قوية تستأهل النفى الجاد أوالنقض . وكان منهم صانع هرم عاش حقبة فى « لندن » إبان الفترة التى قتل فيها « سير توماس أوفربرى » منذ ثلاثين عاماً ، شهد أنه رأى الطبيب مسمى باسم آخر — نسيه الراوى الآن — فى صحبة الساحر الشهير «دكتور فورمان» الذى أقحم فى قضية مقتل « أوفربرى » كما عمد شخصان أو ثلاثة إلى التلميح بأن رجل الطب البارع زاد معلوماته الطبية خلال فترة أسره لدى الهنود الحمر بالاشتراك مع قساوستهم المتوحشين فى تعاويذهم ورقاهم — قساوستهم ذوى الشهرة العالمية فى السحر الذين طالما شفوا أمراضاً بما يشبه المعجزة لفرط براعتهم فى الفن الأسود . وقال عدد آخر من الناس — أشخاص ذوو رصانة وقوة ملاحظة تعتبر آراؤهم

ذات قيمة فى الأمور الأخرى — أكد هؤلاء أن هيئة « روجر شيلينجورث » تغيرت تغيراً واضحاً منذ حل بالبلدة ، وخاصة منذ شارك السيد « ديمسدال » السكن . كان تعبير وجهه بادىء بدء هادئاً مفكراً كتعبير عالم متبحر . أما الآن فقد كسا سحنته قبح وشر — لم يفطنوا لهما من قبل — يزدادان على مر الأيام كلما تفرس فيه إنسان . وسرت إشاعة بين العامة أنه جلب النار التى يستعملها فى معمله من المناطق السفلى وأنه يغذيها بوقود من الجحيم ، فلذلك — وكما هو منتظر — غشّى سحنته سواد دخانها .

خلاصة القول ، أنه قد تشعب الرأى السائد فى أن القس الوقور « أرثر ديمسدال » — كأمثاله من ذوى التقوى والورع فى جميع بلاد العالم المسيحى — مطارد أبداً إما من الشيطان نفسه أو من أحد معاونيه متخفياً فى صورة « روجر شيلينجورث » الهرم . وقد حاز هذا الرسول الشيطانى إذناً سماوياً لفترة ما كى يحفر لنفسه طريقاً ينفذ منه إلى صداقة رجل الكنيسة ويعمل على هدم روحه . ولم يكن هناك رجل عاقل يشك فى انتصار القس الذى توقعوا بإيمان لم يهتز قط أن يروه خارجاً من ذلك النضال تحف به هالة المجد الذى هو لابد حائزه . ومع ذلك . . وخلال تلك الفترة كان من المحزن أن يفكر المرء فى العذاب النفسانى الذى ربما يقاسيه القس وهو يناضل من أجل انتصاره النهائى .

واحسرتاه ! إننا إذا حكمنا على ضوء الرعب والكآبة اللذين يملآن أعماق عينى القس المسكين لتبينا أن هذا النضال مرير . . وأن النصر ليس مؤكداً .

الفصل العاشر

الطبيب ومريضه

كان « روجر شيلينجورث » الشيخ خلال حياته كلها هادىء الطبع يفيض حناناً ، وإن لم يكن حار العواطف فى كل علاقاته بالدنيا . وكان كذلك رجلا ذا طهر وصلاح . وقد بدأ تحرياته — كما خيل له — بتلك الصرامة والعدالة اللتين يتسم بهما القاضى إذ يسعى وراء الحق وحسب ، كأنما المسألة المطروحة للبحث ليست إلا خطوطاً وأشكالاً هندسية لا عواطف بشرية وإساءة ألحقت به . ولكنه أثناء مضيه فى التحرى تملكه انجذاب رهيب عنيف ، لكنه هادىء — انجذاب أضحى حاجة ملحة تمكنت من الرجل الهرم ولم يستطع منها فكاكاً ، حتى فعل كل ماأوعزت إليه به . فراح الآن يحفر فى قلب القس المسكين كصاحب منجم ينقب عن ذهب — أو كأنه خادم كنيسة ينبش قبراً وهو يجد فى البحث عن جوهرة دفنت فى صدر رجل ميت ، بيد أنه فى أغلب الظن لن يجد إلا موتاً وعفناً .. واحسرتاه على روحه ... إن كان هذا سبب بحثه وتنقيبه!

وكانت عينا الطبيب تبرقان أحياناً بنور أزرق مشئوم ينذر بالويل كأنه انعكاس فرن، أو دعونا نقل إنه يشبه ومضة تلك النار المخيفة التى انبعثت

من عتبة الباب الراعبة فوق التل وارتمشت على وجه الحاج — كوصف « بنيان » فى روايته الشهيرة « رحلة الحجاج » — فربما أظهرت التربة التى ينقب فيها الحفار الأسمر ملامات طيبة شجعته .

قال لنفسه ذات مرة فى إحدى حالاته تلك :

— « إن هذا الرجل الذى يظنونه مثال الطهر والقدسية قد ورث طبيعة حيوانية شهوانية عن أبيه أو عن أمه . فلنحفر إلى عمق أبعد من هذا العمق ! » .

ويكب باحثاً منقباً فى أعماق القس السحيقة المظلمة ويكشف عن عناصر ثمينة فى صورة آمال رفيعة لخير جيله ، وحب حار للأرواح . . وعواطف طاهرة . . ونقول إنها طبيعية قوّاها التأمل والدرس وأنارها الوحى — ذهب لا يقدر بثمن لـكنه فى نظر الباحث المنقب لا يزيد عن كونه نفايات لا قيمة لها . فيعود أدراجه حيث كان ويستأنف وهدفه نقطة أخرى . تسلل متلصصاً بخطوة حذرة ونظرة حريصة يقظة كلص داخل إلى حجرة يستلقى فيها رجل نصف نائم — أو لعله مستيقظ تمام اليقظة — ليسرق نفس الـكنز الذى يحرسه هذا الرجل كحبة عينه . وبرغم حرصه وحذره المبيت تفرقع الأرض بين حين وحين ، أو تخشخش ثيابه ... أو يرتمى ظله عند ما يقترب اقتراباً محرماً على ضحيته . ويقول آخر ، كان السيد « ديمسدال » ذو الحساسية المرهفة التى تتحول إلى فطنة روحية يشعر بأن شيئاً معادياً لراحته وسلامته أقحم نفسه عليه . ولـكن « روجر

شيلينجورث » الهرم كان له أيضاً إدراك حساس يقرب من الفطنة والبديهة . فكلما نظر القس بعينيه المذعورتين ألفى الطبيب يجلس فى هدوء صديقه الحنون الساهر على راحته ، لكنه لا يقحم نفسه عليه أبداً .

ومع ذلك فربما كان فى وسع السيد « ديمسدال » أن يكتشف حقيقة أخلاق هذا الشخص لو لم يكن به السقم الذى يصيب القلوب العليلة ، ذلك الذى جعله لا يثق بالبشرية كلها . فلما لم يعد يثق بإنسان على أنه صديق ، لم يستطع أن يميز عدوه عند ما ظهر فعلاً فى حياته ذلك العدو . وعلى ذلك راح يستقبل الطبيب الشيخ كل يوم فى مكتبه ، أو يذهب هو لزيارته فى معمله ويتسلى بملاحظته وهو يحول الأعشاب إلى عقاقير .

وذات يوم أسند جبهته إلى يده وذراعه إلى قاعدة الشباك المفتوح الذى يطل على المقبرة ، وراح يتحدث إلى « روجر شيلينجورث » . كان الرجل الهرم يتأمل حزمة أعشاب قبيحة المنظر . فسأله وهو يحدجه بمؤخر عينه — إذ اعتاد القس الآن ألا يواجه شيئاً أو إنساناً بنظرة مستقيمة إلا فى النادر — سأله :

— « من أين جمعت يا طبيبي الرحيم تلك الأعشاب ذات الأوراق السوداء الرخوة ؟ » .

فأجاب الطبيب وهو منهمك فى عمله :

— من المقبرة ... هنا . إنها أعشاب جديدة لدى . وجدتها تنمو على قبر لا شاهد له ولا أى نصب تذكارى للرجل الميت سوى هذه الأعشاب

القبيحة التى أخذت على عاتقها تذكير الناس به ، لقد نمت خارجه من أعماق قلبه ، وهى ربما ترمز إلى سر فظيع دفن معه كان خيراً له أن يعترف به فى حياته ! .

فقال السيد « ديمسدال » :

— ربما كان يرغب فى ذلك صادقاً ، ولـكنه لم يستطع ! .

فأجابه الطبيب :

— ولماذا ؟ لماذا لم يستطع — مادامت كل قوى الطبيعة تنادى بحرارة للاعتراف بالإثم حتى لاتنبثق تلك الأعشاب السوداء من باطن قلب مدفون لتشهد على جريمة خفية ؟ .

فأجاب القس :

— ماهذا ياسيدى الطبيب إلا تصوير خيالك ، فليس هناك قوة ، إذا كنت أستطيع أن أجزم بحق ، لم يأذن لها المولى أن تـكشف — سواء بكلمات ملفوظة أو بشكل أو برمز — تلك الأسرار الدفينة فى قلب بشرى ؛ فالقلب الذى أجرم فى حق نفسه بحفظه تلك الأسرار وجب عليه حفظها حتى اليوم الذى تنـكشف فيه كل الأشياء المخبأة . وقد تلوت الـكتاب المقدس فلم أفهم منه ولا أنا فسرته على أن الاعتراف بالأعمال والأفكار البشرية جزء من التفـكير . فتلك دون شك نظرة سطحية إلى الموضوع . لا . فالغرض من الاعتراف — إن لم أكن على خطأ مبين — هو الرقى بالسعادة الذهنية للناس ذوى الفهم والإدراك جميعاً . أولئك الذين سيقفون فى اليوم

الموعود منتظرين أن يروا مشكلة الحياة الغامضة تتكشف لهم . فمعرفة قلوب الرجال شيء هام لحل تلك المشكلة حلا تاماً ، وفوق ذلك فإنى أعتقد أن القلوب المنطوية على أسرار بائسة كالتى تتحدث عنها ستعترف بها يومئذ — يوم القيامة — لا مكرهة بل بسعادة لا تقدر ! .

فتساءل « روجرشيلينجورث » وهو يختلس نظرة جانبية بهدوء إلى القس :

— « إذن لماذا لا يعترفون بها هنا ؟ لماذا لا يسارع المذنبون إلى نيل تلك السعادة التى لا تقدر ؟ » .

فقال القس وهو يضغط صدره بقوة كأنما أصابته نوبة ألم بالغ :

— « معظمهم يعترفون . فكم من روح بائسة وضعت ثقتها فىّ واعترفت لى بما يعضها لا على فراش الموت فحسب بل فى عنفوان صحتها وحياتها أيضاً وهى متمتعة بسمعة طيبة . وكنت ألحظ دائماً بعد اعتراف منهم كهذا راحة قصوى فى عيون هؤلاء الإخوة الخاطئين ، كأنما يستنشق كل منهم هواء طلقاً بعد أن كاد يختنق بأنفاسه العفنة الراكدة ! فكيف يكون الأمر على خلاف ذلك ؟ لماذا يؤثر قاتل بائس مثلا أن يدفن الجثة فى قلبه على أن يطوح بها من فوره ، ويدع العالم يحمل همها ؟ »

فعلق الطبيب بهدوء :

— ومع ذلك فبعض الرجال يدفنون أسرارهم بتلك الطريقة !

فأجاب السيد « ديمسدال » :

— حقاً هناك رجال كهؤلاء فعلا . ولكن بخلاف الأسباب الجوهرية تجبرهم طبيعة تكوينهم على الصمت . أو ربما كانوا — ألا نستطيع أن نفرض ؟ — برغم ذنبهم لا يزالون يحتفظون بحماستهم لتمجيد الله ولخير إخوانهم البشر فيرتعدون من الكشف عن أنفسهم وظهورهم ملطخين بالعار تحت أنظار الرجال . إذ بعد ذلك لن يرجى منهم عمل صالح ، ولن يمحو إسداء الخدمات الجليلة المستقبلة إثم الماضى . لذلك يعيشون معذبين بين إخوانهم البشر وعليهم سيما الطهر الناصع كالثلج المتساقط ، على حين يلطخ قلوبهم إثم لايملكون منه خلاصا !

فقال « روجر شيلينجورث » بحماسة غير عادية وهو يلوح بإصبعه فى حركة خفيفة :

— « إن هؤلاء الرجال يخدعون أنفسهم . فهم يخشون حمل العار الذى يستحقونه . فحبهم للبشر وحماستهم فى خدمة الله — وقد يوجد هذان الدافعان المقدسان أو لا يوجدان — يقفان جنباً إلى جنب مع دوافع الشر التى فتح لها إثمهم الباب ، ولا شك فى أنه يتوالد منها نسل شيطانى أثيم . ولكن إذا كانوا حقاً يمجدون الله فدعهم لا يرفعوا إليه أيديهم الملوثة ! وإذا كانوا يبتغون خدمة إخوانهم من بنى البشر فليفعلوا ذلك بإثبات الضمير الإنسانى وقوته التى دفعتهم إلى تحقير أنفسهم عقاباً وتكفيراً . أتريدنى يا صديقى الحكيم أن أصدق أن تصنع الطهر خير لتمجيد الله وخدمة البشرية من الجهر بالحقيقة ؟ صدقنى ، هؤلاء الرجال يخدعون أنفسهم ! » .

فقال القس الشاب بلا مبالاة كأنما يطرد مناقشة يعتبرها هو غير متماسكة وفى غير أوانها :

— « ربما كان الأمر كذلك ! » .

كانت لديه بلا شك القدرة على الهرب من أى موضوع يمس حساسيته ويثير أعصابه المرهفة ، فاستطرد قائلا :

— « والآن أريد أن أسأل طبيبى البارع : هل يظننى قد أفدت من عنايته الكريمة التى أسبغها على جسدى الواهن هذا ؟ » .

وقبل أن يجيبه « روجر شيلينجورث » بلغ سمعهما ضحك صاف حاد آت من ناحية المقبرة ، ينطلق به صوت طفلة صغيرة ، فلما نظر القس بغريزته من الشباك المفتوح — إذ كان الوقت صيفاً — لمح « هيستر براين » و « بورل » الصغيرة يتقدمان عبر الممر الذى يخترق السور . وبدت « بورل » الصغيرة جميلة كيوم مشرق ، لكنها كانت فى إحدى حالاتها النفسية المرحة الشاذة التى كلما تملكتها أخرجتها إخراجاً تاماً من دائرة الحنان أو الاتصال بالبشر . فراحت تقفز بلا احترام ولا تبجيل من قبر إلى آخر حتى وصلت إلى قبر عريض مسطح لشخصية ذات مكانة — ربما كانت شخصية « إسحاق جونسون » نفسه — فجعلت ترقص فوقه ، ولما أمرتها أمها مرة ورجتها مرة أن تسلك سلوكا لائقاً ، أكبت تقتطف ثمراً شائكا لشجرة تنمو ملاصقة للقبر . اقتطفت ملء حفنتيها منه ، ثم هرولت إلى أمها ورشقته حول الشارة القرمزية المطرزة على صدرها ، فالتصق الثمر الشائك بها ، فتركته « هيستر براين » ولم تزله عنها .

وكان « روجر شيلينجورث » قد اقترب من النافذة وراح يبتسم في كآبة .

فعلق بقوله كأنما يسر به إلى نفسه وإلى رفيقه أيضاً :

— « ليس في تكوين هذه الطفلة أي قانون ما ، ولا أي احترام لسلطة ما ، ولا أي اعتبار لآراء البشر وشرائعهم ، ولا اعتبار لخطأ أو صواب . لقد رأيتها مرة تلوث ثياب الحاكم نفسه برذاذ الماء الذي تشرب منه البهائم في « سبرنج لين » . ما هي تلك الطفلة ، بحق السماء ؟ هل تلك الجنية شر خالص ؟ ألديها مشاعر ؟ ألديها أي مبدأ في شأن وجودها ؟ »

فأجاب السيد « ديمسدال » بهدوء كأنما كان يناقش نفسه في الأمر :

— « لا .. ليس لديها أي مبدأ — إلا الحرية التي هيأها لها الخروج عن القانون . أما فيما يتعلق بقدرتها على عمل أي خير ، فلا أعرف عن ذلك شيئاً ! » .

ولا بد أن الطفلة سمعت صوتيهما ، لأنها رفعت بصرها إلى النافذة بابتسامة مشرقة لكنها ماكرة تفيض بمرح وذكاء . ثم قذفت السيد الجليل « ديمسدال » بإحدى الثمرات الشائكة ، فتراجع القس المرهف متطيراً ، وقد أثارته تلك الضربة الخفيفة . فلما لحظت « بورل » الصغيرة شعوره صفقت بيديها بنشوة مبالغ فيها كما زفمت « هيستر براين » بصرها هي الأخرى إليهما ، وراح هؤلاء الأربعة صغاراً وكباراً يتبادلون النظرات في صمت ، حتى ضحكت الطفلة بصوت عال وصاحت :

— « هيا يا أمى ، وإلا أمسك بك ذلك الرجل الأسود . لقد أوقع القس بين قبضتيه — فتعالى ياأمى وإلا أمسك بك — لـكنه لن يستطيع اللحاق بالصغيرة « بورل » ! .

وهكذا جذبت أمها بعيـداً وهى تقفز وتتراقص وتتواثب فى نزوة واندفاع بين قبور الموتى ، كأنها مخلوقة مختلفة تمام الاختلاف عن جيل مات ودفن ، ولا تعتبر نفسها تمت بصلة القربى إليه . بدت كأنها أنشئت إنشاء من عناصر جديدة . وعلى هذا يجب أن يسمح لها بأن تحيا حياتها الخاصة كما يحلو لها دون قانون إلا قانونها هى ، ودون أن تعتبر شذوذها جريمة .

واستطرد « روجر شيلينجورث » بعد فترة صمت :

— « هاهى ذى امرأة مهمـــا كانت عيوبها فإنها تخفى إثماً يعضها ويضنيها كما تؤكد أنت فى شأن الآثام الخفية. هل تظن أن «هيستر براين» أقل إثماً لأن هذه الشارة القرمزية معلقة على صدرها ؟ .

فأجاب القس :

« أعتقد ذلك يقيناً . ومع ذلك فلا يمـكننى الإجابة عنها . فقد غشيت وجهها مسحة ألم كان يسعدنى ألا ألمحها . ولـكن مع ذلك أعتقد أن من الخير لإنسان معذب أن يكون حراً ليظهر ألمه — كما هى حال تلك المرأة المسكينة « هيستر » — لا أن يخفيه فى قلبه ؟ ».

ومرت فترة صمت أخرى راح الطبيب خلالها يفحص الأعشاب التى جمعها وينظمها ، وأخيراً قال :

— « لقد سألتنى منذ هنيهة عن رأيى فى صحتك ! » .

فأجاب القس :

— « نعم . . سألتك . . . ويسعدنى أن أسمع رأيك . تكلم بصراحة . . أرجوك . . . سواء كان حكما بموتى أو حياتى ! » .

فقال الطبيب وهو ما زال مشغولاً بعد بأعشابه ، ولكن بنظرة يقظة ألقاها على السيد « ديمسدال » :

— « إذن رأيى بصراحة ووضوح هو أن اضطراب صحتك غريب للغاية ، لا فى ذاته . . ولا فى ظواهره ، ولكن فى العلامات والعوارض التى تكشفت لى . فبالنظر إليك كل يوم يا سيدى الصالح ، وملاحظة هيئتك وتقلباتها وما يعتريها من تغير خلال شهور مضت ، يمكننى الآن أن أقول إنك رجل مريض جداً ، إلا أنه ليس مرضاً بحيث ييأس منه طبيب محنك يقظ . ولكن — لا أدرى ماذا أقول ؟ — ولكن مرضك هو ما أعتقد أننى أعرفه . . وإن كنت لم أعرفه بعد ! » .

فقال القس الشاحب وهو يختلس نظرة جانبية من النافذة المفتوحة :

— « إنك تتكلم بألغاز يا سيدى العالم » .

فاستطرد الطبيب :

— « إذن لأكن أكثر وضوحاً ! سأطلب مغفرتك ياسيدى إذا استدعى الأمر أن تغفر لى تلك الصراحة التى سأتحدث بها . دعنى أسألك بوصفى صديقاً . . . بوصفى مسئولاً عنك . . . أمام القدر . . . عن حياتك

وصحتك . قل لى ، هل أوضحت أنت لى بصراحة كل الأسباب التى أدت ألى اضطراب صحتك هكذا ؟ » .

فسأله القس :

— « كيف تسألنى ؟ كيف تشك فى ذلك ؟ أألهو أنا حتى أستدعى طبيباً ثم أخفى عنه العلة ؟ » .

فقال « روجرشيلنجورث » وهو يثبت عن عمد عيناً ثاقبة تبرق بذكاء متوهج حاد على وجه القس :

— « أتعنى أننى أعرف كل شيء ؟ فليكن . ولكن مرة أخرى .. دعنى أقل لك إن الذى يتكشف له أذى البدن الظاهر وحسب إنما يعرف نصف العلة التى عليه أن يشفى منها المريض . فمرض الجسد الذى نعده قائماً بذاته ما هو إلا علامة لمرض نفسانى . إنى أطلب عفوك مرة أخرى ياسيدى الطبيب إذا كان لحديثى رنة التحدى . إنك ياسيدى دون من عرفت من الرجال جميعاً ، لك جسد متحد مع روحك ملازم لها بل منغمس فيها ، مشبع بها — جسد هو أداة فى يد الروح . »

فقال القس وهو ينهض عن كرسيه بسرعة ولهفة فيما يبدو :

— « إذن لا داعى لأن أسترسل فى سؤالك . فأنت رجل لا شأن لك بدواء النفس على ما أعتقد ! »

فاستطرد «روجرشيلينجورث» يتم حديثه بالنبرة عينها دون أن يكترث بالمقاطعة :

— « وهكذا أى علة ... »

ثم وقف يواجه القس الشاحب العليل بقامته القميئة المشوهة القائمة : وهكذا أى علة أوجرح غض — إذا سميناه كذلك — فى أعماق روحك ينكشف من فوره فى ظواهر ملائمة على جسدك . أترغب إذن أن يشفى طبيبك علتك البدنية ؟ كيف يتسنى له ذلك قبل أن تكشف له عن جرح روحك أو سبب اضطرابها ؟ .

فصاح السيد « ديمسدال » بحرارة .

وأدار عينيه البراقتين بفرط قوتهما وبشئ من العنف على « روجر شيلينجورث » الهرم :

— « لا .. ليس لك ولكن إذا كان ما بى علة نفسية فسوف أضع نفسى بين طبيب الأرواح الأوحد ! وهو وحده القادر على شفائى إذا ما أراد ! أو على قتلى ! دعه يفعل بى ما يشاء ، وما يرى بعدله وحكمته أنه خير ! ولكن من أنت حتى تتدخل فى تلك المسألة ؟ — تقحم نفسك بين العبد المعذب وبين ربه ؟ »

وبحركة حانقة ، اندفع خارجاً من الحجرة .

فقال « روجر شيلينجورث » لنفسه وهو ينظر خلف القس بابتسامة رصينة : « كان من الضرورى اتخاذ تلك الخطوة . لم أضع شيئاً . سنعود صديقين حالاً . ولكن انظر كيف ينفعل هذا الرجل بسرعة وعنف حتى يخرج عن طوره ! وكما ينفعل بشعور ينفعل بآخر ! لقد أتى أمراً طائشاً قبل الآن .. هذا التقى الورع « ديمسدال » فى نزوة من نزوات قلبه الحار ! »

وعادت صداقة الرجلين كما كانت بسهولة ، وبالدرجة نفسها وعلى المستوى عينه . فقد تبين القس الشاب بعد بضع ساعات من العزلة أن اضطراب أعصابه دفعه إلى ثورة غير لائقة بلا داع ، فلم يكن فى كلمات الطبيب مسوغ لتلك الثورة . وتعجب من العنف الذى صد به الرجل الهرم الحنون الذى لم يفعل أكثر من إسداء نصيحة مفروض أن يسديها — نصيحة سعى إليها هو نفسه . فذلك الشعور بالندم لم يضع وقتاً فى تقديم اعتذارات وافية . وتضرع القس إلى صديقه أن يستمر فى رعايته التى إن لم تكن نجحت فى رد صحته إليه فإنها كانت السبب فى امتداد حياته الواهنة حتى الساعة .

فوافق « روجر شيلينجورث » من فوره ، واستمر فى رعايته الطبية للقس . لم يدخر وسعاً من أجله ، وقد فعل ذلك بإيمان ووفاء . لكنه كان يغادر شقة المريض على أثر انتهاء زيارة رسمية وعلى شفتيه ابتسامة غامضة حيرى . كان ذلك التعبير يختفى فى حضور السيد « ديمسدال » ، لكنه يبين ويظهر جلياً لحظة يخطو الطبيب خارج عتبة الباب .

كان يغمغم :

— « حالة فريدة ! لا بد أن أتعمق فحصها . علاقة وثيقة بين الجسد والروح ! ولو من أجل مهنتى وحسب — يجب أن أبحث تلك الحالة حتى القرار ! » .

وبعد فترة قصيرة من المشهد الذى وصفناه الآن ، حدث ظهر يوم أن السيد الجليل « ديمسدال » ... دون أن يشعر ... نام نوماً عميقاً وهو

جالس فى كرسيه ، وأمامه مجلد ضخم بحروف سوداء مفتوح على المائدة ، ولا بد أنه كان كتابا ذا قدرة عظيمة تبعث على النوم — من مدرسة آداب اللغة العميقة . وكان استغراق القس هكذا فى نوم عميق غريباً غير مألوف ، لأن نومه العادى كان خفيفاً مذبذباً يطير لأقل صوت كأنه عصفور صغير يقفز من غصن إلى غصن . وقد انزوت روحه فى بعد شاذ لم يألفه حتى إنه لم يتحرك من كرسيه عندما دخل الحجرة « روجر شيلينجورث » الشيخ دون أى احتياط خاص . وتقدم الطبيب من فوره حتى وقف أمام مريضه ، ووضع يده على صدره ثم كشف عنه رداءه الذى كان يخفيه إلى ذلك الحين حتى عن عين الطبيب نفسه .

هنا ارتجف السيد « ديمسدال » وتململ فى كرسيه .

وبعد هنيهة قصيرة ، غادر الطبيب الحجرة .

ولكن ... بأى نظرة تعجب .. ومرح ... ورعب ... واستبشاع !. بأى نشوة مخيفة أقوى من أن تعبر عنها العين والقسمات وحسب ولذلك تفجر بها قبح قامته بأجمعه ... وظهر جلياً فى عنفوانه وهو يقذف بذراعيه إلى أعلى نحو السقف ويدق الأرض بقدمه ! ولو أن شخصا رأى « روجر شيلينجورث » الهرم لحظة نشوته تلك لما وجد هناك ضرورة ليسأل كيف يتصرف الشيطان عندما تضيع روح آدمية ثمينة من الجنة ويكسبها هو فى مملكته !

ولكن كان ما يميز نشوة الطبيب عن نشوة الشيطان هو سمة التعجب فيها !

الفصل الحادى عشر

أعماق قلب

بعد الحادثة الأخيرة ، صار الحديث بين القس والطبيب — وإن ظل فى الظاهر كما كان — مختلفاً فى جوهره عن ذى قبل . فقد مهد الآن لذكاء « روجر شيلينجورث » طريق واضح وضوحاً كافياً — وإن لم يكن الطريق الذى مهده بنفسه ليسير فيه . وبرغم هدوئه . . ورقته . . وعدم انفعاله كانت أعماقه تجيش بحقد رزين لبث دفيناً حتى ذلك الوقت ، لكنه هب الآن نشطاً يدفع ذلك الرجل الهرم السيء الحظ لتخيل انتقام لم ينتقمه قبله مخلوق من عدوه : أن يصبح الصديق الواحد المؤتمن الذى يجاهره عدوه بخوفه كله . . وندمه . . وعذابه . . وتوبته . . واندفاع الأفكار الخاطئة نحوه تلك التى يصدها دون جدوى ! وأن يتكشف ذلك الحزن الأثيم المحجوب عن العالم — العالم الذى كان حتما سيشفق عليه بقلبه الواسع الرحيم ويغفر له ، يتكشف ذلك الحزن له هو . . وحده . . لمن لا يشفق . . ولا يغفر ! أن يسبغ ذلك الكنز الأسود كله على الرجل الذى لا يرضيه شيء سواه ، ليؤدى دين الانتقام !

ولكن خجل القس وتحفظه المرهف أفسد تلك الخطة : ومع ذلك

فقد أصر « روجر شيلينجورث » ألا يقنع بظواهر الأمور التي عوضه القدر بها بدلا من أساليبه السوداء — القدر الذى استخدم المنتقم وفريسته لأغراضه الخاصة فتجده يعفو حين يبدو وكأنه يعاقب أشد عقاب . لقد أوحى إليه باكتشاف . وهو لا يبالى بعد ذلك أكان اكتشافاً عن طريق فاضل أو عن طريق شائن . وبمعونة ذلك الإكتشاف ستتجلى لعينيه ، فى كل العلاقات القائمة بينه وبين السيد « ديمسدال » ، دخائل القس لا الظاهرية وحسب بل كل ما يجيش فى أعماق روحه . فيستطيع أن يرى كل حركة وكل خلجة من خلجات روحه ويفهمها على حقيقتها . فأضحى منذ ذلك الوقت لا متفرجاً وحسب بل ممثلاً أول فى أعماق القس المسكين . أضحى فى وسعه أن يتلاعب به كيفما شاء . أيثيره بنبضة عذاب ؟ كان الضحية ملقى أبداً فوق آلة (العذاب) ولم يبق إلا معرفة اللولب المحرك لها — وكان الطبيب يعرف ذلك اللولب تمام المعرفة ! أيفزعه برعب مفاجىء ؟ وكأنما لوحت عصا ساحر فقد هب شبح مخيف . . بل ألف شبح اتخذ كل منها شكلا مغايراً : موت أو عار أشد قسوة . والتفت الأشباح حول القس تشير بأصابعها إلى صدره !

تم كل ذلك بدهاء حتى إن القس برغم شعوره أن هناك قوة شريرة ترقبه ، لم يستطع قط أن يعرف طبيعتها الفعلية . كان ينظر حقاً بشك وخوف .. بل أحياناً برعب وبغض مرير إلى القامة القميئة للطبيب الهرم — الطبيب الذى كانت حركاته .. وهيئته .. ولحيته الرمادية .. وأتفه أعماله

العادية . . حتى طراز ثيابه نفسها تبدو فى نظر القس نذير شؤم . . دليلا قويا يستدل به على بغض ونفور يجيشان فى صدره — صدر القس — لا يود أن يعترف بهما لنفسه . ولما لم يستطع أن يجد مسوغاً لذلك الشك ولتلك الكراهية ، فإن السيد « ديمسدال » وقد شعر أن سموم نقطة واحدة عليلة قد أصابت بعدواها بقية عناصر قلبه السليمة ، ألقى تبعة تشاؤمه عليها . وأكب يلوم نفسه على النفور الذى يشعر به نحو « روجر شيلينجورث » وتغافل عن درس كان يجب أن يستخلصه من ذلك الشعور الذى سعى جهده كى يستأصله من جذوره . فلما عجز عن ذلك استمر — عن مبدأ — فى ألفته وصداقته للرجل الهرم ، وهيأ له بذلك فرصاً كثيرة لخدمة أهدافه التى وهب المنتقم لها نفسه — من المخلوق البائس المهجور الذى كان فى الحقيقة أتعس من ضحيته .

وهكذا ، وبينما كان القس الجليل « ديمسدال » يقاسى من أمراض جسمانية ويرزح تحت قلق أسود ممض يعذبه ويعيث فى روحه ، كما كان تحت سيطرة عدوه اللدود ، طار صيته فى عمله وازداد حب الجمهور له . وقد اكتسب الجانب الأكبر من ذلك الحب بفضل أحزانه وآلامه التى ألهبت مواهبه العقلية ومبادئه الخلقية وقدرته على تجربة المشاعر والإيحاء بها . ومع أن شهرته كانت لم تزل بعد فى صعود نحو القمة فإنها ألقت ظلها تخفى شهرة زملائه القساوسة البارزين من ذوى السمعة الطيبة . وكان بينهم علماء أمضوا سنوات يتبحرون فى علوم الدين أطول من السنوات

التى عاشها « ديسدال » ، وعلى ذلك يعتبرون عن جدارة أكثر تضلعاً فى العلوم الراسخة الثمينة التى أحرزوها ، أكثر من أخيهم الشاب . كما كان بينهم أيضا رجال ذوو نسيج عقلى أشد صلابة منه ، ووهبوا نصيبا وافراً من قوة إدراك جبارة أو حجرية أو حديدية ممزوجة بقدر طيب من العنصر الدينى لتكوّن كلها مجموعة محترمة قديرة من نماذج القساوسة ، وإن كانت مجموعة غير رقيقة ولا أنيسة . ولكن ، والحق يقال ، كان منهم آباء كالقديسين أحكموا ملكاتهم وقواهم العقلية بالكد المضنى بين كتبهم وبالتفكير الصبور ونفثوا فيها روحانية بمناجاتهم واتصالاتهم بالدار الأخرى التى كاد طهر عيشهم ينقل إليها شخصياتهم تلك التقية الطاهرة ولم تزل تكسوهم ثيابهم الدنيوية . لم يكن يعوزهم سوى الإيحاء الذى نزل على الرسل فى « بنتكوست » على صورة ألسنة نارية — لا ترمز كما تبدو إلى القدرة على التحدث بلغات غريبة غير معروفة بقدر ما ترمز إلى القدرة على مخاطبة بنى البشر أجمعين بلغة القلب العالمية . فهؤلاء الآباء أشباه الرسل لم يكن يعوزهم فى مراكزهم السامية سوى ميثاق السماء النادر الأخير : لسان من نار . فسدى يسعون — إذا فكروا يوما أن يسعوا — للتعبير عن أسمى الحقائق بأكثر الوسطاء تواضعا ألا وهو : الكلمات .. والصيغ المألوفة . كانت أصواتهم ترن فى غير وضوح . . وعن بعد سحيق . . من العلو الشاهق حيث يقيمون .

وأغلب الظن أن السيد « ديسدال » كان ينتمى بطبيعة الحال إلى إلى تلك الطبقة من رجال الدين بفضل صفات كثيرة فى خلقه . كان يصبو

إلى تسلق أعلى قمم الإيمان والتقوى لولا أن عاق تطلعه هذا عبء جريمة أو ألم بالغ قدر له أن يرزح تحت وطأته . فجعله ذلك دائماً فى مستوى أقل مما يستحق ، رفيقاً لمن هم دونه مستوى — هو رجل السجايا الروحانية . هو من تكاد الملائكة تنصت لصوته وتجيبه ! ولكن ذلك العبء عينه هو الذى أعانه على فهم مشاعر إخوانه الآثمين حتى إن قلبه كان يخفق مع قلوبهم ويتقبل آلامهم فى أعماقه ، ثم يبعث بنبضة ألمه هو إلى آلاف القلوب الأخرى فى فيض من البلاغة الحزينة المقنعة ! كانت مقنعة ! أغلب الأحيان لكنها كانت أحياناً أخرى فظيعة مرعبة ؟ لم يعرف الناس قط القوة التى تهزهم هكذا · فاعتبروا القس الشاب معجزة من معجزات الطهر والقدسية . . . بل تصوروه فوهة السماء التى ترسل منها رسائل الحكمة . والزجر . . والحب . كانت الأرض التى يطؤها بقدميه مقدسة فى نظرهم . أما عذارى كنيسته فقد ازددن شحوبا وهن ملتفات حوله ، ضحايا حب مضن تختلط به مشاعر دينية حتى اعتقدن اعتقاداً راسخاً أن شعورهن هذا دين محض فجئن به فى صراحة يحملنه فى صدورهن الناصعة أمام مذبح الكنيسة على أنه قربان مقبول . أما أفراد رعيته ممن هم أكبر سنا وقد رأوا ضعف السيد « ديمسدال » وهزاله على حين كانوا هم أقوى منه برغم ضعفهم وعللهم ، فقد اعتقدوا أنه لابد سابقهم إلى السماء . فأوصوا أولادهم أن يدفنوا عظامهم البالية غير بعيد من قبر القس الشاب الطاهر . هذا بينما كان السيد « ديمسدال » التعيس يسأل نفسه هل ينمو العشب الأخضر يوما على قبره لأن شراً ملعوناً يجب أن يدفن فيه !

ولم يكن فى الوسع قط أن يتخيل العذاب الذى كان يضنيه بسبب ذلك التبجيل العام ! كان يعبد الصدق بغريزته الأصلية ويعتبر كل الأشياء كالظل — تافهة بلا قيمة ولا ثقل ما دامت لا تستمد جوهرها السامى من الحياة نفسها . فماذا كان هو ؟ أعنصر هو أم أكثر الظلال قتامة ؟ كان يتوق أن يتحدث إلى الناس من فوق منبره وبأعلى صوت ويقص عليهم حقيقة نفسه :

أنا . . . من ترون فى ثياب القساوسة السوداء هذه ! أنا . . . من يصعد المنبر المقدس ويدير وجهه الشاحب نحو السماء وقد أخذ على عاتقه أن يشفع لكم لدى العلىّ العظيم ! أنا . . . من ترون فى حياته اليومية آيات من تقوى « إينوك » وطهره ! أنا . . . من تظنون أن بريقاً من نور ينبعث من خطاه حتى يقود الحجاج الذين سوف يأتون بعدى إلى ملكوت الرضى عنهم ! ؟ أنا . . . من وضع يده على رءوس أطفالكم أثناء تعميدهم ! أنا . . من همست بصلاة الوداع فوق أجساد أصدقائكم المحتضرين فكانت تصل إليهم غمغمتي : آمين خافتة كأنما هى آتية من دنيا خلفوها وراء ظهورهم ! أنا . . . قس كنيستكم الذى تبجلونه وتثقون به ثقة عمياء — ما هو إلا أكذوبة كبرى ودنس !

وقد صعد السيد « ديمسدال » المنبر فعلا غير مرة وقد استقر عزمه على ألا يهبطه إلا بعد أن يقـــول مثل هذا الكلام . وغير مرة تنحنح واجتذب نفساً عميقاً طويلا مرتجفاً ليزفره محملا بسر روحه الأسود . وغير

مرة — لا .. بل أكثر من مائة مرة بدأ فعلا فى الكلام ! بدأ فعلا .. ! ولكن كيف ؟ قال لسامعيه إنه مدنس .. أدنأ من أدنس مدنس .. وإنه شر الآثمين جميعاً .. وإنه لعنة .. وإنه شر ظلم بل جور فى الوجود . . وإن المعجزة الجديرة بالدهشة والعجب أنه لم يحترق أمام أعينهم بغضب الله القدير ! فهل هناك كلام أوضح من ذلك ؟ ألم يكن خليقاً بالناس أن يهبّوا دفعة واحدة من مقاعدهم ويجذبوه من فوق المنبر الذي دنسه ؟ لا . . لم يحدث ذلك دون أدنى شك ! فقد استمعوا إلى قوله كله ولم يفعلوا سوى أن زادوه تبجيلا وتمجيداً ، لم يفطنوا إلى المدلول المميت الذى يكمن فى تلك الكلمات . فقالوا فيما بينهم :

« ياله من شاب إلهى ! قديس على الأرض ! ويحنا ! إذا كان يرى فى روحه الناصعة مثل ذلك الإثم ، فأى منظر مفزع سوف يرى إذا اطلع على روحى أو روحك ! »

وكان القس — المنافق الماكر — وإن ندم وتعذب — يعلم جيداً كيف يستقبل الجمهور اعترافه المبهم . لقد حاول أن يخدع نفسه بالمجاهرة بضميره الأثيم ، لكنه اكتسب إثماً آخر وعاراً يعترف به فيما بينه وبين نفسه ثم لاشىء غير ذلك — حتى الراحة الوقتية التى يجلبها خداع النفس . لقد قال الحقيقة لكنه أحالها أدنأ أكذوبة . ومع ذلك كان يحب الصدق بطبيعة تكوينه ويحتقر الكذب كما يحتقره قليلون . ولذلك احتقر نفسه التعسة أكثر من أى شىء آخر ! .

ولقد قاده اضطراب روحه وقلقها إلى التشبث بتقاليد وممارسة عادات كانت شائعة فى « روما » بإيمانها الفاسد القديم ، وتجنب الكنيسة التى ولد ونشأ فيها بتعاليمها الأصلح . فكان « ديسدال » يحفظ فى مقصورته السرية صوتاً دامياً أخفاه خلف مفتاح ومزلاج . وكثيراً ماهوى ذلك القس المسيحى المتعصب بالسوط على كتفيه وهو يضحك من نفسه بمرارة ثم يشتد فى الضرب بلا رحمة بسبب ذلك الضحك المرير . وقد كان كثير الصوم كعادة العدد الجم من « البيوريتانز » الأتقياء ، لكنه لم يصم مثلهم كى يطهر جسده فيشف ويصبح أكثر صلاحية بوصفه وسيطاً للإيحاء الإلهى ، بل صام بصرامة وشدة حتى ارتجفت ركبتاه كأنما يمارس لونا من ألوان العقاب . كما كان يتهجد ليلة بعد ليلة — أحيانا فى الظلام الدامس وأحيانا على ضوء مصباح شاحب وأحيانا أخرى وهو يتطلع إلى وجهه فى مرآة سلط عليها أقوى نور وجده . وبهذا كان يرمز إلى الاستبطان الدائم الذى عذب به نفسه لكنه عجز عن تطهيرها به وكثيراً ما ارتبك عقله خلال تهجده الطويل وتخيل رؤى وأشباحاً تمرق أمامه — أحيانا يتخيلها تخيلا على ضوء شاحب من صنعه . . يراها فى ركن الحجرة القصى ، وأحيانا تتراءى له واضحة بجواره — داخل المرآة . تارة هى حشد من عفاريت تبتسم وتسخر من القس الشاحب وتشير إليه أن يلحق بها ، وتارة هى جمع من ملائكة تشع نوراً ثم تطير يتثاقل نحو السماء كأنما يعضها حزن لكنها تخف شيئاً فشيئا وهى ترتفع . وتارة يزوره أصدقاء صباه الذين

ماتوا ، أو يزوره أبوه بلحيته البيضاء وبقطيبة كتقطيبة القديسين ، ثم تجىء أمه وتشيح بوجهها عنه وهى تمر به . أى شبح الأم ! يا أكثر الأشباح رقه وتحولاً ! فى اعتقادى أنه كان فى وسعها أن تلقى بنظرة عطف وحنان إلى ابنها ! ثم بعد أن تمر أفكاره المجسمة تلك بالحجرة التى جعلتها رهيبة مرعبة ، تتهادى « هيستر براين » تسحب وراءها بورل الصغيرة فى ثوبها القرمزى . فتشير أولا إلى الشارة القرمزية على صدرها هى تنثنى وتشير إلى صدر القس .

ولكن تلك الرؤى والأخيلة كلها لم تخدعه قط خداعاً تاماً . فقد استطاع بقوة إرادته أن يميز بين الخيال والواقع ويقنع نفسه أن ما مر به ليس له عنصر صلد كتلك المائدة المنحوتة من خشب السنديان ، أو كذلك المجلد الدينى المربع الضخم ذى المشابك النحاسية والغلاف الجلدى . ولكن برغم هذا كله فقد كانت تلك الأخيلة أصدق الأشياء التى أضحى القس البائس يباشرها وأكثرها تماسكا . فمن شقاء حياة زائفة كحياته أنها تسرق لب الحقائق وعنصرها — الحقائق التى حولنا والتى أرسلتها السماء قوتا للارواح وغذاءلها . فالعالم أجمع زائف .. سراب .. للرجل الكاذب — ينكمش ثم يتلاشى فى قبضته . أما هو نفسه فيصبح ظلا فى النور الكاذب الذى يظهر به نفسه للعالم — بل لا يعود له وجود . وفى حالة السيد « ديمسدال » كان العذاب الذى تتلظى فيه روحه وعلاماته الواضحة على هيئته هى الحقيقة الوحيدة التى جعلت « ديمسدال » يشعر بوجوده وكيانه

على هذه الأرض . فلو أنه وجد القدرة مرة على الابتسام وادعاء المرح ، لما كان هناك هذا الرجل البتة .

وفى إحدى تلك الليالى القبيحة التى لمحنا إليها تلميحاً وكففنا عن وصفها بإسهاب ، هب القس من مقعده منزعجا . فقد واتته فكرة جديدة — ربما وجد فيها لحظة راحة . فارتدى ثيابه بعناية كأنما لصلاة عامة ، وبالأسلوب عينه انسرق بخفة يهبط الدرج ثم فتح الباب وخرج .

الفصل الثامن عشر

تهجد القس

سار السيد « دعسدال » كأنه فى حلم ، أو لعله كان فعلا تحت سيطرة لون من التنويم المغناطيسى حتى وصل إلى المكان الذى مضى عليه زمن طويل منذ عاشت فيه « هيستر براين » الساعات الأولى من عارها العلنى . وما زالت هناك المنصة أو المقصلة — سوداء قد نصل لونها بسبب العواصف . أو الشمس . . أو بسبب سبع سنوات طوال ، كما هرستها أقدام مذنبين كثيرين صعدوا فوقها . كانت هناك ما برحت قائمة تحت شرفة دار الحكومة . فصعد القس درجاتها .

كانت ليلة معتمة من ليالى شهر مايو ، تغطى رقعة السماء كلها من كبدها إلى أفقها ستارة ملتحمة من السحب . فلو أن الحشد عينه الذى شاهد « هيستر براين » تنال عقابها اجتمع مرة أخرى فى المكان نفسه لما استطاع أن يرى وجها فوق المنصة ولا شبح إنسان فى منتصف تلك الليلة الحالكة . كانت البلدة كلها نائمة . لم يكن هناك خطر من اكتشاف مفاجىء ، فكان فى وسع القس أن يقف هكذا فوق المنصة كيفما شاء حتى يشرق الصباح دون أى مخاطرة إلا التعرض لهواء الليل المثلج الرطب ينسل إلى

بدنه ليصيبه بداء المفاصل ويلتهب حلقه يسده السعال والبلغم . فيخيب أمل الجمهور من مستمعى صلاة الغد والموعظة التى سيلقيها قسهم المحبوب . لم تره عين سوى عين الذى لا ينام أبدا . . . العين التى رأته فى مقصورته يلهب جسده بالسوط الدامى . لماذا إذن جاء هنا ؟ أيسخر من التوبة !؟ كانت سخرية حقاً ، لكنه سخر فيها من نفسه ! سخرية أبكت الملائكة وضرجت وجناتهم خزياً منها ، على حين تهللت الشياطين تطلق ضحكاتها الساخرة ! لقددفعه إلى هنا « الندم » الذى ساقه إلى كل مكان من قبل — « الندم » أخو « الجبن » الذى كان يشده بعيداً بقبضته المرتجفة كلما حرضه الدافع الآخر على الاعتراف . الرجل المسكين البائس ! بأى حق تثقل نفسها إرادة ضعيفة كإرادته بجريمة ؟ ما الجريمة إلا لذوى الأعصاب الحديدية الذين لهم الخيار فى احتمالها ، أو — إذا أرهقتهم بشدة — استخدموا قواهم الوحشية لغرض طيب كالاعتراف بجريمتهم من فورهم . أما هذه الروح التى كانت أشد الأرواح وهناً وحساسية فلم تستطع إتيان أى الأمرين ، ومع ذلك كانت تتأرجح على الدوام بينهما حتى اختلطت عليها — تعذبها وتضنيها — جريمة تتحدى السماء ، وندم لا طائل منه .

وهكذا ، بينما يقف « ديمسدال » على المقصلة فى محاولته الفاشلة للتكفير عن إثمه ، غشيه رعب عظيم كأنما يحملق العالم أجمع فى شارة قرمزية على صدره العارى . . فوق قلبه تماما . والحقيقة أنه فى ذلك المكان بالضبط — أى فوق قلبه تماماً — كان هناك . . منذ زمن بعيد — ألم جسمانى سام

يميت ويفنى . فدون وعى . . وبلا قدرة ما على المقاومة ، أطلق القس صرخة مدوية — صرخة اخترقت الليل ورددت صداها البيوت والتلال البعيدة ، كأنما تبينت جماعة من العفاريت الرعب والتعاسة التى تنضح بها الصرخة فتلقفتها لعبة راحت تتقاذف بها هنا وهناك .

وغمغم القس وهو يخفى وجهه بيديه :

— « لقد فعلتها ! الآن سوف تستيقظ البلدة كلها وتهرع إلىّ هنا وتجدنى ؟ » .

ولكن لم يحدث شيء من ذلك . فربما بدت الصرخة لأذنيه المذعورتين أعلى مما كانت عليه فى الحقيقة . فلم تستيقظ البلدة ، ولو أنها استيقظت لظن النائمون خطأ أنها صرخة فى كابوس مخيف . . أو أنها صادرة عن السحرة الذين كانت أصواتهم فى تلك الفترة تسمع عبر البيوت والأكواخ المنعزلة وهم طائرون فى الجو مع الشيطان . فلما لم يقتحم شيء على القس وحدته ، رفع يديه عن وجهه وتلفت حوله . فرأى فى إحدى نوافذ دار الحاكم « بيلنجهام » التى كانت على بعد من المقصلة وتقع فى شارع آخر — لمح الحاكم الهرم نفسه يطل وقد ارتدى جلباباً طويلاً أبيض يلف جسده كله ووضع على رأسه قلنسوة بيضاء وأمسك بيده مصباحاً . بدا كالشبح الذى خرج قبل الأوان من قبره . كان من الجلى أن الصرخة أزعجته . وفى نافذة أخرى من الدار عينها بدت السيدة « هيبنز » العجوز — أخت الحاكم — تحمل فى يدها مصباحاً آخر أظهر برغم بعد الشقة

سحنتها المغبرة المكفهرة . فدفعت برأسها خارج شبكة النافذة ونظرت بقلق إلى أعلى . فإن تلك الساحرة المبجلة سمعت بلا شك صرخة السيد « ديمسدال » فظنتها — وقد رددها الصدى مئات المرات — صرخات الشياطين والساحرات اللاتى رافقتهن كثيراً فى جولات داخل الغابة . فلما لمحت السيدة العجوز الضوء المنبعث من مصباح الحاكم ، تراجعت بسرعة وأطفأت مصباحها . لعلها اختفت بين السحب . فإن القس لم يعد يراها ولا يرى حركاتها . أما الحاكم فبعد حملقة حذرة مستطلعة متلفتة فى الظلام الذى لم يكن يستطيع أن يرى خلاله إلا بمقدار ما يرى وهو يحملق خلال حجرة طاحونة — تراجع عن النافذة .

فهدأ القس . أما عيناه فقد التقطا بضوء صغير يبرق على بعد ثم يقترب عبر الشارع شيئاً فشيئاً . وألقى الضوء بشعاعه على عمود هنا .. وعلى سور حديقة هناك . على « خصاص » شباك هنا . .وعلى فوارة هناك تندفع منها المياه بقوة . ثم مرة أخرى ، أنار الضوء باباً ضخماً من خشب السنديان له مطرقة حديدية وعتبة هى كتلة خشنة من الخشب . لحظ « ديمسدال » كل هذه الأشياء بدقة مع أنه كان مقتنعاً تمام الاقتناع أن قدره معلق بتلك الخطوات التى يسمعها الآن ، وأن شعاعة من المصباح ستسقط عليه حتماً بعد لحظات قليلة وتكشف سره الخفى . وعندما اقترب النور منه ، رأى فى هالته المضيئة أخاه القس . . بل أباه فى المهنة وصديقه الحميم : القس الجليل « ويلسون » الذى حدس « ديمسدال » ساعتئذ أنه لا بد كان يصلى إلى

جوار فراش رجل يحتضر . وقد كان الأمر كذلك فعلا . كان القس الهرم الطيب خارجاً من فوره من حجرة الحاكم « وينثروب » الذى مات تلك الساعة وهاجر من الأرض إلى السماء . فعاد الأب الصالح « ويلسون » أدراجه إلى بيته ، يمين خطواته بمصباح مضىء وتحيط برأسه كالقديسين هالة من ضياء أضفت عليه مجداً فى ذلك الليل البهيم الزاخر بالخطايا — كأنما أورثه الحاكم الفقيد بعض مجده ، أو كأنما اكتسب لنفسه بعض الضياء المنبعث من الآخرة وهو يرقب الراحل يخطو داخل أبوابها . وقد جلب الضياء تلك الخواطر كلها للسيد « دعسدال » الذى تبسم منها — لا . . بل إنه كاد يضحك . ثم تجهم وقطب حاجبية يسائل نفسه : هل جن أو هو فى طريقه إلى الجنون ؟

وبينما كان السيد الوقور « ويلسون » يمر بجوار المقصلة وهو يضم معطفه حوله بذراع ويبسط الأخرى أمامه بالمصباح ، لم يتمالك القس أن تكلم .

— « مساء الخير أيها الأب الجليل « ويلسون » ! اصعد إلىّ هنا وأمض معى ساعة هانئة ! » .

يا إلهى ! هل تكلم فعلا « دعسدال » ؟ فى اللحظة الخاطفة ، ظن أن تلك الكلمات خرجت فعلاً من بين شفتيه .

لكنها كانت كلمات مرت بباله وحسب . فقد ظل الأب الوقور « ويلسون » يتقدم فى سيره البطىء وهو ينظر بحذر إلى الطريق الموحل الممتد أمام قدميه . ولم يمل مرة برأسه ناحية منصة العقاب . فلما اختفت

تماماً آخر شعاعة من ضوء المصباح اكتشف القس — بالوهن الذى أصابه — أن اللحظات القليلةالماضية كانت فى الواقع أزمة من القلق الفظيع مع أن عقله حاول دون وعى أن يخفف عن نفسه بشىء من المداعبة المروعة.

ولكن لم يمض طويل وقت حتى تسللت روح المرح مرة أخرى واندست بين أفكاره الرصينة . شعر بعضلاته تتصلب من رطوبة الليل التى لم يألفها حتى شك فى قدرته على هبوط درجات القصلة . سيشرق الصباح ليجده هنا مكانه . وستبدأ الجيرة تستيقظ وسيلمح من يبكر بالخروج .. فى غبشة السحر . . شبح إنسان منصوباً فوق منصة العار . فيطيش لبه بين ذعر وفضول ، ويندفع يدق الأبواب واحداً تلو الآخر ينادى الناس كلهم ليروا الشبح — كما يعتقد — شبح مذنب متوفى . فتضرب إشاعة قاتمة بجناحيها وتطير من بيت إلى بيت . ثم بعد ذلك ، عندما يسطع نور الصباح ، سوف يستيقظ البطاركة على عجل ويهرعون إليه بثيابهم الداخلية ترافقهم زوجاتهم — المشيرة بأجمعها المؤلفة من الشخصيات الهامة التى لم ترقط من قبل وشعرة من رءوسها فى غير موضعها . ستندفع الآن إلى الطريق العام مشمئة عليها سمة كابوس مخيف . فيتقدم الحاكم «بيلينجهام» الهرم وحول رقبته ياقة منشاة من طراز عهد الملك « جيمس » وقد لبسها مقلوبة لفرط عجلته وتأتى خلفه السيدة « هيبنز » وقد علقت بثوبها أغصان شجر دقيقة وسحنتها فظة نكدة كعهدها فهى لم يغمض لها جفن بعد جولتها الليلية مع السحرة . ومن ورائها يأتى الأب الصالح « ويلسون » الذى قضى نصف

الليل بجوار فراش رجل يحتضر ، فهو غير راض عن إقلاق راحته تلك الساعة المبكرة وإخراجه قسراً من أحلامه بالقديسيين أصحاب المجد . كما سيأتى أيضاً شماسو كنيسة السيد « دعسدال » .. وكبراؤها . . والعذارى اللائى يقدسن القس الشاب واللائى أقمن له معبداً داخل صدورهن البيضاء التى سوف يغفلن الآن لفرط تعجل ولهفة عن أن يسحبن فوقها أوشحتهن باختصار ، سيهرع الناس كلهم يتعثرون على عتبات بيوتهم وهم يرفعون وجوههم المذعورة الدهشة ويلتفون حول المقصلة . فمن الذى سيرونه هناك ، ونور الشروق الأحمر يسقط على جبينه؟ من . . سوى السيد الجليل «أرثر دعسدال» يكاد يرديه البرد . . ويضنيه العار . . وهو واقف حيث وقفت «هيستر براين» !!

فما كان من القس وقد أطاشت لبه تلك الصورة البشعة المرعبة إلا أن انفجر دون وعى فى ضحك عال صاخب أفزعه . فجاوبت ذلك الضحك من فورها ضحكات خفيفة مرحة صغيرة تبين فيها القس — بخفقة قوية من قلبه لم يعرف أكانت من ألم بالغ أم من فرح شديد — تبين نبرات الصغيرة « بورل » فصاح بعد لحظة صمت :

— « أى « بورل » ... « بورل الصغيرة ! »

ثم خفض من صوته ينادى :

— « أى « هيستر ! » «هيستر براين » ... أهذه أنت ؟ »

فأجابته بدهشة :

— « نعم .. هذه « هيستر براين » !

وسمع القس وقع أقدامها تقترب من الطريق العام حيث كانت تسير :
— « نعم .. هذه أنا وبصحبتي صغيرتي « بورل » !
فسألها القس :
— « من أين أنت قادمة ؟ ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »
فأجابت « هيستر براين » :
— « لقد كنت ساهرة بجوار فراش رجل يحتضر — فراش الحاكم السابق « وينثروب » وقد أخذت قياسه لأحوك له كفناً ، وأنا الآن عائدة إلى كوخي ! »

فقال القس الجليل « أرثر ديمسدال » :
— « اصعدي هنا إلى جواري — أنت والصغيرة « بورل » ! لقد وقفتما هنا من قبل لكنني لم أكن معكما . اصعدا إلى هنا مرة أخرى وسنقف نحن الثلاثة معا ! »

فصعدت درجات المقصلة في صمت ، ووقفت فوق المنصة تمسك بيد « بورل » الصغيرة . فبحث القس عن يد الطفلة الأخرى وأمسك بها . وما فعل ذلك حتى اندفع إلى بدنه تيار جياش من حياة جديدة غير حياته هو ، انهمر كالسيل إلى قلبه وتدفق في عروقه كلها كأنما بعثت الأم والطفلة بحيويتهما الدافئة إلى كيانه المنهار . ألفّ الثلاثة تيار كهربيّ ؟

وهمست الصغيرة « بورل » :
— « أيها القس ! »

فسألها « ديمسدال » :

— « ماذا تريدين قوله ياصغيرة ؟ »

فسألته « بورل » :

— « أترضى أن تقف معى أنا وأمى هنا غداً ساعة الظهيرة ؟ »

فأجاب القس :

— « لا . . لا يسمنى ذلك يا « بورل » الصغيرة ! »

فإن الخوف من انكشافه علانية ، ذلك الذى كان عذاب عمره زمناً طويلاً تملكه مرة ثانية مع تلك القوة الجديدة التى انبعثت فيه لحظات . وأضحى يرتعد من فوره على رغم شعوره بسعادة غريبة للاجتماع الذى ألفى نفسه فيه الآن .

— « لا يسعنى ذلك ياطفلتى . حتما سأقف معك ومع أمك يوماً . . ولكن ليس غداً ! »

فضحكت « بورل » وحاولت أن تجذب يدها منه . ولكن القس تشبث بها وهو يقول :

— « لحظة أخرى يا صغيرتى ! »

فسألته « بورل » :

— « أتعدنى أن تمسك بكلٍّ من يدى ويد أمى غداً ظهراً ؟ »

فقال القس :

— « ليس غدا يا « بورل » ... ولـكن فى وقت آخر ! »

فصاحت الطفلة بإصرار :

— « أى وقت آخر ؟ »

فهمس القس

— « يوم القيامة العظيم ! »

ومن العجيب أن شعوره بأنه معلم دين محترف هو الذى دفعه ليجيب الطفلة بما أجابها به . واستطرد :

— « فيومئذ .. هناك .. أمام كرسى القضاء السماوى سنقف ثلاثتنا حتما : أنا وأنت وأمك ! ولـكن لن يرى اجتماعنا نور هذه الدنيا ! »

فضحكت « بورل » مرة أخرى .

ولـكن قبل أن يتم « ديمسدال » حديثه برق نور عبر السماء المغبرة كان لاشك شهاباً من تلك الشهب الهاوية التى كثيراً ما يراها الساهر تحترق وتتزايل فى الفضاء . ولـكن تألق ذلك الشهاب كان شديداً حتى إنه أضاء السحب المتـكاثفة بين السماء والأرض فتضوأت . القبة الضخمة كأنها قبة مصباح ضخم . فظهرت مشاهد الشارع المألوفة كأنما الوقت نهاراً ، ولـكن بالرهبة عينها التى يضفيها دائماً النور غير المألوف على الأشياء .. البيوت الخشبية بطبقاتها الناتئة وسقوفها اللطيفة الشاذة . وعتبات الأبواب وقد نما العشب حولها مبكراً .. والحدائق المخططة بتربتها السوداء المحروثة حديثاً . وطريق

المركبات الممتد فى ساحة السوق وقد تأ كل شيئاً ونمت على كل من جانبيه خضرة — كلما أشياء ظهرت بوضوح ولـكن بهيئة غريبة فريدة حتى لتضفى معنى أخلاقياً آخر على الأشياء الموجودة فى دنيانا هذه مخالفا لمعناها الحقيقى. ووقف هناك القس ويده تضغط قلبه وإلى جواره « هيستربراين » بشارتها القرمزية المطرزة تتلألأ على صدرها ، ووقفت بينهما « بورل » الصغيرة التى هى نفسها رمز يصل بين هذين . وقفوا ثلاثتهم فى ضوء القمر الغريب الرائع كأنه النور الذى سوف يكشف عن الخفاياوالأسرار... كأنه الشروق الذى سوف يجمع بين الأحباء .

كانت عينا « بورل » الصغيرة تفيضان بسحر واكتسى وجهها وهى ترفعه نحو القس بتلك الابتسامة الماكرة التى تجعل تعبيرها شيطانياً . وسحبت يدها من قبضة « ديمسدال » وأشارت إلى الشارع . لـكنه ضم يديه كلتيهما إلى صدره وسما بعينيه نحو قبة السماء .

فقد كان شيئاً مألوفاً فى تلك الأيام تفسير الشهب الهاوية وغيرها من الظواهر الطبيعية التى لا تحدث بانتظام كشروق الشمس والقمر وغروبهما، تفسير حدوثهما على أنه نبوءة خارقة من لدن قوى قدير . فإذا ظهر فى سماء منتصف الليل سيف من نار . . أو رمح ملتهب . . أو قوس . . أو حزمة سهام دل ذلك على حرب مع الهنود الحمر . أما الوباء فقد أنذر به سيل من نور قرمزى . ونحن نشك فى أن يكون قد وقع حادث هام — سواء للشر أو للخير — فى « انجلترا الجديدة » منذ نشأتها إلى عهد الثورة دون أن

يكون قد سبقه نذير للآهلين من هذا القبيل . وقد رأى تلك النذر أناس كثيرون . ومع ذلك فكثيراً ما رآها شخص واحد يؤمن بها إيماناً عميقاً ، فيرى الأعجوبة بخياله الذي يلونها .. ويضخمها .. ويجسمها ثم يشكلها أخيراً على هيئة أكثر وضوحاً بعد أن تمر بفكره . كانت فكرة رائعة حقاً أن تتكشف أقدار الأمم هكذا بتلك الرموز الهيروغليفية منقوشة على قبة السماء ! وسجل عريض كهذا لا يعتبر اتساعه مبالغاً فيه لتخط عليه العناية الالٰهية أقدار الناس . وكان الاعتقاد الشائع بين آبائنا الأوائل أن حالة البلاد الاقتصادية تحت حراسة سماوية حازمة . ولكن ماذا نقول عندما يكتشف إنسان أن هناك نبوءة موجهة إليه وحده مسجلة على الرقعة الواسعة عينها ! فى حالة كهذه ، لا يمكن أن تكون إلا علامة على اضطراب عقل ذلك الرجل الذى ركز اهتمامه الحزين القاتم فى نفسه بسبب ألم دفين مبرح ، فبسط أنانيته على الطبيعة كلها حتى تصبح السماء بأجمعها صفحة تروى تاريخ روحه وقدره !

ولهذا فنحن نرجع الأمر إلى مرض فى قلب القس وعينه ، عندما رفع وجهه إلى القبة الزرقاء فرأى شارة قرمزية ضخمة مرسومة بنور أحمر شاحب . ربما هوى الشهاب تلك اللحظة عينها واحترق متلاشياً فى غلالة من سحب — ولكنه ليس على هيئة شارة كما صور له خياله المذنب ، أو على الأقل ليس بوضوح تام يمنع مذنباً آخر من أن يتصوره رمزاً آخر .

وقد حدث شيء فريد أثناء حالة « ديمسدال » النفسية هذه . فبينما

هو يحملق فى السماء كان يعلم تمام العلم أن الصغيرة « بورل » تشير بإصبعها إلى « روجر شيلينجورث » الهرم الذى وقف على قرب من المقصلة . وبدا القس وكأنه يراه ويرى الشارة المعجزة فى آن واحد وبالنظرة عينها . وقد أضفى نور الشهاب الهاوى تعبيراً جديداً على قسمات الطبيب الذى لم يحاول تلك اللحظة — كما كان يفعل دائماً — أن يخفى الحقد الذى يملؤه وهو يرمق ضحيته . ولو أن الشهاب ساعتئذ أشعل السماء وكشف عن خبايا الأرض بطريقة مروعة تنذر «هيستر براين » والقس بحلول يوم الحساب ، لكان « روجر شيلينجورث » يليق بدور إبليس واقفاً إلى جانب بابتسامه وعبوسه يختار من يضمهم إلى قبيله . كان تعبيره متوهجاً — أو كان تأويل القس لتعبيره هو المتوهج حتى إنه ظل مرسوماً فى الظلام بعد أن خبا الشهاب وتلاشى كأنما امحى الشارع بكل ما فيه من الوجود .

فتساءل « ديمسدال » برعب وأنفاسه تتتابع :

— « من هذا الرجل يا «هيستر» ؟ إننى أرتعد منه ! أتعرفين الرجل ؟ أى « هيستر » ... إننى أمقته ! »

فتذكرت القسم الذى أجبرت عليه . وصمتت .

فغمغم القس مرة ثانية :

— « أقول لك إن روحى ترتجف رعباً منه ! من هو ؟ من هو ؟ ألا تستطيعين عمل شىء من أجلى ؟ يملؤنى رعب مبهم من الرجل ! »

« فقالت « بورل » الصغيرة :

— « فى وسعى أن أقول لك من هو .. أيها القس ! »

— « أسرعى إذن أيتها الطفلة ! أسرعى ! اجعلى كلامك همساً ما استطعت ! »

فغمغمت « بورل » بشىء فى أذنيه بدا كأنه كلام عادى مع أنه لم يكن سوى هذر مما يلهو به الأطفال ساعات وساعات . على كل حال ، لو أن ما قالته عن « روجر شيلينجورث » الهرم يتضمن أسراراً فلا ريب أنها كانت بلغة غريبة عن القس المثقف العلامة، ولم تزده إلا حيرة. وراحت الطفلة الشيطانة تضحك بصوت عال .

فقال القس :

— « أتهزئين بى ؟ » .

فأجابت الطفلة :

— « لم تكن جريئاً ! لم تكن صادقاً ! لم ترض أن تمدنى بأن تمسك بكل من يدى ويد أمى هنا . . ظهر غد ! » .

فقال الطبيب الذى كان قد تقدم حتى التصق ا بالمقصلة :

— « ياسيدى الجليل .. يا سيدى « ديمسدال » التقى الورع . أيمكن أن يكون هذا هو أنت ؟ مرحى . . مرحى ! ما أحوجنا نحن رجال العلم ذوى الرءوس المدفونة فى الكتب إلى من يرعانا ! فنحن نحلم فى يقظتنا ..

ونسير فى نومنا — تعال ! يا سيدى الجليل ويا صديقى العزيز . أرجوك . دع لى أن أقودك إلى البيت ! » .

فسأله القس بخوف :

— ومن أدراك أننى هنا ؟ .

فأجاب « روجر شيلينجورث » .

— « الحق أننى لم أدر شيئاً عن ذلك الأمر . فقد أمضيت الشطر الأكبر من الليل إلى جوار الحاكم السابق «وينثروب» الذى كان يحتضر أبذل على المتواضع لأهيئ له بعض الراحة فى لحظاته الأخيرة . فلما صعد إلى دار خير وأبقى ، عمت أنا الآخر وجهى شطر دارى عندما توهج فجأة ذلك النور . تعال معى أرجوك يا سيدى الجليل .. وإلا لما استطعت أن تقوم بصلاة الأحد غداً . انظر .. انظر كيف ينجم عن هذه الكتب اضطراب العقل ! هذه الكتب ! يجب أن تقلل من انكبابك هكذا على الدرس كما يجب أن تنال نصيباً من الراحة والترويح وإلا اعتدت تلك الهواجس الليلية ! » .

فقال « ديمسدال » :

— « سأذهب معك إلى البيت ! » .

وأسلم نفسه إلى الطبيب ، وتركه يقوده بعيداً وهو يرتجف بيأس ، كالذى يستيقظ منهوك القوى من حلم كئيب .

ولما كان اليوم التالى هو يوم الأحد ، فقد ألقى خطبة عدّها الجميع موعظة تفيض بقدرة الله وعظمته أروع وأقوى ، بل أدسم من كل موعظة أخرى نطقت بها شفتاه ، ويقال إن أرواحاً جمة اهتـدت إلى نور الحق بفضل تلك الموعظة ، وأقسمت فيما بينها وبين نفسها أن تحتفظ بجميل طاهر مقدس للسيد « ديمسدال » مدى الدهر . ولـكن بينما كان يهبط درجات المنبر قابله خادم الـكنيسة ذو اللحية الرمادية وهو يمسك بقفاز أسود تعرف عليه القس من فوره .

فقال خادم الـكنيسة :

— « لقد عثر على هذا القفاز صباح اليوم فوق المنصدة التى ينصب عليها المذنبون للخزى العلنى . فأعتقد أن الشيطان ألقى به هناك دعاية سمجة ضد شخصك الجليل . لـكنه بلا شك كان أعمى طائشاً كمهده دائماً أبداً ، فليس باليد الطاهرة حاجة إلى قفاز يغطيها ! » .

فقال القس بوقار وإن ارتعد قلبه :

— « شكراً ياصديق الطيب . يبدو لى أن هذا هو قفازى حقاً ! »

فإن ذاكرته كانت مضطربة اضطرابا جعله يعتبر ماحدث الليلة السابقة حلما أو تخيلات .

وعلق خادم الـكنيسة الشيخ وهو يبتسم ابتسامة متجهمة :

— « ما دام الشيطان قد سرق قفازك فوجب على قداستك أن تسوسه

عارى اليدين ! ولـكن . . هل سمعت قداستك بالنذير الذى رئى ليلة أمس؟ لقد ظهرت فى كبد السماء شارة قرمزية ضخمة فسرناها نحن بأنها ترمز إلى كلمة « ملاك » . ولما كان حاكمنا السابق الصالح « وينثروب» قدمات الليلة الماضية ونصب ملـكا بين ملائـكة السماء ، فلا شك أنهم هناك رأوا أن يشيروا إلى ذلك بطريقة ما ! »

فأجابه القس ·

— « لا . لم أسمع بذلك النذير ! »

الفصل الثالث عشر

نظرة أخرى إلى « هيستر »

فى مقابلة «هيستر براين» الوحيدة الفريدة للسيد «ديمسدال»، صعقت للحالة التى سار عليها القس . بدا وكأنما انهارت أعصـــابه تماماً . وقد انحدرت قواه المعنوية التى هوت من الضعف الشديد ، تتلوى وتزحف على الأرض .. لاحول لها ولا قوة . هذا برغم احتفاظ مواهبه الذهنية بقوتها الفطرية — أو لعلها اكتسبت نشاطاً سقيما لايضفيه عليها سوى المرض . ولما كانت مطلعة على سلسلة ظروف خفيت عن الجميع ، فقد استطاعت أن تستنتج أنه إلى جانب تأنيب ضميره فهناك تأثير رهيب ينوء به «ديمسدال» وهو الذى يقلق راحته وصحته . ولما كانت على علم بما كان عليه ذلك الرجل المنهار ، فقد هز أعماق روحها الرعب المرتجف الذى انتهل به إليها — هى المرأة المنبوذة — لتعينه وتسانده ضد عدوه الذى اكتشفه بغريزته . كما أنها قررت أن له حقاً فى معونتها كلها . ولما كانت لاتزن الخطأ والصواب بميزان خارج نفسها لطول عزلتها عن المجتمع ، فإن « هيستر » شعـرت بمسئولية ملقاة على عاتقها حيال القس لا تدين بها لأى مخلوق آخر — ولا للدنيا بأجمعها . فالروابط التى تربطها ببقية البشر — سواء كانت روابط من زهور .. أو حرير .. أو ذهب .. أو أى مادة أخرى — فصمت كلها

وانقضى عهدها . هنا كانت رابطة حديدية من جريمة مشتركة لا يملك أحدها فصمها — لا هو ولا هى . وككل الروابط الأخرى ، أتت معها تلك الرابطة بالتزاماتها .

لم تعد « هيستر براين » ترزح تحت المركز الاجتماعى عينه الذى وجدناه فيه خلال عهود عارها الأولى . جاءت سنوات ومرت سنوات وأضحت « بورل » الآن فى السابعة من عمرها . وصارت أمها بالشارة القرمزية على صدرها تتضوأ بتطريزها الذهب ، منظراً مألوفاً لدى أهل البلدة . وكما يحدث دائماً عندما يبرز شخص أمام طائفة فى أى ناحية من نواحى الحياة لكنه فى الوقت عينه لا يتدخل فى شئونها العامة ولا الخاصة ولا شأن له بمصالحها نما لون من التقدير العام نحو «هيستر براين» . فمن فضائل الطبيعة البشرية — إلا إذا تدخلت أنانيتها — أنها أميل إلى الحب منها إلى الكره . فالبغض بعملية بطيئة هادئة ، يتحول غالباً إلى حب إلا إذا اعترض التحول استفزاز متصل بلهب الشعور الأصلى للبغض . أما فى حالة « هيستر براين » فلم يكن هناك استفزاز ولا إثارة . لم تقاتل الجمهور قط بل استسلمت له بلا شكوى ليذيقها أقسى معاملة . لم تطلب لنفسها شيئاً عوض آلامها . . ولا هى اعتمدت على عطفه . كما أن طهر حياتها الناصعة خلال هذه السنوات كلها التى نبذت فيها أكسبها شطراً كبيراً من التقدير . ولما لم يعد لديها الآن شىء تضيعه بعد فى نظر البشر ، كما لم يعد لها أمل ولا رغبة فى ربح شىء ، فإن رغبتها الصادقة فى الفضيلة هى التى قادت الشاردة البائسة ثانية إلى الطريق السوى

وقد لاحظ الجميع أنه على حين لاتتطلب « هيستر » لنفسها شيئاً من مباهج الدنيا — إلا تنفس الهواء وكسب لقمتها ولقمة صغيرتها « بورل » بعمل يديها الشريف — فإنها كانت تعترف بأخوتها للبشر جميعاً ، وتسارع إلى إسداء كل معونة لهم فى إمكانها . لم تكن هناك من هى أكثر منها استعداداً لتشرك الفقراء فى القليل الذى تملكه ، وإن سخر منها الشحاذ ذو القلب الحقود لقاء الطعام الذى تحمله بانتظام إلى بابه ، أو لقاء الثياب التى تحوكها الأصابع التى كان فى وسعها حياكة ثوب ملكى . كما لم تكن هناك من تضحى بنفسها أكثر منها إذا ما اجتاح البلاد وباء . ففى كل المصائب — سواء كانت عامة أم خاصة — تجد المنبوذة وقد أوجدت لنفسها مكانا فيها . كانت تحل بالدار المصابة لا باعتبارها ضيفة بل واحدة من أقرب الأهل ، كأنما سواد المصيبة هو الوسيط الذى يسمح لها بمحادثة أخواتها من البشر فتتوهج الشارة القرمزية المطرزة ، تشع عزاء فريداً . صار رمز الخطيئة هو الشمعة فى حجرات المرض ، يلقى بضوئه عبر الزمن أمام المريض المعذب فى أشد حالات عذابه وكربه ، ويرشده إلى موضع قدمه وضوء الدنيا يتزايل بسرعة شيئاً فشيئاً ، وضوء الآخرة لم يبلغه بعد . فى تلك الأوقات العصيبة بدت طبيعة « هيستر » عطوفاً سخية . نبعاً للحنان البشرى لا يغيض .. وفى متناول كل طالب لا يخذله ولا يكل ولا يمل . كان صدرها بشارة عاره أرق وسادة للرأس المحتاج إليها . رسمت نفسها أختاً من « أخوات الرحمة » ، أو فى وسعنا القول إن يد العالم الثقيلة هى التى

رسمتها برغم أن العالم لم يكن ينتظر تلك النتيجة ولا هى انتظرتها . كانت الشارة رمز دعوتها . فقد وجد العالم فيها معونة صادقة .. وحناناً .. وقوة عمل . . وقوة عطف حتى إن أناساً كثيرين رفضوا تفسير الشارة بمغزاها الحقيقى ، بل أشاعوا أنها شارة تحمل معنى القوة . كانت « هيستر براين » قوية — قوة امرأة حانية .

وكنت تجد « هيستر » فى البيوت التى أطفأت نورها المصائب وحسب . فإذا أشرقت الشمس مرة ثانية ، اختفت وذاب ظلها على عتبة الباب وترحل المساعدة الحبيبة دون أى نظرة خلفها اتجنى اعترافاً بالجميل ، إن كان ثمة اعتراف بجميل فى قلوب الذين خدمتهم بحمية وهمة . وكانت إذا لقيتهم بعد ذلك فى الشارع ، لا ترفع رأسها لتتلقى تحيتهم . فإذا أصروا على تحيتها ، وضعت إصبعها على الشارة القرمزية وسارت فى طريقها . ربما كان هذا عن عزة نفس ، لكنها كانت عزة شديدة الشبه بالمذلة حتى إنها أثرت التأثير عينه فى عقل الجمهور . والجمهور مستبد فى عواطفه ، فى إمكانه أن ينكر الحكم العام إذا ألحوا عليه إلحاحاً شديداً كى يتقبله كحق . لكنه كثيراً ما يكافىء بأكثر من الحق والعدل إذا ابتهل المرء إليه مخاطباً كرمه وجوده . وقد فسر المجتمع سلوك « هيستر براين » على أنه ابتهال من هذا القبيل ، وعلى ذلك أكرم ضحيته السابقة بوجه باسم لطيف لعلها لم تطمع فيه ، أو لم تستأهله .

أما حكام المستعمرة وعلماؤها وحكماؤها فقد اعترفوا منذ زمن بعيد

بتأثير سجايا « هيستر » الحميدة في الناس . أما الفكرة السيئة التي شاركوا الناس فيها عن « هيستر » ، فقد قويت لديهم بمنطق حديدي جعل تغييرها أو طرحها عن عقولهم عملا شاقا . ومع ذلك . . ويوماً بعد يوم . . راحت تجاعيد التجهم والغضب تذوب عن جباههم ويحل محلها على مدى السنين تعبير يكاد يكون حانياً عطوفا . هكذا كان حال رجال السلطة الذين يقع على عواتقهم عبء تقويم الأخلاق العامة . أما الناس في حياتهم الخاصة فقد غفروا لـ « هيستر براين » زلتها غفرانا تاما — لا . . بل أكثر من ذلك ، بدأوا ينظرون إلى الشارة القرمزية لا رمزا للعار والخطيئة التي تحملت من أجلها عقابا طويلا أليماً ، بل رمزاً لأعمالها الكثيرة الطيبة . فيقولون للغرباء :

— (أترون هذه المرأة ذات الشارة المطرزة ؟ إنها « هيستر » حبيبتنا — حبيبة البلدة التي تحنو على الفقراء . . وتساعد المرضى . . وتعزى المصاب !)

ثم بعد ذلك . . ولأن الطبيعة البشرية تنزع دائماً إلى فضح أقبح ما فيها إذا كان مجسما في شخص آخر ، يميل أهل البلدة على آذان الغرباء ويهمسون فيها بالفضيحة السوداء التي وقعت للمرأة المنكودة منذ سنوات مضت . ومع ذلك فقد كان للشارة القرمزية في أعين الرجال الذين يهمسون بهذا الكلام ، تأثير الصليب على صدر راهبة ، تضفي على التي ترتديها قداسة تساعدها على السير بأمان وسط المخاطر . فلو أنها سقطت بين أيدي لصوص لحمتها . وهناك إشاعة صدقها كثيرون ، تلك هي أن هندياً أحمر سدد سهماً

إلى الرمز القرمزى وأصابه ، ولـكن السهم سقط على الأرض دون أن يصيب صاحبة الرمز بأذى .

ولـكن تأثير الشارة القرمزية — أو بقول آخر ، تأثير المركز الذى ترمز إليه حيال المجتمع — كان غريباً قويا على عقل «هيستر براين» نفسها. فجفت نضارة شخصيتها المزهرة الرشيقة المرحة — أذبلتها تلك الشارة المحماة كالنار . فتساقطت أوراق نضارتها الخضراء وخلفت عراء جافا ينفر حتى الأصدقاء — لو كان لدى « هيستر براين » أصدقاء أو زملاء — حتى سحر قوامها تغير تغيراً ملحوظاً . ربما عاد ذلك مناصفة إلى صرامة ثيابها القاتمة وإلى التحفظ الشديد فى سلوكها . كما كان تغييراً مؤسفاً أيضاً أن شعرها السخى الغزير بدا وكأنه قص ، فهى تخفيه تماما تحت قلنسوة ولم يحدث مرة أن تدفقت خصلة واحدة تحت نور الشمس . هذه الأسباب كلها مجتمعة (إلى جانب سبب آخر هام) لم تدع فى وجه « هيستر » شيئاً يوحى بالحب . . ولا شيئا فى قوامها — برغم جلاله وجماله — لتضمه الشهوة فى أحضانها . . ولا شيئاً فى صدر «هيستر» يجعله يصلح مرة ثانية وسادة للمحبة والود . فارقتها ميزة كان دوام وجودها أساسا جوهريا لتظل امرأة . ولـكن غالبا ما يكون هذا هو المصير . . وهذا هو التغيير القاسى الصارم فى خلق الأنثى وقوامها عندما تصدم المرأة فى حياتها ، بل عند ما تعيش فى تجربة قاسية . أما إذا كانت كلها رقة وعذوبة ، فإنها تموت . وأما إذا عاشت ، فإن الرقة تسحق فيها حتى تفارقها أو تندثر فى أعماق

أعماق قلبها ، ولا تعود تظهر ثانية أبداً . وهذه النظرية الأخيرة هي الأكثر صدقا . فتلك التي كانت امرأة ذات مرة ثم كفت عن ذلك ، في إمكانها أن تصبح امرأة مرة ثانية . . في أي لحظة . . إذا كانت هناك تلك اللمسة السحرية ليحدث التألق والإشراق . وسنرى هل نالت « هيستر براين » تلك اللمسة السحرية وتألقت ذلك التألق .

ويعود معظم برود « هيستر » الثلجي هذا إلى الظروف وإلى أن حياتها انقلبت انقلاباً كبيراً من الشعور والهيام والوجد ، إلى التفكير . كانت تقف وحيدة في العالم — وحيدة . . دون أي معونة من المجتمع ، بل بمسئولية تنشئة « بورل » الصغيرة ورعايتها ... وحيدة وبلا أمل في استرداد مركزها الأدبي ، وإن لم تهتم باستعادته . فطوحت بشظايا قيد محطم . أضحى قانون العالم لا يمت لقانون عقلها هي بصلة : فقد كان ذلك عهداً تحررت فيه الأذهان عن جدة ونشطت في أفق أوسع من آفاق قرون كثيرة مضت . فطرد رجال السيف ملوكاً وحكاماً . ثم جاء رجال أكثر جرأة من هؤلاء وطردوهم وأعادوا تنظيم مذهب الأفكار القديمة كله ذلك الذي يشمل الكثير من المثل العتيقة — لم يقوموا بذلك فعلا ولكن في دائرة النظريات التي هي في الواقع مقرهم الحقيقي وسكنهم الفعلي وقد تشربت «هيستر براين» تلك الروح . فادعت — فيما بينها وبين نفسها — حرية التفكير والتأمل التي كانت شائعة حينئذ على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي ، والتي لو علم بها آباؤها الأوائل لاعتبروها إثماً أفحش مما اقتضى إلباسها الشارة

القرمزية . ففى كوخها المنعزل على شاطىء البحر ، راودتها أفكار لم تجرؤ على دخول أى سكن آخر فى « انجلترا الجديدة » كلها : أفكار كالأشباح الزائرة الخطيرة خطر الشياطين سواءبسواء ، ولو أن تلك الشياطين ظهرت لها عياناً كما تسمعها تدق على بابها .

ومن الغريب حقا أن الأشخاص الذين تراودهم أجرأ الأفكار هم غالبا الذين يلائمون بهدوئهم المثالى أحكام المجتمع الظاهرة . الفكر يكفيهم ، دون أن يقحم نفسه فى عمل فعلى . هكذا كانت حال « هيستر » . ومع ذلك ، فلو أن الله لم يرزقها بطفلتها « بورل » لكان حالها غير الحال . فحينئذ ربما كان يذكرها لنا التاريخ ويدها فى يد « آن هتشنسون » بوصفها مؤسسة مذهب دينى ، أو ربما صارت فى أحد أطوارها ، نبية مرسلة ، أو ربما عاقبها بالموت قضاء تلك الحقبة الصارم لمحاولتها هدم أسس الشيعة « البيوريتانية » . ولكن حماسة الأم للفكر وجدت فى تنشئة طفلتها وفى تعليمها مخرجاً للتنفيس عن نفسها . فقد وضعت الأقدار فى شخص تلك البنت الصغيرة جرثومة الأنوثة وازدهارها لتتكفلها « هيستر » وترعاها وسط حشد من الصعاب والمتاعب . كان كل شىء ضدها . الدنيا معادية .. وطبيعة الطفلة نفسها كانت مخالفة تشير دائماً إلى أنها ولدت عن خطأ — عن فيض شهوة محرمة تملكت أمها — حتى اضطرت « هيستر » مراراً إلى التساؤل بقلب مرير مكلوم : هل كانت ولادة تلك المخلوقة الصغيرة البائسة للخير أو للشر .

بل كثيراً ما هب السؤال القاتم يرن في عقلها بخصوص النساء جميعاً . أتستحق الحياة أن ترضى بها امرأة — وإن كانت أسعد النساء ؟ أما فيما يتعلق بها هي فقد أجابت منذ زمن بعيد بالنفي ، واعتبرت المسألة منتهية عند ذلك الحد . والميل للتأمل والتفكير وإن جعل المرأة هادئة كما يفعل بالرجل فإنه يحزنها . فلعلها تكتشف أن عليها مهمة لا أمل في إنجازها . فترى أن أول خطوة يجب عليها أن تخطوها هي هدم نظام المجتمع كله ثم بناؤه من جديد . وبعد ذلك يجب أن تتغير طبيعة الجنس الآخر وعاداته الموروثة التي أضحت وكأنها طبيعة فيه قبل أن يسمح للمرأة أن تتبوأ مركزاً عادلا يليق بها . وأخيراً . . وبعد أن تتفادى الصعاب الأخرى كلها ، لا تستطيع المرأة أن تستفيد بهذه التحسينات والتعديلات التمهيدية حتى تمر هي نفسها بتغيير أقوى . وإن مرت به ، وجدت أن جوهر نفسها الذي هو لب حياتها الحقيقية ، قد تبخر . فالمرأة لا تتغلب قط على هذه المشكلات بتمرين فكرها . لن تتغلب عليها أبداً هكذا ، كذلك لن تحلها بطريقة واحدة . فإذا قدر لقلبها السيادة ، تلاشت تلك المشكلات . وهكذا هامت « هيستر براين » بلا هدف ولا دليل في تيه العقل ، بعد أن أضاعت خفقات قلبها المنتظمة الطبيعية ، فهي آناً تدور إلى جانب إذا صادفها منحدر لا تملك أن تتخطاه ، وتعود أدراجها آنا آخر إذا التقت بهوة فاغرة فاها . كانت المناظر الرهيبة المتوحشة تحيط بها في كل مكان ، ولا تجد لها بيتاً ولا راحة في أي مكان . فكان يتملكها أحيانا شك مرعب ، هل يكون من

الخير قتل « بورل » من فورها لتصعد إلى السماء ثم تلحق هى بها إلى حيث القضاء الخالد العادل .

لا . لم تقم الشارة القرمزية بمهمتها .

ولكن مقابلتها للسيد « ديمسدال » فى ليلة تهجده واستغفاره أوحت إليها الآن بموضوع جديد للتفكير والتأمل ، وأدلت أمام عينيها بهدف يستحق الجهد والتضحية لبلوغه . لمست الأسى الحاد المرير الذى ينوء القس بالنضال تحت وطأته ، أو بقول أصح ، قد توقف عن النضال بسببه ، رأته على وشك الجنون ، إن لم يكن قد جن فعلاً . كان من العسير الشك فى أن أى فائدة أليمة نتجت عن وخز الندم الدفين قد اندس فيها سم أشد فتكاً — دسته اليد عينها التى قدمت له النجدة والراحة . هناك عدو خفى ظل إلى جواره فى ثوب الصديق الودود ، وهكذا استفاد من الفرص التى أتيحت له كى يعبث بالأوتار الرقيقة فى طبيعة السيد «ديمسدال» فلم تمالك هيستر أن تمسك عن معاتبة نفسها وسؤالها ألم تكن قد أتت شيئاً نكراً بعدم وفائها وعدم شجاعتها عندما أخفت الحقيقة عن القس وتركته يقع فى مركز محفوف بالمخاطر والشرور بلا أمل مشرق فى خير . وكانت حجتها الوحيدة أنها لم تجد منجاة له من الدمار الأسود الذى حل بها إلا بموافقة « روجر شيلينجورث » على خطته للتخفى . تحت هذا الدافع قررت واختارت ، لكنها فيما يبدو اختارت الطريق الأشد تعاسة والأدهى شراً . فعولت على معالجة خطئهاما وسعها . وشمرت — وقدقوتها

سنوات التجربة الطويلة الشاقة — أنها كفء لمنازلة «روجر شيلينجورث» وأنها غير من كانت فى تلك الليلة البعيدة التى تحدثا فيها معاً فى حجرة السجن وقد أذلتها الخطيئة وأطاش لبها الخزى الذى كان بعد جديداً حاداً. لقد جاهدت منذ ذلك الوقت لتصعد درجة درجة إلى نقطة أعلى. أما الرجل الهرم فقد هوى بنفسه إلى مستواها . . . أو ربما إلى مستوى أقل منها بالانتقام الذى حنى رأسه نيتمه .

خلاصة القول ، أن « هيستر براين » قررت مقابلة زوجها السابق وعمل ما فى وسعها كله لإنقاذ الضحية التى يقبض عليها بمخلبيه . ولم تبذل مجهوداً كبيراً لتتاح لهـا الفرصة المرجوة . فذات عصر وهى سائرة مع « بورل » فى منطقة منعزلة من شبه الجزيرة ، لمحت الطبيب الهرم يحمل سلة بيد ويتوكأ على عصا بالأخرى ثم ينحنى بين الفينة والفينة يلتقط أعشاباً ويقتلع جذوراً يصنع منها عقاقيره .

الفصل الرابع عشر

« هيستر » والطبيب

طلبت « هيستر » من « پورل » أن تركض إلى الشاطئ وتلهو بالأصداف وعشب البحر المتكاثف حتى تتحدث هى بعض الوقت مع جامع الأعشاب ذاك . فطارت الطفلة بعيداً كالعصفورة ، وعرّت قدميها الصغيرتين البيضاوين واندفعت تخفق بقدميها على حافة البحر الرطبة المبللة . ثم تتوقف تماماً هنا .. وهناك .. وتحدق بفضول فى بحيرة صغيرة تركتها الموجة المتقهقرة مرآة لترى فيها « پورل » وجهها فتطل عليها من مرآة البحيرة صورة بنت صغيرة بخصلات سوداء لامعة حول رأسها وبابتسامة شيطانية فى عينيها . فتدعوها « پورل » كى تمسك بيدها وتسابقها ، فليس لها صديقة تلهو معها . ولكن بنت المرآة الخيالية تومئ بدورها كما تومئ « پورل » كأنما لتقول :

— « هنا مكان خير مما تدعيننى إليه ! تعالى أنت معى داخل البحيرة ! » .

فتخطو « پورل » إلى ركبتيها داخل البحيرة لترى فى القاع قدميها هى البيضاوين ، على حين تطفو إلى السطح من عمق بعيد ابتسامة مشرقة تتكسر على الأمواج المتلاطمة .

وكانت أمها أثناء ذلك قد التقت بالطبيب وقالت له :

— « أود أن أقول لك كلمة — كلمة تخصنا نحن الإثنين ! » .

فأجابها وهو يرفع نفسه من انحناءة على الأرض :

— «أهذه هى السيدة «هيستر» التى لها كلمة مع «روجر شيلينجورت» الهرم ؟ بكل ترحاب ! إننى أسمع أخباراً طيبة عنك من كل الجهات ؛ فنى مساء أمس عينه راح قاض حكيم ورع يتحدث عن أعمالك وخدماتك يا سيدة « هيستر » وهمس لى أن قضيتك أثيرت مرة ثانية فى مجلس القضاة وكانت المناقشة التى دارت تتعلق بتلك الشارة القرمزية وهل يكون من الخير رفعها عن صدرك أولا ، دون إخلال بسلامة الأمن العام ، وأقسم بحياتى يا « هيستر » إننى ابتهلت إلى القاضى المبجل كى يسارع برفعها ! » .

فأجابت « هيستر » بهدوء :

— « ليس الأمر بيد القاضى . فلو أننى أستحق رفعها عن صدرى لرفعت هى عنه من تلقاء نفسها ، أو لتحولت إلى شىء يرمز إلى مغزى آخر ! » .

فقال هو :

— « إذن ضعيها على صدرك مادام هذا يرضيك . فالمرأة تتبع دائماً ما يوحى به خيالها فيما يتعلق بزينتها . والشارة والحق يقال ، مطرزة تطريزاً متقناً وتتوهج بشجاعة على صدرك ! » .

وطوال هذا الوقت ، لم ترفع « هيستر » عينيها عن الرجل الهرم . فدهشت بل صعقت للتغيير الهائل الذى حل به خلال السنوات السبع الأخيرة — لا لأنه أو غل فى العمر ، فبرغم التجاعيد الظاهرة التى خطها الزمن كان نشيطاً قوياً . ولكن مظهر الرجل العالم البحاثة الذى تذكره له جيداً فارقه تماماً ، وخلفه تعبير متلهف منقب يكاد يكون شرساً لكنه حذر فى الوقت عينه . وبدا وكأنما هدفه أن يخفى ذلك التعبير بابتسامة ، لكنها راوغته وخدعته ، فهى تتلاعب على سحنته بسخرية واستهزاء حتى ليرى المرء سواد قلبه أكثر وضوحاً بسببها . كما كان يشع دائما أبداً من عينيه بريق أحمر ، كأنما تحترق روح الرجل الهرم فى صدره على الدوام حتى إذا أفلت منه زمام انفعاله ، هبت مندلعة ترسل لهباً مؤقتاً من عينيه . فيصده بسرعة ويجاهد كى يبدو كأنما لم يحدث شىء قط من هذا القبيل .

خلاصة القول ، كان « روجر شيلينجورث » الهرم دليلاً وثيقاً على قدرة المرء على إحالة نفسه شيطاناً إذا قام — فترة كافية — بدور الشيطان. فقد نجح ذلك الإنسان البائس فى هذه الإحالة بتكريس جهوده ونفسه مدى سبع سنوات لتحليل قلب يجيش بآلام وعذاب ، تحليلاً منتظماً متصلاً ، ويستمد سعادته من ذلك بل إنه كان يزيد تلك الآلام النارية اشتعالاً .

كانت الشارة القرمزية تحترق على صدر «هيستر براين» . وهذا خراب آخر تعود مسئوليته عليها إلى حد ما .

وسألها الطبيب :

— « ماذا ترين فى وجهى حتى إنك تحملقين فيه هذا بلهفة » ؟

فأجابته :

— « أرى شيئا يستدر دموعى . . لو كانت لدى دموع مريرة كما يستحق . ولكن . دعنا من ذلك ! فإننى أريد أن أتحدث إليك عن هذا الرجل البائس » !

فصاح « روجر شيلينجورث » ملهوفاً كأنما يستهويه الموضوع وتسمده أى فرصة للخوض فيه ومناقشته مع الإنسانة الوحيدة التى يستطيع أن يثق بها .

— « ماذا عنه ؟ لا أخفى عنك ياسيدة « هيستر » أننى كنت أفكر الآن فى هذا السيد المحترم . فتكلمى إذن بصراحة . . وسأجيبك أنا ! »

فقالت « هيستر » :

— « عندما تحدثنا معاً آخر مرة منذ سبع سنوات اخترت أنت أن تقيدنى بوعد لإخفاء سر علاقتي السابقة بك . ولما كانت حياة ذلك الرجل وسمعته بين يديك ، لم أجد مفراً من الصمت كما طلبت منى . لكننى لم أقيد نفسى بذلك الوعد دون شكوك كثيرة ثقيلة أرهقتنى ، لأننى وقد طوحت بكل التزامات تربطنى بالبشر جميعاً ، بقى على واجب نحوه . وقد همس لى صوت أن وعدى لك يعتبر خيانة له . فمنذ ذلك اليوم لا يوجد من

هو أقرب إليه منك . فأنت تتلصص خلف كل خطوة من خطواته وأنت بجواره سواء كان نائماً أم مستيقظاً . أنت تنبش فى أفكاره . . وتحفر . . وتنقب . وتحرق قلبه ! فحياته فى قبضتك وأنت تميته كل يوم ميتة وهو حى — ومع ذلك فهو لا يعرف شخصيتك . ولأننى أرى هذا وألتزم الصمت ، فأنا دون شك قد خدعت الرجل الوحيد فى العالم الذى بقيت لى قوة كى أخلص له ! » .

فسألها « روجر شيلينجورث » :

— « أكان لك الخيار ؟ إصبع واحدة أشير بها إلى ذلك الرجل تقذف به من علياء منبره إلى سجن مظلم ، ومن هناك . . بلا ريب . . إلى المشنقة ! » .

فقالت « هيستربراين » :

— « لو أن هذا حدث ، لكان أفضل له ! »

فسألها « روجر شيلينجورث » مرة ثانية :

— « أى شر أوقعته أنا به ؟ صدقينى يا « هيستربراين » أننى أوليت هذا القس البائس عناية لم تكن لتوليه إياها كنوز ملك ! فلو أننى لم أعتن به لاحترقت حياته فى آلام وعذاب خلال السنتين الأوليين من جريمتكما المشتركة . فإن روحه يا « هيستر » ليست قوية كروحك التى تحملت عبء شارتك القرمزية . فى وسعى أن أكشف عن سر عظيم ! ولكن . .

كفى ! لقد استخدمت على كله وفنى من أجله فهو يدين لى بأنفاسه وبزحفه على الأرض إلى اليوم ! » .

فقالت « هيستربراين » :

— « ليته مات من فوره ! »

فصاح « روجر شيلينجورث » الهرم وقد ترك نار صدره ترسل لهباً من عينيه :

— « أجل يا امرأة ... إنك تقولين صدقاً ! ليته مات من فوره ؟ فليس هناك بشر تحمّل مثل آلامه — .. وكلها .. أمام عينى ألد أعدائه ! لقد شعر بى ، شعر دائماً أن هناك تأثيراً قوياً يكمن فوقه كاللعنة . كان يعلم بإحساس روحانى أن اليد التى تلعب على أوتار قلبه ليست يداً صديقه ، وأن العين التى ترقبه بفضول كانت تنقب عن الشر وحسب وقد وجدته ! ولـكنه لم يعلم أن تلك اليد وتلك العين كانت يدى أنا .. وعينى أنا ! ولما كان يؤمن بالأوهام والخرافات كإخوانه القساوسة فقد أيقن أن الشيطان تولاه .. يعذبه بأحلام مفزعة . وأفـكار قانطة .. وندم لاذع . وباليأس من المغفرة .. مذاقاً لما سيلقاه بعد فى الجحيم ! كل ذلك سببه وجودى معه ! التصاقه بالرجل الذى أساء إليه بخسة أكبر إساءة ! الرجل الذى أضحى لا يعيش إلا بهذا السم الدائم الذى يسقيه إياه فى أكثر ألوان الانتقام شراسة ! أجل ... لم يخطىء الرجل — فعند مرفقه شيطان حقاً ! رجل من البشر كان له يوما قلب .. لـكنه أضحى شيطاناً خصص له ليعذبه ! .

ورفع الطبيب التعيس يديه بنظرة رعب وهو يتفوه بتلك الكلمات ، كأنما رأى شبحاً مخيفاً لم يتعرف عليه وقد انعكس من مرآة بدلا من صورته . كانت إحدى تلك اللحظات التى تقع أحياناً فى مدى سنوات طويلة ، عندما تنكشف بأمانة لعقل رجل أخلاقه الحقيقية . وليس يستبعد أن يكون الرجل لم ير نفسه قط من قبل كما رآها الآن .

فقالت « هيستر » وقد لحظت نظرة الرجل :

— « ألم تعذبه بما فيه الكفاية ؟ ألم يدفع لك دينه كله ؟ »

فأجاب الطبيب :

— « لا . . لا ! بل أضاف إليه — أربى على دينه ! »

ثم استطرد وقد سكنت شراسته وأضحت كآبة وغماً :

— « ألا تذكرين كيف كنت منذ تسعة أعوام ؟ كنت حينئذ فى خريف عمرى ، ولم يكن خريفاً فى أوائله . فحياتى كلها كانت سنوات هادئة من علم .. وفكر . . وجـــد ، وهبتها بإخلاص لزيادة معارفى وعلومى ، وبإخلاص أيضاً من أجل رقىّ الجنس البشرى . ليس هناك حياة هادئة ظاهرة كحياتى .. وحيوات قليلة تلك التى تحاكيها فى الخدمات التى أدتها. ألا تذكريننى ؟ ألم أكن — مهما اعتبرتنى رجلاً بارداً — شديد الاهتمام مع ذلك بالغير . . قليل الاهتمام بنفسى وبمطالبها ، حنوناً .. ومخلصاً . . وعادلاً . وذا عواطف ثابتة ، إن لم تكن دافئة .. ألم أكن كل هذا ؟ »

فقالت « هيستر » :

— « كل هذا ... وأكثر ! »

فسألها وهو يحملق فى وجهها وقد سمح لشروره كلها أن ترتسم على قسمات سحنته .

« وماذا أنا الآن ؟ لقد قلت لك من فورى : شيطان ! ومن جعلنى شيطاناً ؟ »

فصاحت « هيستر » وهى ترتعد :

— « أنا ؟ أنا ! أنا وهو . . سواء بسواء ! لماذا لم تنتقم منى ؟ »

فأجاب « روجر شيلينجورث » :

— « لقد تركتك للشارة القرمزية ! فإذا لم تكن قد انتقمت لى ، فليس لدىّ ما أفعله أكثر منها ! »

ووضع إصبعه عليها بابتسامة .

فأجابت « هيستر » .

— « لقد انتقمت لك ! »

وقال الطبيب :

— « صدق حدسى إذن ! والآن . . ماذا لديك تقولينه لى خاصا بهذا الرجل ؟ »

فقالت « هيستر » بحزم :

— « يجب أن أفشى السر ! يجب أن يراك بشخصيتك الحقيقية . لست أدرى ماهى النتيجة ، ولكن دين الثقة الطويل هذا الذى أدين له به

أنا . . سبب ضره وهلاكه — يجب أن أوفى به فى النهاية . أما ما يتعلق بحفظ سمعته الطيبة أو إهدارها . . وحالته الصحية بل حياته نفسها — فكلها أشياء بين يديك أنت . ولن تجدنى أركع وأبتهل طالبة الرحمة منك — فأنا . . . أنا من حرقتها الشارة القرمزية وعودتها ضبط النفس والحق . . والصدق — وإن كان صدق الحديد المحمى الذى تتلظى فيه الروح — لا أرى فائدة ما من حياة فارغة مخيفة كحياته . افعل به ما شئت فليس هناك أى خير له . . ولا لى . . ولا لك ! بل ليس هناك خير للصغيرة « بورل » ! ليس هناك طريق يقودنا خارج ذلك الضلال المظلم الكئيب !

فصاح « روجر شيلينجورث » وفى صوته رنة إعجاب مرتعشة ، إذ كان فى يأسها جلال وهيبة :

— « إننى أعطف عليك يا امرأة ! لك صفات مجيدة حقاً ! لو أنك التقيت بحبٍّ خير من حبى فلربما لم يقع الشر الذى وقع . إننى آسف لك . وأشفق عليك — للخير الذى ضاع سدى فيك ! » .

فأجابت « هيستر براين » :

« أنا أيضاً أشفق عليك — للحقد الذى جعل رجلاً عادلا حكيماً يستحيل شيطاناً ! ألا تلقى بهذا الحقد عنك وترتد إنساناً مرة ثانية ؟ إن لم يكن من أجله هو ، فمن أجل نفسك أنت ! اغفر ودع ما بقى من قصاص للقوة الإلهية التى لها الحق فيه ! لقد قلت لك من فورى أن لا خير هناك يرجى له . . ولا لى . . ولا لك — نحن الذين نتخبط جميعاً فى ضلال هذا

الشر المظلم ونتعثر مع كل خطوة فى الخطيئة التى فرشنا بها طريقنا . ولـكن ليس الأمر كذلك حقاً ! فربما كان هناك خير لك بعد — لك وحدك لأنك أنت الشخص الذى أسىء إليه ، وفى يدك أن تعفو . أتنزل عن هذا الامتياز ؟ أتطيح بتلك الفائدة التى لا تقدر بثمن ؟ .

فأجابها الرجل الهرم بصراحة مكتئبة :

— « صه يا « هيستر » ... صه ! ليس العفو فى يدى ! ليست لدى تلك القوة التى تتحدثين عنها ! فإعانى القديم الذى نسيته منذ زمن بعيد يعاودنى الآن ويفسر لى أعمالنا كلها .. وآلامنا كلها . فأول خطـــوة خطوتها أنت فى طريق الانحراف ، زرعت جرثومة الشر . ومنذ تلك اللحظة صار كل ماحدث ضرورة سوداء . فأنت يامن أسأت إلىَّ لست مذنبة إلا من وجهة نظر وهمية ، كما أننى لا أحاكى شيطانا لأننى انتزعت مهنة الشيطان من بين يديه ! هذا قدَرنا . كتب علينا . دعى الوردة السوداء تزدهر كيفما شاءت ! فاذهبى الآن وتصرَّفى كيفما شئت حيال ذلك الرجل ! »

ولوح بيده وأكب مرة ثانية يجمع أعشاب الغابة .

الفصل الخامس عشر

« هيستر » و « بورل »

وهكذا ودع « روجر شيلينجورث » — الرجل الهرم القمئ — الذى له وجه يطارد ذاكرة الناس أطول مما يحبون — ودع «هيستر براين» وسار منحنياً على الأرض يلتقط عشباً من هنا . . وعشباً من هناك . . أو يقتلع جذراً ويضعه فى السلة المعلقة بذراعه ، ولحيته الرمادية تكاد تلمس الأرض وهو يزحف فى تقدمه . فراحت « هيستر » تتأمله فترة أخرى يخامرها فضول غريب لترى هل تذبل حشائش الربيع الغضة تحت قدميه وتترك أثراً بنياً يابساً بين خضرته المنعشة البهيجة . ودّت لو عرفت أى أعشاب تلك التى يكب مجداً يجمعها . ألا تستثار الأرض نحو هدف شرير وقد وقعت عليها عينه — فتحييه بأعشاب سامة لم تعرف من قبل لكنها تنمو فجأة تحت أصابعه ؟ أو لعله يكفيه أن كل نبت صحى سليم يتحول بلمسته إلى شىء خبيث سام ؟ والشمس التى تنير الدنيا جماء ببهجتها — أتقع حقاً عليه ؟ أو هناك دائرة من ظل قاتم مشئوم تحيط به وتتحرك مع قماءته أينما سار ؟ وأين هو ذاهب الآن ؟ ألا يهوى إلى باطن الأرض فجأة ويخلف وراءه بقعة قاحلة جدباء تنمو فيها ، بمرور الزمن ، ألوان وألوان من الأعشاب السامة الخبيثة تزدهر كلها بخصوبة وكثافة رهيبة ؟ أو ربما

بسط جناحى خفاش وطار بعيداً ، يزداد قبحاً كلما ارتفع نحو السماء ؟

ثم قالت « هيستر براين » بمرارة وهى تتأمله من بعيد :

— « سواء كان إثماً أم لم يكن — أنا أمقت الرجل ! » .

ثم عاتبت نفسها على ذلك الشعور ، لكنها لم تملك له دفعاً ولا تقليلا . ولما حاولت ذلك ، تذكرت الأيام الغابرة . . فى بلاد بعيدة . . عندما كان يدلف فى المساء خارج مكتبته المنعزلة ويجلس فى نور ابتسامتها إلى جوار مدفأة بيتها . كان يقول لها إنه محتاج دائماً أن يدفىء نفسه بتلك الابتسامة حتى تذوب عن قلبه قشعريرة ساعات طويلة وحيدة أمضاها مع كتبه . وكانت تلك المشاهد يومئذ لا تبدو لها إلا سعيدة هانئة . لكنها الآن ، وهى تنظر إليها خلال حياتها الكئيبة الراهقة ، صارت من أقبح ذكرياتها فعجبت كيف عاشت فى تلك المشاهد ! بل عجبت من نفسها كيف أثر فيها الرجل حتى تزوجته ! اعتبرت أكبر خطيئة فى حياتها احتمالها قبضة يده الفاترة والصبر على إذابة ابتسامتها ونظرة عينيها فى ابتسامته هو ونظرة عينيه. أما « روجر شيلينجورث » فكانت أقذر إساءة اقترفها فى عمره هى انتهاز فرصة صفاء قلبها الغر وإقناعه إياها أنها سعيدة إلى جواره .

وكررت « هيستر » بمرارة أكثر من الأولى :

— « أجـــــل .. إننى أمقته ! لقد خدعنى ! لقد أساء إلى أكثر مما أسأت إليه ! »

فليرتعد الرجال الذين يكسبون يد المرأة دون قلبها كله :. وحبه كله

ونشوته كلها ! وإلا كان نصيبهم التعيس كنصيب «روجر شيلينجورث» عندما توقظ لمسة أقوى من لمساتهم إحساساتها كلها ، فتماتبهم على الرضا الهادىء . . على صورة السعادة الثلجية التى فرضوها عليها وأقنعوها أنها الحقيقة الدافئة الحارة . ولكن كان واجب « هيستر » أن تطيح بذلك الظلم منذ أمد بعيد . إلى أى شىء يشير هذا ؟ هل أنزلت بها سبع سنوات طويلة ، تحت عذاب الشارة القرمزية ، شقاء وتماسة لكنها لم تدفعها للندم ؟ .

ألقت مشاعر تلك الفترة القصيرة و « هيستر » واقفة تتأمل « روجر شيلينجورث » الهرم بقامته القميئة — ألقت ضوءا قاتما على حالتها العقلية وكشفت لها كثيراً لم تكن لتعترف به لنفسها فى ظروف أخرى .

فلما اختفى عن ناظريها ، صاحت تنادى طفلتها :

— أى « بورل » . . . « بورل » ياصغيرتى — أين أنت ؟ .

ولما كانت حيوية « بورل » لا تفتر قط ، فإنها لم تتحير فى تسلية نفسها ، وأمها تتحدث إلى جامع الأعشاب . وكما قلنا فيما سلف ، راحت تغازل خيالها فى بحيرة صغيرة من ماء البحر وتشير إليه أن يخطو خارجاً إليها . فلما لم يستجب لها حاولت هى أن تشق لنفسها طريقاً تنفذ منه إلى عالمه حيث هو . . . فى أرض لايدرك كنهها . . وسماء لا يبلغ مداها . لكنها عندما اكتشفت أنها إما أن تكون هى الزائفة أو أن خيالها هو

الزائف ، استدارت ناحية أخرى تبحث عن تسلية أفضل . صنعت قوارب من لحاء الشجر وحملتها أصدافا ، وجازفت بإرسالها فى رحلات خطيرة عبر الخضم العظيم أكثر من أى تاجر آخر فى « انجلترا الجديدة » !. ولكن معظم تلك القوارب غرقت عند الشاطىء . وأمسكت بسمكة من ذيلها . . وصادت الكثير من نجوم البحر . . ووضعت واحدة من السمك الهلامى لتذوب تحت وهج الشمس الحارة . وبعد ذلك ملأت حفنتيها بزبد البحر وألقته فى وجه الهواء ثم أسرعت خفيفة تركض خلفه بخطوات كأنما نبتت لها أجنحة — لتمسك برذاذ الزبد المتساقط . ولما لمحت سرباً من طيور البحر التى كانت تأكل وتضرب بأجنحتها على طول الشاطىء ، ملأت الطفلة الشيطانة حجرها بحجارة وحصى وراحت تتسلل من صخرة إلى أخرى خلف طيور البحر الصغيرة هذه وأظهرت براعة مدهشة حقاً فى إصابة الهدف . وتكاد « بورل » تجزم أن حصاة أصابت طيراً رمادياً صغيراً له صدر أبيض فطار بجناح مكسور . ولكن الطفلة الجنية سرعان ما سئمت تلك اللعبة وتركتها متنهدة . فقد آلمها أنها آذت مخلوقاً صغيراً منطلقاً كالصغيرة « بورل » نفسها ! .

وكان آخر ما شغلت به نفسها هو جمع ألوان مختلفة من عشب البحر صنعت منه وشاحاً لها . . ومعطفاً . . وغطاء للرأس لتبدو كحورية صغيرة من حوريات البحر ، وقد ورثت عن أمها فن ابتكار الأزياء . فلما فرغت « بورل » من ارتداء زى حورية البحر ، التقطت بعض الأعشاب الملتوية

وقلدت فوق صدرها الحلية التى ألفت أن تراها على صدر أمها . الشارة . . لكنها خضراء ناضرة لا قرمزية ! وأمالت الطفلة ذقنها على صدرها ، تتأمل الحلية باهتمام غريب ، كأنما لم تبعث إلى هذه الدنيا إلا لإبراز معناها الخفى وسألت « بورل » نفسها :

— « ترى . . أتسألنى أمى عن معناها ؟ » .

وسمعت تلك اللحظة صوت أمها فانفلتت بخفة كأحد طيور البحر وظهرت أمام « هيستر براين » ترقص . . وتضحك . . وتشير بإصبعها إلى الحلية التى وضعتها على صدرها .

فقالت « هيستر » بعد لحظة صمت :

— « أى صغيرتى « بورل » . إن الشارة الخضراء . . على صدرك الصغير لا تحمل أى معنى . ولكن ، أتعرفين يا طفلتى معنى الشارة التى قضى على أمك بارتدائها ؟ » .

— « أجل يا أمى . أعرف ! فلقد علمتنى أنت الحروف الأبجدية فى كتاب القراءة الأولية ! »

فنظرت « هيستر » بثبات فى وجهها الصغير . ولكن برغم ذلك التعبير الفريد الذى كثيراً ما تبينته فى عينيها السوداوين ، فإنها لم تقطع برأى فى كون « بورل » تفهم حقاً مغزى الشارة القرمزية .

شعرت برغبة مكتئبة فى أن يتأكد لها الأمر :

— « أتعلمين يا صغيرتى لماذا ترتدى أمك هذه الشارة ؟ »

فأجابت « بورل » وهي تنظر بذكاء في وجه أمها :

— « طبعاً أعرف — للسبب عينه الذي يدفع القس إلى وضع يده فوق قلبه ! »

فسألتها « هيستر » وابتسامة تتلاعب على فمها لتخبط الطفلة الشاذ فيما تلاحظ . لكنها عادت ، بعد أن فكرت لحظة وقد غشى وجهها شحوب ، تسألها :

— « ما شأن الشارة بأي قلب آخر غير قلبي ؟ »

فقالت « بورل » بجد لم تعتده في حديثها :

— « لا يا أمي . لقد قلت كل ما أعرف . اسألي هذا الرجل الهرم الذي كنت تتحدثين إليه . ربما استطاع أن يجيب . ولكن يا أمي العزيزة .. قولي لي جادة : ماذا تعني تلك الشارة القرمزية ؟ ولماذا تضعينها على صدرك ؟ ولماذا يضع القس يده فوق قلبه ؟ »

وأخذت يد أمها بين يديها كلتيهما وراحت تطيل النظر في عينيها بلهفة واهتمام قلما بدا في طبعها المتقلب المنطلق . فظنت « هيستر » أن الطفلة ربما تسعى حقاً للتقرب منها بثقة الطفولة وأنها تفعل ما في وسعها وبالذكاء الذي تعرفه حتى تلتقي كلتاهما في نقطة مشتركة من عطف وتحنان . فأظهر ذلك « بورل » في مظهر شاذ .. غريب ، لأن الأم حتى ذلك الوقت كانت تسبغ حبها كله على طفلتها ولا تنتظر مبادلة لعاطفتها أكثر مما تنتظره من نسمة شهر « إبريل » المشاكسة التي تمضي وقتها في عبث

ومداعبة . ثم تهب عاصفة فى اندفاع مبهم . وهى عنيدة متقلبة فى أحسن حالاتها ، وتبعث فيك بقشعريرة أكثر مما تلاطفك إذا أنت فتحت لها صدرك . ثم بعد ذلك ، كأنما تعوضك عن ذنوبها تلك ، تهب بدافع غامض من دوافعها فتقبل خدك برقة مترددة عذبة وتداعب شعرك بحنان ، ثم تتركك وتذهب لشأنها ولهوها التافه بعد أن تخلف فى قلبك بهجة حالمة .

كان هـــذا تقدير الأم لطبيعة طفلتها . فقد يرى أى شخص آخر فى الطفلة صفات قليلة لكنها مقيتة ويحكم عليها حكماً قاتماً . ولـكن « هيستر » راودتها الآن فـكرة قوية تلك هى أنه ربما كانت « بورل » قد وصلت بنضجها المبـكر وفطنتها المدهشة إلى السن التى يستطيع المرء فيها أن يجعل منها صديقة يثق بها ويفضى إليها بأحزان أمها ، دون خدش حياء الأم والطفلة . فبين الارتباك الذى يسود طبيعتها ، بدأت تبزغ فى وضوح صفات عدة أساسية ثابتة : شجاعة جسور وقوة إرادة حديدية .. وعزة نفس شديدة (يمكن تهذيبها حتى تصير احتراماً للنفس) .. ثم احتقار مرير لأشياء كثيرة قد يجدها المرء ، إذا تمعن فيها ، زائفة حقاً وخداعة . كما كانت لها مشاعر وعواطف ، وإن كانت حتى ذلك الوقت لاذعة تشوبها غضاضة كمذاق الفاكهة الفجة . فقالت « هيستر » لنفسها إن الطفلة بهذه السجايا الحميدة كلها لا بد أن تنبثق منها امرأة فاضلة ، إلا أن تـكون قد ورثت من أمها شراً عظيما .

وكان أبرز ما يميز « بورل » ميل مقدر إلى التحويم حول لغز الشارة القرمزية . فمنذ الفترة الأولى من حياتها وهى تقوم بذلك كأنها مهمة نصبت

لها . وكثيراً ما خطر لـ « هيستر » أن للقدر خطة عادلة للقصاص منها بمنحه الطفلة تلك النزعة الفريدة . ولـكن لم يخطر ببالها قط أنه ربما ارتبط بتلك الخطة أيضاً غرض هدفه الرحمة والإحسان . فإذا عوملت « بورل » الصغيرة بثقة وإيمان كأنها رسول روحانى كما هى طفلة بشرية ، أفلا يمكن أن تصبح مهمتها أن تذيب الحزن الذى يجثم فى قلب أمها فيحيله إلى قبر ؟ وتعينها على التخلص من شهوتها الطائشة التى لا هى ماتت ولا هى نامت لـكنها مسجونة وحسب فى ذلك القلب الذى يشبه القبر ؟ .

هذه بعض الأفـكار التى راودت عقل « هيستر » بحيوية ووضوح كأنما همس بها إنسان فى أذنها . ثم هاهى ذى « بورل » وقد وقفت طوال هذا الوقت تمسك بيد أمها بين يديها كلتيهما وترفع وجهها إليها ، على حين راحت تـكرر أسئلتها هذه مرة بعد مرة :

— « ما معنى هذه الشارة ياأمى ؟ ولماذا تضعينها على صدرك ؟ ولماذا يضع القس يده على قلبه ؟ » .

فسألت « هيستر » نفسها :

— « بماذا أجيبها ؟ لا ! إذا كان هذا هو ثمن حنان الطفلة لى ، فلن أستطيع أداءه ! » .

ثم تـكلمت بصوت عال . . قالت :

— « أى « بورل » السخيفة ! ماتلك الأسئلة ؟ هناك أشياء كثيرة فى هذه الدنيا يجب على طفلة ألا تستفهم عنها . ماذا أعرف أنا عن قلب

القس ؟ أما فيما يتعلق بالشارة القرمزية ، فأنا أرتديها من أجل خيوطها الذهبية الجميلة ! » .

وخلال السنوات السبع الأخيرة لم يحدث قط أن خانت « هيستر » الرمز الموضوع على صدرها . ربما كان طلسما لروح جاد صارم لكنه حارس أمين وقد تخلى عنها الآن . فبرغم رقابته الصارمة على قلبها ، تسلل شر جديد إليه ، أو لعل الشر القديم لم يفارقه قط . أما « بورل » فسرعان ما فارقت وجهها اللهفة والاهتمام .

ومع ذلك لم ترض الطفلة أن تدع الموضوع جانباً . فمرتين أو ثلاث مرات بينما هي عائدة في صحبة أمها إلى البيت . . ومرتين أو ثلاث مرات أيضاً أثناء تناولهما العشاء . . ثم بينما كانت « هيستر » تضمها في الفراش ثم مرة أخرى بعد أن كادت تستغرق في النوم ، رفعت « بورل » وجهها ، والخبث يبرق في عينيها السوداوين وهي تقول :

— « أمي . . . إلى أي شيء ترمز الشارة القرمزية ؟ » .

وفي الصباح ، كان أول دليل على استيقاظها هو أن رفعت رأسها عن المخدة وسألت الشطر الآخر من سؤالها الذي ربطته بتحرياتها في شأن الشارة القرمزية :

— « أمي . . أمي ! لماذا يضع القس يده فوق قلبه ؟ »

فأجابت أمها بخشونة لم تسمح لنفسها قط من قبل أن تخاطبها بها :

— « أمسكي لسانك أيتها الطفلة العفريتة ! لا تضايقيني . . . وإلا حبستك في الحجرة المظلمة ! » .

الفصل السادس عشر

نزهة فى الغابة

قررت « هيستر براين » وتشبثت بقرارها أن تطلع السيد « ديمسدال » — مهما سببت له من آلام حاضرة أو من عاقبة وخيمة — على شخصية ذلك الذى تسلل إلى صداقته . لكنها أضاعت أياما عدة وهى تسعى سدى لتحدثه خلال إحدى نزهاته الخلوية حيث يحلو له التأمل والتفكير على شواطىء شبه الجزيرة ، أو فوق تلالها المعشوشبة . ولم تكن لتلوث سمعة القس الناصعة لو أنها زارته فى مكتبه ، كما فعل من قبل كثيرون من نادمين ونادمات ربما اعترفوا له بخطايا تحاكى ما ترمز إليه الشارة القرمزية . ولكن « هيستر » لم تفكر لحظة فى لقاء القس فى أى مكان أضيق مما تحت سماء الله الواسعة لأسباب عدة . فهى تخشى تدخل « روجر شيلينجورث » سراً أو علانية ، ثم إن قلبها متوجس يجيش بشكوك عدة قد لا يكون لها داع ، ثم إنها هى والقس فى حاجة إلى الدنيا الواسعة كلها كى يتنفسا فيها كلما تحدثا معا .

وأخيراً ، وبينما هى تخدم فى حجرة مريض حيث كان « السيد ديمسدال » قد دعى من قبل ليقوم بصلاة ، بلغها أنه رحـــــل أمس لزيارة الحوارى

« البيوت » المقيم بين أنصـاره من الهنود الحمر الذين اعتنقوا المسيحية . فهو بلا ريب سيعود فى ساعة ما ، بعـــد ظهر الغد . وعلى ذلك بادرت « هيستر » فى اليوم التالى فصحبت « بورل » — رفيقة أمها دائما فى تلك الرحلات مهما كان وجودها مزعجاً — وخرجتا معا .

وما اخترقت عارتا السبيل شبه الجزيرة ووصلتا قلب القارة ، حتى صار الطريق ممرا ضيقاً للمشاة يتشعب متغلغلا فى غموض الغابة العذراء . وكانت الغابة تحيط بالطريق تضيقه ، وتلوح سوداء متكاثفة ولا تظهر السماء خلالها إلا فى لمحات غير واضحة حتى إن « هيستر » شبهتها بالغـابة النفسية التى هامت فيها على وجهها طويلا . وكان اليوم مثلجا كئيبا ، تحجب السماء من فوق الرءوس سحب كبيرة رمادية تهزها ببطء نسمة عابرة . فتبين بين آن وآن شعاعة صغيرة من الشمس تمرح وحـدها على الطريق المنعزل . وكانت تلك الشعاعة البهيجة تلوح دائما فى مشهد قصى يبتدئ على مرمى البصر بين الأشجار الملتفة . فما إن تقتربا من تلك الشعاعة الراقصة — التى تلهو بفتور يعكسه عليها الشجن الذى يسود اليوم والمشهد — حتى تتقهقر وتترك مكانها قفرا أشد كآبة لأنهما كانتا تأملان أن تجداه بهيجاً .

فقالت « بورل » الصغيرة :

— « إن شعاعات الشمس لا تحبك يا أمى ! فهى تهرب وتختفى منك لأنها خائفة من شىء تضمينه على صدرك . انظرى الآن ! هاهى ذى تلهو مرة ثانية .. بعيدا . قفى أنت هنا حتى أركض أنا إليها وأمسك بها ! فلست

إلا طفلة . فهى لن تهرب منى لأننى لم أضع شيئاً على صدرى بعد !

فقالت « هيستر » :

— « أتمنى ألا تضيعه قط ياطفلتى » .

فسألتها « بورل » وهى تتوقف من فورها بعد أن كانت قد بدأت تركض :

— «ولم لا ياأمى؟ أليس يحدث ذلك من تلقاء نفسه عندما أصير امرأة؟

فأجابت أمها :

— « هيا . اركضى ياطفلتى وأمسكى بالشعاعات فسرعان ماتختفى ! »

فمضت « بورل » تركض بسرعة كبيرة ، وابتسمت « هيستر» وهى تراها تمسك حقا بشعاعات الشمس وتقف ضاحكة بينهما تتوهج بروعتها وتتلألأ بحيوية أثارتها فيها الحركة ، وظلت شعاعات النور تلف الطفـلة الوحيدة كأنما ترحب بها صديقة حتى لحقت بها أمها ووقفت معها وسط الهالة المسحورة أيضاً .

فهزت بورل رأسها « تقول » :

— « الآن ... سوف تهرب ! »

فأجابت « هيستر براين » وهى تبتسم :

« انظرى ! فى وسعى الآن أن أبسط يدى وأمسك ببعض منها ! »

ولما حاولت ذلك ، اختفت شعاعات الشمس ، أو إذا حكمنا بالتعبير المتوهج الذى يتراقص على قسمات « بورل » ، فربما امتصتها الطفلة فعلا ، وأودعتها فى أعماقها كما تخيلت أمها ، وسوف تشعها عند ما تتغلغلان فى طريق موحش . لم تلفت نظرها بقوة أى سجية فى طبيعة « بورل » أكثر من حيويتها تلك الدافقة . كانت خالية من جرثومة الحزن التى ورثها معظم أطفال تلك الحقبة من وباء مشكلات أجدادهم وهمومهم . ولكن لعل حالها هذا كان مرضا فى حقيقته وانعكاسا للقوة المستميتة الزعناء التى قاتلت بها « هيستر » أحزانها قبل ولادة « بورل » ومع ذلك كانت لحيويتها تلك جاذبية تضفى على شخصيتها بريقا صلدا . كانت محتاجة — كمعظم الناس مدى حياتهم — إلى حزن ما ، يلمس أعماقها فيحيلها إنسانة حساسة لها قدرة على العطف ومشاركة الناس شعورهم . ولكن الوقت كان ما يزال مبكرا فيما يتعلق بالصغيرة « بورل » .

قالت « هيستر » وهى تنظر حولها من حيث وقفت فى هالة النور مع « بورل » :

— « تعالى يا طفلتى ! سنجلس وسط الغابة بعض الوقت ونستريح ! »

فأجابتها البنت الصغيرة :

— « لست تعبة يا أمى ! فى وسعك أن تجلسى أنت إذا رويت لى قصة ! »

فقالت « هيستر » :

— « قصة يا طفلتى ؟ عن ماذا ؟ »

فأجابت « بورل » وهى تمسك بثوب أمها وتنظر فى وجهها بلهفة وخبث :

— « قصة عن « الرجل الأسود » ... وكيف يحوم فى تلك الغابة حاملا كتابا معه — كتابا كبيرا ثقيلا له مشابك حديدية .. وكيف أن « الرجل الأسود » القبيح السحنة يعرض كتابه هذا وقلما حديديا على كل من يلقاه هنا بين الأشجار ليكتب فيه اسمه بدمائه . وبعد ذلك يصم صـدور هؤلاء الذين يلقاهم بشارة خاصـة . هل قابلت مرة يا أمى « الرجل الأسود ؟ »

فسـألتها أمها وقد تبينت فى قصتها الخرافة التى كانت شائعة فى تلك الحقبة :

— « ومن الذى قص عليك تلك القصة يا « بورل ؟ »

فقالت الطفلة :

— سمعتها من المرأة العجوز التى كانت تجلس إلى جوار المدفأة فى البيت الذى كنت تخدمين فيه الليلة المـاضية . لـكنها كانت تظننى نائمة وهى مسترسلة فى قصتها . قالت إن آلافا وآلافا من الناس التقوا به هنا وكتبوا أسماءهم فى كتابه وإنهم يحملون الآن شارته ، وأن السـيدة « هيبنز » القبيحة السحنة إحدى هؤلاء . كما قالت أيضا يا أمى إن تلك الشارة القرمزية هى علامة « الرجل الأسود » التى وضعها عليك ، وإنها تتوهج

كلهب أحمر عند ما تقابلينه هنا عند منتصف الليل فى الغـابة السوداء .
أحق هذا يا أمى ؟ أتذهبين حقا لمقابلته عند منتصف الليل ؟ »

فسألتها « هيستر » :

— « هل حدث قط أن استيقظت فلم تجدى أمك ؟ »

فقالت الطفلة :

— « لا .. على ما أذكر . ولـكن إذا كنت تخشين تركى وحدى فى كوخنا ، ففى وسعك أن تأخذينى معك . يسعدنى جدا أن أرافقك ! ولـكن . . قولى لى يا أمى الآن — أيوجد حقا رجل أسود كهذا ؟ وهل قابلته مرة فى حياتك ؟ وهل هذه هى شارته ؟

فسألتها أمها :

— « وهل تدعيننى فى سلام إذا قصصت عليك الحقيقة ؟ »

فأجابت « بورل » :

— « أجل ، إذا أنت قصصت على كل شىء ! »

فقالت أمها :

— « لقد التقيت بالرجل الأسود مرة فى حيـــاتى — وتلك الشارة علامته ! »

وتوغلتا أثناء الحديث فى أعماق الغابة حتى اختفتا عن أعين كل عابر سبيل فضولى . وجلستا على كومة كثيفة من الطحلب الذى كان فى حقبة من القرن الماضى شجرة عملاقة بجذورها وجذعها فى أعماق الظلام القاتمة ،

وبرأسها مرتفعاً فى أعالى الجو . كان وادياً صغيراً ذلك الذى جلستا فيه ، انتشرت على جانبيه أوراق الشجر وتدفق جدول يخترقه فوق مهاد من الأوراق المتساقطة الغارقة . وكانت الأشجار العالية تحيط به وتلق بأغصانها الضخمة عليه فتعترض تدفقه حتى يضطر إلى تكوين دوامات لها أعماق سوداء فى أماكن كثيرة متفرقة ، على حين بدأ فى ممراته الأخرى الحرة السريعة مجرى يملؤه حصى ورمل بنى متألق . ولو تتبع المرء مجرى الجدول هذا بعينيه لرأى النور المنعكس من مياهه مدى مسافة قصيرة داخل الغابة ، لكنه سرعان ما يضيع كل أثر له بين تكاثف الأشجار ... والنباتات . . والصخور المتناثرة التى يغطيها طحلب رمادى . وبدت كتل الصخر هذه والأشجار العملاقة كأنما تحالفت على إضفاء غموض مبهم على مجرى الجدول وعلى عرقلة سيره ، فلعلها تخشى أنه — بثرثرته التى لا تهدأ — يهمس حكايات عن قلب الغابة العجوز حيث يتدفق أو يعكس أسرارها ويكشفها على صفحته اللامعة الصافية . والحق يقال إن الجدول الذى لم يمسك قط عن الثرثرة أثناء تسلله — ثرثرة حنون ... هادئة . . . لطيفة لكنها حزينة كأنها صوت طفل صغير أمضى طفولته بلا أتراب ، فلم يعرف كيف يكون مبتهجاً بين معارف حزانى وأحداث .

فصاحت « بورل » بعد أن أصغت لحظة لثرثرة الجدول :

— « أيها الجدول الطائش الصغير السخيف ! لماذا أنت حزين هكذا ؟ ألق عنك الهموم ولا تظل طوال الوقت تهمس وتتنهد ! »

ولـكن الجدول الذى مر بتجربة حزينة خلال حيـاته القصيرة بين الأشجار ، لم يعد يتمالك أن يتحدث عنها طوال الوقت كأنما ليس لديه شيء آخر يقوله . كانت « بورل » تشبه ذلك الجدول فى أن حياتها تتدفق من نبع غامض مارة بمشاهد وظروف قاتمة من حزن ومرارة . لـكنها على خلاف الجدول ، كانت ترقص . . وتتألق . . وتثرثر فى مجرى حياتها.

فتساءلت :

— « ماذا يقول هذا الجدول الحزين يا أمى ؟ »

فأجابت أمها :

— « لو كان يملؤك شجن لحدثك عنه الجدول كما يحدثنى الآن عن مأساتى . ولـكن .. أنصتى يا « بورل » ! إننى أسمع وقع أقدام آتية على الطريق . . وصوت شخص يرفع الأغصان عن الأرض ! فأريد منك أن تذهبى وتلعبى ، ودعينى أتحدث عن هذا القادم ! »

فتساءلت « بورل » :

— « أهو الرجل الأسود ؟ »

فـكررت أمها :

— « ألا تذهبين وتلعبين ياطفلتى ؟ ولـكن احترسى كيلا تتوغلى فى الغابة وتعالى إلى عند أول نداء ! »

فأجابت « بورل » :

— « سأفعل يا أمى : ولـكن إذا كان هذا هو الرجل الأسود . . .

لا تدعيني لحظة واحدة أنظر إليه وهو يحمل كتابه الكبير تحت إبطه ؟ »

فقالت أمها بنفاد صبر :

— « اذهبي أيتها الطفلة السخيفة ! ليس هذا هو الرجل الأسود . في وسعك أن تريه الآن خلال الأشجار — إنه القس ! »

فصاحت الطفلة :

— « أجل ... إنه القس ! وهو يضع يده فوق قلبه ياأمى . أهذا لأن « الرجل الأسود » وضع شارته في ذلك المكان عند ما كتب القس اسمه في كتابه ؟ ولكن لماذا لا يرتديها ظاهرة على صدره كما تفعلين أنت يا أماه » .

فصاحت « هيستر براين » :

— « اذهبي الآن ياطفلتي وسأدعك تضايقينني في وقت آخر . ولكن لا تتوغلي بعيداً . ابقي في مكان تسمعين منه ثرثرة الجدول ! »

فهرولت الطفلة وهي تغني وتتبع مجرى الجدول وتحاول أن تلائم بين نبرتها المرحة وصوته الحزين . ولكن الجدول رفض كل عزاء ، وظل يروي سره الغامض عن مأساة حزينة أليمة وقعت منذ زمن — أو لعله يولول منذراً بشر يوشك أن يقع في الغابة الكئيبة . ففضلت « بورل » التي تملأ حياتها الصغيرة غيوم وأحزان كافية أن تقطع علاقتها بالجدول الحزين المولول . وأكبت تجمع زهر البنفسج وغيره من ورود الغاب القرمزية التي وجدتها تنمو في شقوق صخرة عالية .

فلما غادرت الطفلة الجنية أمها ، تقدمت « هيستر » خطوة أو خطوتين في الطريق الذي يقود إلى الغابة ، لكنها تريثت في ظلال الأشجار . فرأت القس قادماً وحده من الطريق المقابل ، يرتكن إلى عصا اقتطعها من الأغصان أثناء سيره . وبدا ضعيفاً مجهداً يلفه جو من اليأس والقنوط لم يبد عليه قط من قبل ، لا أثناء سيره في المستعمرة ولا في أي موقف آخر معرض الملاحظة والنقد . أما هنا ، فكان يأسه ظاهراً بوضوح ... في عزلة الغابة المتكاثفة . . التي توحي نفسها بالكآبة والحزن . كان في خطواته فتور كأنما لا يرى سبباً كي يخطو خطوة أخرى إلى الأمام ، أو كأنه لا يريد أن يخطو خطوة أخرى إلى الأمام ، بل كان يسعده — إن كان هناك شيء يسعده بعد — أن يرتمي على جذور أقرب شجرة ويستلقي هناك بلا حراك إلى الأبد . فتغطيه أوراق الأشجار ويتراكم حوله الثرى ويكوّن فوق جسده تلاً صغيراً — سواء فارقته الحياة أم لم تفارقه . فقد كان الموت شيئاً حاسماً ، تمنّاه أو تجنبه .

لم يبد القس الجليل « ديمسدال » — في نظر « هيستر » أي دليل على آلام حية نابضة غير يده التي يضغط بها قلبه ، كما لاحظت « بورل » الصغيرة .

الفصل السابع عشر

راعى الأبرشية وواحدة من رعيته

سار القس ببطء وكاد يمر بجوارها ويذهب بعيداً عنها قبل أن تجد « هيستر براين » صوتاً تلفت به نظره . وأخيراً نجحت . قالت فى خفوت بادىء بدء ، ثم بصوت أعلى ولـكن بخشونة :

— « أى « أرثر ديمسدال » . . . « أرثر ديمسدال » ! »

فأجاب القس :

— « من ينادى ؟ » .

وتمالك بسرعة ووقف معتدلاً كرجل فوجىء فى حالة نفسية لا يحب أن يراه عليها إنسان . ولما ألقى بنظره ناحية الصوت ، استطاع أن يلمح فى غير وضوح شخصاً تحت الأشجار يرتدى ثياباً قاتمة ولا يبين فى الضوء الرمادى الذى تضفيه سماء مثقلة بالغيوم وخضرة متكاثفة أحالت الظهيرة ظلمة . حتى إن القس لم يعرف كون هذا الشخص امرأة أو شبحاً . لعل ذلك لأنه خلال حياته على طولها طارده هكذا شبح تسلل بين أفـكاره .

فخطا خطوة قربته من الشارة القرمزية . فقال :

— « أى « هيستر براين » ! أهذه أنت ؟ أتعيشين بعد ؟ »

وأجابته :

« أجل .. أعيش فى الحياة التى قدرت لى هذه السنوات السبع الأخيرة! وأنت يا « أرثر ديعسدال » . أتعيش بعد ؟ » .

وليس من الغريب فى شىء أن يتساءل كل منهما عن حياة الآخر ، وكل منهما يشك فى أنه هو نفسه حى . فقد كان لقاؤهما فى الغابة القاتمة غريبا يشبه اللقاء الأول ، فى دنيا أخرى بعد الممات ، بين روحين كانت تربطهما علاقة وثيقة فى حياتهما لكنهما الآن وقفا يرتعدان بخوف متبادل . فهما لم يألفا بعد حالتهما الراهنة . . وهما كذلك لم يتعودا صحبة مخلوقات بلا أجساد . كل منهما شبح يخاف من الشبح الآخر ! كما يخاف كل منهما من نفسه فإن الشدة أعادت إليهما الشعور وكشفت لكل قلب تاريخه وتجربته كما لا تفعل الحياة أبداً ، إلا فى مواقف الشدة تلك . فالروح رأت قسماتها فى مرآة اللحظات الماضية . فكان أن بسط « أرثر ديعسدال » يده المثلجة كالموت بخشية . . ورجفة .. وبطء .. واضطرار متردد ، ولمس يد « هيستر براين » المثلجة . وبرغم برودة يديهما ، أطاح تلامسهما بكآبة المقابلة . واسترد كلاهما رباطة جأشه وشعر على الأقل أنه يعيش مع زميله فى عالم مشترك .

ودون أن ينبسا بكلمة واحدة . . . ودون أن يقود أحدهما الآخر — ولكن باتفاق لم يعبرا عنه — مالا مرة ثانية إلى ظلال الغابة حيث

برزت له « هيستر » ، وجلسا على كومة الطحلب التي كانت تجلس عليها هي و « بورل » . وعندما استطاعا الـكلام ، تحدثا أول ما تحدثا — كأي غريبين يلتقيان — في السماء القاتمة . . والعاصفة المنتظرة . . ثم عن صحة كل منهما . وراحا يخطوان في حديثهما لا بجرأة ولـكن خطـوة خطوة ويقتربان من الموضوعات التي تجيش في أعماق قلبيهما . ولما كانت قد فرقتهما الظروف والأقدار فقد احتاجا لشيء سهل بسيط يجري بينهما ثم يفتح أبواب الحديث حتى تخطو أفـكارهما الحقيقية خارج العتبة .

وبعد لحظة ، وصل القس نظرته بنظرة « هيستر براين » وقال :

— « أي « هيستر » — هل وجدت راحة نفسية ؟ »

فسألته :

— « أوجدتها أنت ؟ »

فأجاب :

— « لا ! لم أجد إلا اليأس ! ماذا أنتظر وأنا من أنا . . وأعيش حياة كحياتي ! لو أنني كنت كافراً . . بلا ضمير . . أو بائسا ذا غرائز فظة حيوانية لوجدت راحة نفسية منذ زمن طويل — بل لما أضعتها قط . ولـكن لما كانت روحي مختلفة عن ذلك، فان كل ماوضعه الله فيّ من سجايا حميدة سامية صارت وسائل لعذاب روحاني . أي « هيستر » . . شدما أنا تعيس !!

فقالت « هيستر » :

— « إن الناس تبجلك وتحترمك .. وأنت بلا شك تخدمهم وتعمل الخير بينهم . ألا يجلب لك هذا راحة وعزاء ؟ »

فأجابها القس بابتسامة مريرة :

— « بل تعاسة أشد وأدهى يا « هيستر » ! أما الخير الذى أفعله فلا أومن به • فهو سراب . فماذا فى وسع روح محطمة كروحى أن تفعله لخلاص أرواح أخرى ؟ —أو ماذا تصنع روح مدنسة لطهارة تلك الأرواح ؟ أما احترام الناس لى .. فليته يستحيل سخرية ومقتا ! أتعتبرينه عزاء يا « هيستر » أن أضطر للوقوف فوق منبرى ومواجهة كل تلك العيون التى تتطلع فى وجهى كأنما يشع منه نور السماء ، وأرى رعيتى متلهفة للحق تنصت لكلماتى كأنما يحدثها لسان رسول .. ثم أنظر فى أعماق فأرى الحقيقة السوداء للشخص الذى يقدسونه ويعتبرونه مثلا أعلى ؟ لكم ضحكت بمرارة وحرقة قلب من ظاهرى ومن حقيقتى المتعارضتين كما أن إبليس يضحك أيضاً منهما ! »

فقالت « هيستر » برقة :

— « أنت تظلم نفسك فى ذلك . فأنت قد ندمت بحرقة وعمق . فخطيئتك منسية .. خلفتها وراءك فى الأيام الغابرة . أما حياتك الحاضرة فلا تقل طهرا فى الواقع عما تبدو عليه فى أعين الناس • أليست توبة نصوحاً تلك التى تشهد بها أعمالك الطيبة ؟ لماذا لا تجلب لك راحة النفس ؟ »

فأجاب القس :

— « لا .. يا « هيستر » — لا ! فلا أساس لتلك الأعمال الطيبة إنها باردة .. ميتة . لا قدرة لها على إنقاذى . أما التكفير فقد نلت منه الكفاية . وأما التوبة والندم — فلا ! وإلا لألقيت عنى ثياب القدسية والطهر الساخرة تلك، ولظهرت أمام أعين البشر كما سيرونني يوم الحساب. يا لك من سعيدة يا « هيستر » أنت من تضمين الشارة القرمزية علانية على صدرك ! أما أنا فتحرقنى شارتى فى الخفاء . أنت لا تتصورين مدى راحتى بعد سبع سنوات من الخداع والعذاب المتصل بتطلعى إلى عين تعرف حقيقة أمرى ! فإذا كان لدى صديق واحد — بل ألد عدو أذهب إليه يومياً عندما يرهقنى مديح الناس وأعترف له أننى أدنأ وأقذر وغد بين الآثمين جميعاً ، فلربما ارتاحت روحى حينئذ واحتفظت بحيويتها ! فبهذه الطريقة كانت الحقيقة تنقذنى ! أما الآن .. فكل شيء .. كل شيء خـــداع .. فراغ .. موت ! »

فنظرت « هيستر براين » فى وجهه وإن ترددت فى أن تتكلم. لكنه إذ باح بعواطفه المكبوتة فى حرارة واندفاع ، فقد هيأت كلماته لها الفرصة المناسبة للإفضاء بما جاءت من أجله فتغلبت على مخاوفها وتكلمت قالت:

— « الصديق الذى تمنيته الآن لتبكى معه على خطيئتك تجده فىّ أنا شريكتك فى الإثم ! »

وترددت مرة ثانية ، لكنها تمالكت وانتزعت الكلمات بصعوبة وجهد واستطردت :

— « أما العدو فيعيش معك منذ زمن بعيد تحت سقف واحد ! »

فهب القس واقفا ، يلتقط أنفاسه ويضغط قلبه كأنما يود لو اقتلعه من مكانه ، وصاح :

— « ماذا تقولين ؟ عدو ! وتحت سقف بيتى ؟ ماذا تعنين ؟ »

فشعرت « هيستر براين » بالإساءة العميقة التى ألحقتها بهذا الرجل التعيس بتركه سنوات طويلة . أو حتى لحظة واحدة .. رهن رحمة شخص لا يمكن أن تكون أغراضه إلا شريرة . فإن قرب عدوه منه ، مهما كان القناع الذى تخفى تحته ، كان كافيا لإزعاج مخلوق حساس مثل « أرثر ديمسدال » وقد مرت على « هيستر » فترة لم تعر ذلك الأمر اهتماما كافياً ، أو ربما صور لها نفورها من الناس خلال محنتها أن القس يعيش فى ظروف محتملة بالنسبة لظروفها . لكنها أخيراً . ومنذ الليلة التى تهجد القس فيها . تدفق حنانها نحوه قوياً رقيقاً فاستطاعت الآن أن تقرأ قلبه بدقة . فلم تعد تشك فى أن وجود « روجر شيلينجورث » الدائم وسموم حقده ينفثها فى الجو كله وتدخله المرخص له به باعتباره طبيب القس النفسانى والجثمانى — كلها فرص استغلها لغرض شرير قاس . فبوساطتها ظل ضمير المذنب المعذب فى حالة استفزاز وإثارة لم يكن الغرض منهما الشفاء التام بعد ألم شامل ، بل كان الغرض هو الإضرار بنفسيته . وبلبلتها . وتحطيمها . ونتيجتها المحتومة فى هذه الدنيا هى الجنون ، ثم البعد الدائم بعد ذلك عن الخير والحق الذى يعبر عنه الجنون .

كان هذا هوا الخراب الذى أنزلته بالرجل الوحيد الذى كانت فى يوم ما .
— لا .. لماذا لاتقولها بصراحة ؟ — بل الذى لاتزال حتى اليوم تعشقه ! شعرت « هيستر » أن التضحية بسمعة القس الطيبة ، بل حتى إن موته — كما قالت من قبل لـ « روجر شيلينجورث » — خير مما أخذت على عاتقها أن تقوم به . والآن لـكيلا تضطر إلى الاعتراف بتلك الإساءة البالغة ، كان يسعدها أن تستلقى من فورها على أوراق الشجر فى الغابة وتموت .. هناك .. تحت قدمى « أرثر ديمسدال » !

فصاحت :

— « أواه يا « أرثر » .. سامحنى ! لقد حاولت أن أخلص لك فى كل الأمور الأخرى ! فالإخلاص هو الفضيلة الوحيدة التى كان فى وسعى أن أتمسك بها — إننى فعلا تمسكت بها إلى أبعد مدى إلا عندما تعرضت مصلحتك .. وحياتك .. وسمعتك للخطر ! حينئذ رضيت بالخديعة . ولـكن لاخير فى الـكذب البتة ، وإن تربص الموت للمرء على الجانب الآخر ! ألا تفطن إلى ما أرمى إليه بكلامى هذا ؟ ذلك الرجل الهرم .. الطبيب .. ذلك الذى ينادونه « روجر شيلينجورث » — كان زوجى ! »

فراح القس يحدق فيها لحظة فى سورة انفعال عنيف — انفعال يختلط بمزاياه الأخرى الأكثر سموا .. ورقة .. ونقاء ، ذلك الذى كان فى الحقيقة هو الجزء الذى يطلبه منه الشيطان لنفسه بل كان يحاول بواسطته أن يكسبه كله إليه . لم يكن هناك عبوس أشد شراسة ولا سوادا مما واجه « هيستر » الآن ، عبوس دام فترة قصيرة لـكنه أضفى على القس تغييرا أحالـكا ولـكن

الألم والعذاب كانا قد أنهكا شخصيته حتى لم تمد لصفاته الدنيا قدرة على النضال طويلا ، فهوى القس على الأرض ، ودفن وجهه بين يديه يغمغم :

— « كان علىّ أن أعرف ذلك .. بل إننى عرفته فعلا . ألم ينكشف لى السر بنفور قلبى الفطرى منذ أول نظرة ألقيتها عليه — بل كل مرة رأيته فيها بعد ذلك ؟ لماذا لم أفهم؟ أواه يا «هيستر براين » ... شد ما تجهلين فظاعة ذلك الأمر ! والعار .. وعدم الاحتشام .. والشناعة فى هتك قلب عليل مذنب أمام العين الوحيدة التى تشمت به ! أواه يا امرأة ... أنت المسئولة عن هذا ! لن أستطيع الصفح عنك ! »

فصاحت «هيستر» وهى تلقى نفسها إلى جواره على أوراق الشجر المتساقطة :

— « بل ستصفح عنى ! دع الله يعاقب .. لكنك أنت ستصفح ! »

وألقت بذراعيها حوله فجأة وبحنان مستميت ، وضمت رأسه إلى صدرها غير مبالية بأن خده استكان على الشارة القرمزية . وقد حاول سدًى أن يتملص من عناقها . رفضت « هيستر » أن تتركه حراً كيلا ينظر فى وجهها بصرامة وقسوة . لقد عبس العالم كله فى وجهها — مدى سبع سنوات ، عبس العالم فى وجه تلك المرأة الوحيدة ومع ذلك تحملت ولم تشح مرة بعينيها الثابتتين الحزينتين . حتى السماء عبست فى وجهها ، ومع ذلك عاشت .. ولم تمت . ولكن أن يعبس ذلك الرجل الشاحب الضعيف المذنب الحزين ، فهذا مالا تستطيع أن تحتمله وتعيش بعد ! فراحت تكرر مرة بعد مرة :

— « ألا تصفح عنى ؟ أتعبس بعد ؟ ألا تصفح عنى ؟ »

فأجابها القس أخيراً بتنهدة عميقة من صميم لجة أحزانه ، ولـكن دون غضب :

— « لقد صفحت عنك يا « هيستر » — أصفح الآن عنك بسماحة ورضا . فعسى أن يعفو الله عن كلينا ! لسنا يا « هيستر » شر مذنبي العالم . فهناك من هو شر من القس المدنس ! فانتقام ذلك الرجل الهرم أحلك من إثمى ! لقد انتهك ... مع سبق الإصرار .. حرمة قلب بشرى ! أما أنا وأنت يا « هيستر » فلم نفعل ذلك قط ! »

فهمست :

— « لم نفعل ذلك قط — بتاتاً ! فالذى اقترفناه له قدسية خاصة به ، شعرنا بذلك ! بل قلنا ذلك . . أحدنا للآخر ! هل نسيت ؟ »

فقال « أرثر دمسدال » وهو ينهض عن الأرض :

— « صه يا « هيستر ... صه ! لا .. لم أنس ! »

وجلسا ثانية جنباً إلى جنب على جذع شجرة ملقى قد كساه الطحلب ، وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . لم يلقيا مدى حياتهما أحلك من تلك الساعة . كانت النقطة التى التقى فيها طريقا هما اللذان تسودهما ظلمة على امتدادهما . ومع ذلك كانت ساعة ذات سحر غامض مبهم . . جعلهما يتشبثان بها ويتلـكآن ويطالبان بلحظة أخرى . . ثم لحظة أخرى . . ثم بعد ذلك ، لحظة أخرى . كانت الغابة مظلمة حولهما ، تقعقع فيها الرياح وهى مارة خلالها . كانت الأغصان تمايل بشدة فوق رأسيهما ، على حين

راحت شجرة عجوز وقور تنوح وتتأوه بكآبة كأنها تروى القصة الحزينة عن الاثنين الجالسين تحتها ، أو كأنما هى مجبرة على الإنذار بشر واقع لا محالة .

ومع ذلك تلكأ . شد ما بدا كئيباً ذلك الطريق الذى يخترق الغابة ويقود إلى المستعمرة حيث تواصل « هيستر » حمل عارها ثانية . . والقس سمعته الزائفة ؟ لهذا تلكأ لحظة أخرى . فلم يكن للنور الذهبى قط نفاسة الظلمة التى على هذه الغابة السوداء ! فهنا . . وعيناه وحسب تتطلعان إلى الشارة القرمزية لم تشعر بها المرأة الساقطة تحرق صدرها كالعادة ! وهنا . . وعيناها وحسب تتطلعان إليه يستطيع « أرثر دعسدال » الذى ينافق الله والناس أن يشعر بلحظة راحة !

وفجأة ، ارتجف لفكرة طرأت على باله . فصاح :

— « أى «هيستر» . . هاك رعباً جديداً ! إن « روجر شيلينجورث » يعرف غرضك من كشف شخصيته . فهل يحفظ سرنا بعد ؟ أى طريق سوف يسلكه الآن فى انتقامه ؟ »

فأجابت « هيستر » بتفكير :

— « إن فى طبيعته غموضاً تملكه مع انهماكه سراً فى أساليب انتقامه . فلا أظنه يفشى سرنا ، بل سيلتمس دون شك أساليب أخرى ليشفى غليله الأسود ! » .

فصاح « أرثر دعسدال » وهو يرتجف فى دخيلة نفسه ، ويضغط قلبه بيده بحركة أضحت غير شعورية :

— « لكننى أنا — كيف أعيش بعد مع ذلك العدو اللدود ؟ فكرى لى يا « هيستر » ! أنت قوية . قررى لى مايجب علىّ أن أفعله ! »

فقالت « هيستر » ببطء وحزم :

« يجب ألا تعيش بعد مع هذا الرجل . يجب ألا يظل قلبك نهبة لعينه الشريرة ! »

— « كان العيش معه شراً من الموت ! ولكن كيف التخلص منه؟ ألى الخيار بعد ؟ هل أستلقى ثانية هنا على أوراق الشجر الذابلة تلك حيث ألقيت بنفسى عند ما كشفت لى عن شخصيته الحقيقية ؟ أعلىّ أن أهوى هنا من فورى وأموت ؟ »

فقالت « هيستر » والدموع تندفع إلى عينيها :

— « واحسرتاه ! ياللدمار الذى حل بك ! أتموت ضعفاً ؟ فليس هناك أى سبب آخر . . ! »

فأجابها القس النادم الذى يلهبه ضميره :

— لقد حل بى قصاص الله ! وهو أقوى من أن أناضله ! »

فأردفت « هيستر » قائلة :

— « سترحمك السماء . . إذا كانت لديك القوة للاستفادة من تلك الرحمة ! »

فقال :

— « كونى قوية من أجلى ! انصحى لى ماذا أفعل ! » .

فصاحت « هيستر براين » وهى تحدق بعينيها العميقتين فى عينيه فتؤثر بقوة مغناطيسية غريزية فى تلك الروح المغلوبة على أمرها المنهارة حتى تكاد لا تملك تماسكا :

— « هل الدنيا إذن ضيقة إلى هذا الحد ؟ هل ينتهى الوجود عندأفق تلك البلدة التى كانت منذ أمد قصير صحراء تتناثر فيها أوراق ذابلة منعزلة كهذه الصحراء التى تحيط بنا ؟ إلى أين يقود الطريق الذى يخترق الغابة ذاك ؟ أنت تقول إنه يعود بك ثانية إلى المستعمرة ! نعم . . لـكنه يقودك إلى الأمام أيضاً ، يتغلغل فى البرية ويتغلغل حتى يكاد يختفى عن العيون مع كل خطوة . حتى إذا ما قطع المرء بضعة أميال فى سيره ، انقطع كل أثر للرجل الأبيض . هناك أنت حر ! رحلة قصيرة كهذه سوف تخرجك من عالم كنت فيه بائساً تعيساً إلى عالم قد تجد فيه هناءك بعد ! أليس فى هذه الغابة الشاسعة كلها ظـلال كافية لتخفى فيها قلبك عن عين « روجر شيلينجورث » ؟ »

فأجابها القس بابتسامة حزينة :

— « أجل يا « هيستر » . . . ولـكن تحت أوراق الشجر الذابلة وحسب ! » .

فاستطردت « هيستر » :

— « ثم هناك أيضاً البحر الواسع ! لقد أتى بك إلى هنا ، فإذا أردت فسوف يعيدك من حيث أتيت مرة ثانية . تذهب إلى وطننا ومسقط

رأسيا حيث تعيش فى قرية صغيرة نائية أو فى « لندن » الرحيبة . أو ربما فضلت الحياة فى « ألمانيا » . . أو فى « ايطاليا » البهيجة حيث يجهل « روجر شيلينجورث » مكانك وتصبح دون ريب فى منأى عن تأثيره وقوته ! ثم ماذا يربطك بهؤلاء الرجال المتعصبين وبآرائهم ؟ لقد حجزوا خير ما فيك أسيراً زمناً طويلا ! » .

فأجاب القس وهو ينصت إليها كأنما تطالبه بأن يحقق حلما :

— « محال ! محال ! ليست لدى القوة للرحيل ! أنا مذنب شقى بائس لم يخطر ببالى الا أن أجرر ما تبقى من حياتى فى المجال الذى وضعتنى فيه الأقدار ! فبرغم ضياع روحى ، مازلت أود خدمة الأرواح الأخرى بما فى وسعى ! لا أجرؤ على التخلى عن مركزى مع أننى حارس خائن غير أمين . سوف يجازى بلا شك عند انتهاء نوبة حراسته بالموت . . والفضيحة . . والعار ! » .

فأجابت « هيستر » وقد قررت بحماسة أن تشد أزره بحيويتها هى :

— « لقد سحقك ثقل السنوات السبع التعيسة تلك ! لكنك ستخلفها وراءك ! لن تعوق خطواتك وأنت راحل فى طريق الغابة ، ولن تحملها معك فوق السفينة إذا فضلت ركوب البحر ! دع الخراب والحطام هنا حيث وقعا ! لا شأن لك بهما بعد ! ابدأ من جديد ! هل أنفقت كل إمكانياتك فى تلك التجربة الفاشلة الواحدة ؟ لا . . لا ! فالمستقبل حافل بعد بالتجارب والنجاح ! هناك سعادة لتعيشها بعد ! هناك خير لتعمله بعد ، استبدل بحياتك الزائفة هذه أخرى صريحة صادقة ! كن — إذا ارتاحت

روحك لتلك المهمة — رسولا ومعلماً للهنود الحمر . أو كن — كما يدفعك ميلك الفطرى — علامة حكيما بين أعلم العلماء وأحكم الحكماء فى دنيا الثقافة . . واكتب . . واعمل ! اعمل أى شىء . . إلى أن تستلقى على الأرض وتموت ! تخلص من اسم « أرثر ديمسدال » واختر اسماً آخر رفيعاً تستطيع أن تعلنه دون خوف أو خجل . لماذا تتخلف بعد . . ولو يوماً آخر . . . فى العذاب الذى عاث طويلا هكذا فى حياتك — الذى أحالك ضعيفاً واهناً لا تملك الرغبة ولا الإرادة للعمل ! — الذى سوف يتركك فى النهاية بلا قوة لشىء حتى الندم ! انهض . . وارحل ! » .

فصاح « أرثر ديمسدال » وقد برق نور من حماستها فى عينيه لحظة ، ثم انطفأ :

— « أواه يا «هيستر» ! إنك تطلبين من رجل تتخاذل ركبتاه تحته أن يشترك فى سباق ! لابد لى أن أموت هنا ! لم تبق لدى القوة ولا الشجاعة كى أجازف بالخروج إلى الدنيا الواسعة . . الغريبة . . الصعبة وحدى ! » .

كانت آخر صيحة تعبر بها روح منهارة عن يأسها . كانت تعوزه القوة ليستحوذ على الحظ المبتسم القريب منه .

وكرر الكلمة :

— « وحدى ... يا « هيستر » ! .

فأجابته فى همسة عميقة :

— « لن تذهب ... وحدك ! » .

حينئذ . . تلك اللحظة . . قبل كل ما يمكن فى هذا المجال أن يقال !

الفصل الثامن عشر

فيض من نور الشمس

راح « آرثر ديمسدال » يحدق فى وجه « هيستر » بنظرة مشرقة ينيرها أمل وهناء ، ولكن بينهما يندس خوف . . وشىء من الجزع لجرأة تلك التى أفصحت عما لمح هو إليه وحسب .

أما « هيستر براين » ذات العقل النشيط الشجاع . . تلك التى عاشت فترة طويلة مبعدة بل منبوذة من المجتمع ، فكانت قد اتخذت نفسها مجال فكر وتأمل لا يبلغ كنهه القس . فقد هامت . . وساحت بلا رقيب . . ولا قاعدة . . فى تيه خلقى شاسع متكاثف كثير الظلال كتلك الغابة البكر المستوحشة التى عقدا فى ظلمتها الآن محاورة ليقررا مصيرها . أما قلبها وعقلها فقد اتخذا الفيافى مستقراً حيث تجول بحرية كما يفعل الهندى الأحمر الهمجى فى غاباته . فمنذ سنوات مضت وهى تنظر من وجهة النظر المتباعدة تلك إلى المؤسسات وإلى كل ما ينشئه القساوسة والحكام — تنقد كل شىء باحترام وتبجيل لا يزيد عما يشعر به الهندى الأحمر نحو « جوقة » الكنيسة الموسيقية . . أو نحو رداء القضاة الرسمى . . أو نحو المشنقة . . أو المقصلة . . أو المدفأة . . أو نحو الكنيسة نفسها . هيأ لها قدرها الحرية .

كانت الشارة القرمزية جواز مرورها فى أماكن لا تجرؤ امرأة أخرى أن تخطو فيها . عار . . . ويأس .. ووحدة ! كان هؤلاء معلميها، معلمين صارمين همجيين ، وقد جعلوها قوية ، لـكنهم علموها كثيرا من الضلالة .

أما القس ، من جانب آخر ؛ فلم يمر قط بتجربة أخرجته عن نطاق القوانين العامة المقبولة ؛ مع أنه فى لحظة واحدة اعتدى على أشد تلك القوانين قدسية . ولـكن ذلك كان إثم شهوة لا إثم مبدأ . . بل لم يكن إثم هدف . ومنذ ذلك العهد التعيس وهو يرقب بدقة وحمية سقيمة لا أعماله ، فتلك كان من اليسير تنظيمها ، بل كل ومضة شعور . . . بل كل فـكرة تخطر بباله . ولما كان يحتل مركزاً على رأس الهيئة الاجتماعية كما هى منزلة القساوسة حينئذ فقد كان محاصرا أكثر وأكثر بقوانينها ، ومبادئها . . حتى بأخطائها . وبوصفه قساً كانت مهنته تحصره داخل دائرتها حصرا محتوماً . وبوصفه رجلا أذنب مرة ولـكن ضميره ظل متوهجاً حساساً يتعذب لاضطراب جرح لم يندمل ، كان من المحتمل اعتباره فى أمان داخل دائرة الفضيلة أكثر مما لو لم يكن قد أذنب بتاتا .

وهكذا يمكننا أن نرى بوضوح أن السنوات السبع التى مرت بطولها على « هيستر براين » وهى منبوذة بعارها ، لم تـكن إلا استعدادا لتلك الساعة عينها ! ولـكن « أرثر ديمسدال » . . . ! إذا سقط رجل مثله مرة ثانية فى خطيئة ، فأى عذر يساق لتخفيف جرمه ؟ طبعاً لا عذر هناك . . . إلا إذا أفاده شيئاً تململه بطول عذابه وبأن ، عقله أظلم وأصبح

مهوشاً بنفس الندم الذى يميت فيه ، وبأنه بين الهرب مجرماً والبقاء منافقاً قد يعجز الضمير عن حفظ التوازى ؛ وبأن الطبيعة البشرية تحتم تجنب الموت والفضيحة وأساليب العدو الخفية ، وبأنه قد لاحت أخيرا لذلك المهاجر المسكين التعيس المريض الواهن ، فى طريقه القفر الـكئيب ، بارقة عطف بشرى . . وعاطفة ، . وحياة جديدة . . . حياة حقة مخلصة عوضاً عن القدر الذى يرزح تحته الآن . ولنقل الحقيقة المحزنة القاسية : إن الفجوة التى يحدثها الذنب فى الضمير الإنسانى لا ترمم البتة خلال حياته . وقد يرعاها ويراقبها حتى لا يقتحمها العدو مرة ثانية وينفذ منها إلى الحصن ، العدو الذى ربما فضل ، فى إحدى هجماته المتعاقبة ، موقعاً آخر على ذلك الذى نجح فى غزوه من قبل . ولـكن الحطام يظل قائماً دائماً . . دائماً . . وإلى جواره آثار تسلل العدو المتلصصة ، العدو الذى سيعاود مرة ثانية انتصاره .

فلا حاجة لنا بوصف النضال . حسبنا القول بأن القس قرر الهرب غير وحيد .

راح يفـكر فيما بينه وبين نفسه :

— « لو استطعت أن أذكر لحظة واحدة من راحة أو أمل مررت بها خلال السنوات السبع الأخيرة ، لتحملت بعد طمعاً فى رحمة السماء ! لـكننى الآن — ما دمت قد قضى على بقدر محتوم — لماذا لا أختطف العزاء الذى يعرض على كل مجرم قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه ، أو إن كان

هذا طريقاً لحياة أفضل كما تحاول « هيستر » أن تقنعنى لختم أنى لن أضيع فرصة أعظم باتباعه . كما أننى لم أعد أستطيع الحياة دون صحبتها . فهى قوية الاحتمال . . . رقيقة العزاء . يا إلهى . . يا من لا أجرؤ على أن أرفع عينى إليك — أتغفر لى بعد ؟ »

وقالت « هيستر بهدوء عند ما التقت نظرته بنظرتها :

— « سنرحل » .

وما استقر القرار حتى ألقت بهجة جديدة غريبة ضياءها على الآلام والمشكلات التى يجيش بها صدره . كان هذا هو التأثير السار — فى سجين فر من فوره خارج سجن قلبه — تأثير استنشاق الهواء الطلق الهمجى الذى يملأ مكاناً غير مأهـــول بلا قانون . . وبلا دين . فانتعشت روحه منتفضة ورأت السماء أكثر قرباً منها فى أى فترة مضت خلال تعاسته كلها التى جعلته يزحف طوال الوقت على الأرض . ولما كانت ميوله عميقة التقوى فقد لون حالته النفسية ولاء لربه . فصاح متعجباً من نفسه :

« أأشعر بمرح مرة ثانية ؛ ظننت أن جرثومـــة ماتت فىّ ! أى « هيستر » . . . إنك الملك الحارس لى ! كأننى ألقيت بنفسى — مريضاً . . . مدنساً بالخطايا . . مسوداً بالأحزان — على أوراق أشجار تلك الغابة ثم نهضت مخلوقاً جديداً بقوى جديدة لأسبح باسم هذا الذى كان بى رحيما ! هذه هى الحياة الأفضل ! لماذا لم نعثر عليها من قبل ؟ »

فأجابت « هيستر براين » :

— دعنا من الماضى ! الماضى قد ذهب بعيداً ؟ لماذا نتشبث به الآن ؟ أنظر ! سأمحو الماضى كله بهذه الشارة ! »

وانتزعت الشارة القرمزية من صدرها ، وطوحت بها بعيداً عن أوراق الشجر الذابلة . فسقط الرمز المبهم على الجانب الآخر من الجدول ، لا يبعده عن الماء إلا شبراً واحداً وإلا لوقع فيه ولحمل الجدول الصغير سراً حزيناً آخر يحكيه ضمن روايته الطويلة الغامضة التى لا يزال يغمغم بها ويثرثر فى سريانه . لـكن الرمز سقط هناك ، يتضوأ كأنه جوهرة مفقودة قد يعثر عليها عابر سبيل سىء الحظ ، لتطارده أشباح غريبة عن خطيئة .. وأحزان قلب .. ونحس لا نهاية له .

فلما ألقت « هيستر » الرمز المشئوم عن صـدرها تنفست الصعداء وتنهدت تنهيدة عميقة طويلة تبخر معها ثقل العار والعذاب من روحها . ياللراحة القصوى ! لم تعرف قط حقيقة الثقل حتى شعرت بالحرية ! وبحركة أخرى غريزية ، نزعت عن رأسها القلنسوة المتزمتة التى كانت تسجن تحتها تحتها شعرها فانهمر على كتفيها أسود غزيراً ، تعكس غزارته نوراً وظلاً فى آن واحد وتضفى رقة على قسماتها فتلاعبت حول ثغرها . . وتلألأت فى عينيها ابتسامة رقيقة مشرقة اندفعت من أعماق أنوثتها . وكست خدها الشاحب حمرة قانية توهج بها . عاد إليها الشباب ... والجمال ... والأنوثة ، من ذلك الذى ندعوه : الماضى السحيق . وتجمعت تلك الصفات كلها مع أملها العذرى وسعادة لم تعرفها من قبل ، كلها تجمعت فى محور تلك

الساعة الواحدة السحرية . وكأنما كانت كآبة السماوات والأرض من فيض هذين القلبين لأنها تلاشت تماماً مع حزنها . ففجأة ، كأنما ابتسمت السماء ، تدفق نور الشمس فى الغابة المظلمة يسمد كل ورقة خضراء . . ويحيل أوراق الشجر المتساقطة الصفراء أوراقاً من ذهب...ويجعل جذوع الشجر الرمادية تتألق ببهائه . أما الأشياء التى كانت تلق بظلالها ، فقد ضمت نور الشمس بين حناياها . أما مجرى الجدول الصغير ، فظهر واضحاً هناك ... يتألق بمرح فى قلب الغابة الغامضة التى أضحى غموضها فرحاً وهناء .

هكذا كان عطف الطبيعة ، طبيعة تلك الغابة المتوحشة الكافرة التى لم يخضعها قانون بشرى ولا أنارتها حقيقة سامية ، عطفها على هناء هاتين الروحين ! فالحب سواء ولد عن جدة أو أوقظ من نوم كالموت ، يخلق حتماً نوراً يملأ القلب بهاؤه حتى يفيض خارجه على الدنيا كلها . فلو أن الغابة احتفظت بكآبتها ، لبدت بهيجة متألقة فى عينى كل من « هيستر » و « أرثر ديمسدال » !

فنظرت « هيستر » إليه يهزها هناء جديد . وقالت :

— « يجب أن تعرف « بورل » ! لقد رأيتها . نعم .. أعلم ذلك ، لكنك الآن سوف تنظر إليها بعينين مخالفتين ..إنها طفلة غريبة ! لا أكاد أفهمها ! لكنك سوف تحبها حباً جماً كما أحبها أنا وستوجهنى فى تربيتها ! »

فسألها القس بقلق :

— « هل تظنين أن الطفلة سيسعدها أن تعرفنى ؟ فلطالما نفرت من

الأطفال لأنهم كثيراً ما بدأوا لا يثقون بى ولا يرغبون فى صحبتى . أما « بورل » الصغيرة فقد كنت أخشاها ! » .

فأجابت الأم :

— « شد ما يحزننى سماع ذلك ! لكنها سوف تحبك من قلبها كما ستحبها أنت كذلك . إنها ليست بعيدة عنا الآن ! سأناديها ! إلىّ . . يا « بورل » .

فعلق القس :

— « إننى أراها ، ها هى ذى تقف فى لجة من نور الشمس هناك .. بعيداً .. على الجانب الآخر من الجدول ! إذن أنت تعتقدين أن الطفلة ستحبنى ! »

فابتسمت « هيستر » ونادت « بورل » مرة ثانية ، فتجلت حقاً من بعد كما وصفها القس — واقفة كرؤيا بهيجة وسط شعاعة نور سقطت عليها خلال قوس من الأغصان . وكانت الشعاعة تتراقص فتخفيها آنا آخر — مرة تبدو طفلة حقيقية ومرة أخرى كشبح طافلة ، وفقاً للبهاء الذى يتراقص حولها — فسمعت صوت أمها واقتربت ببطء خلال الغابة .

لم تكن ساعة فاترة تلك التى أمضتها « بورل » أثناء جلوس أمها مع القس يتناقلان الحديث . فقد صارت الغابة السوداء — التى تبدو صارمة للذين يأتون إلى قلبها بخطايا الدنيا ومشكلاتها — صارت الآن رفيقة للطفلة فى لعبها ، الطفلة الصغيرة الوحيدة . فبرغم كآبتها وظلمتها أظهرت

لها عطفاً وحناناً مشرقاً تحييها . فعرضت عليها ثمرات من توت أحمر كنقط الدم على أوراق الشجر الذابلة — توت يزدهر فى الربيع وحسب وإن كان من زرع الخريف .. فجمعت « بول » تلك الثمرات وسعدت بمذاقها . أما سكان الغابة من المخلوقات الصغيرة فكادت لا تبتعد عن عن طريقها ، كما فعلت أنثى الحجل بذريتها البالغة عشرة أفراخ كانت تقفز حولها : هاجمت « بورل » صاخبة مهددة ، لكنها سرعان ما ندمت على شراستها وزقزقت لأفراخها ألا تخاف ، وسمحت حمامة تجلس وحدها على غصن دان — أن تمر تحتها « بورل » وأطلقت صوتاً بين التحية والانزعاج . كما راح سنجاب يثرثر من أعماق بيته الذى اتخذه فى قلب جذع شجرة — ثرثرة قد تكون مرحة أو غاضبة . فإن السنجاب مخلوق غضوب محب للمزاح فى آن واحد ، حتى ليتحير المرء بين أهوائه المتقلبة . لذلك راح يثرثر والطفلة تمر به ، ثم ألقى ببندقة فوق رأسها . كانت قشرة بندقة قرضها بأسنانه الحادة واحتفظ بها من العام الماضى . كما أزعجت خطواتها الخفيفة فوق أوراق الشجر ثعلباً نائماً . فنظر إليها فى تساؤل ، وتردد بين النوم ثانية أو الانسحاب بعيداً . ويقال — وإن كنت أعتقد أن الرواية هنا اشتطت فى تخيلاتها — إن ذئباً تقدم من « بورل » وتشمم ثوبها ثم تركها تربت بيدها رأسه الوحشى . أما الحقيقة فهى أن الغابة الأم وتلك المخلوقات المتوحشة التى أرضعتها — تعرفت كلها فى الطفلة الآدمية لوناً من وحشية تمت إليها بصلة .

كما كانت الطفلة فى الغابة أهدأ وأرق منها فى كوخ أمها وفى شوارع المستعمرة الممهدة ذات الحشائش المزروعة على جانبيها . وكأنما شعرت بذلك الورود ؛ إذ كانت تغمغم وردة بعد وردة والطفلة مارة بها :

— زينى نفسك بى أيتها الطفلة الجميلة ! زينى نفسك بى ! .

ولكى ترضى الورود ، راحت « بورل » تجمعها واحدة واحدة وتلتقط الأزهار المختلفة وبعض الأغصان الغضة الخضراء الزاهية التى تبسطها لها الأشجار أمام عينيها . فزينت بها شعرها وخصرها الصغير حتى بدت كجنية صغيرة . . أو كآلهة الأشجار . . أو كأى شىء آخر مما تلصقه الأساطير بالغابة العتيقة . كانت « بورل » إذن قد زينت نفسها بتلك الثياب التنكرية عندما سمعت صوت أمها وسارت نحوه .

سارت ببطء ، فإنها رأت القس .

الفصل التاسع عشر

الطفلة على شاطىء الجـــدول

كررت « هيستر براين » قولها وهى جالسة إلى جوار القس يرقبان « بورل » الصغيرة :

— « سوف تحبها حباً جماً ! ألا تراها جميلة ؟ انظر براعة الطبيعة فى جعل تلك الورود البسيطة تزينها هكذا ! لو أنها جمعت لؤلؤا .. وماساً .. وياقوتا من الغابة لما زادتها فتنة ! إنها طفلة بديعة ! لـكننى أعرف عمن ورثت جبهتها تلك ! »

فقال « أرثر ديمسدال » بابتسامة قلقة :

— « هل تعلمين يا « هيستر » أن تلك الطفلة وهى تهرول راكضة إلى جوارك دائماً ، كثيراً ماسببت لى ذعراً ؟ أواه يا « هيستر » ! لقـــد خامرتنى فـكرة — يالها من فـكرة .. ولشدما هو شىء فظيع أن أوجس خيفة من تلك الفـكرة ! — ظننت أن قسماتى قد تـكررت فى وجـــه الطفلة بطريقة تلفت النظر حتى يراها العالم كله ! لـكنها ابنتك أكثر منها ابنتى ! »

فأجابت الأم بابتسامة رقيقة :

— « لا . لا ! لست أكثر منك ! لن يمضى وقت طويل حتى لا تعود تخشى أن يعرف الناس بنت من هي . ولكن .. لكم تبدو جميلة بأزهار الغابة تلك فى شعرها ! كأنما إحدى الجنيات اللائى خلفناهن وراءنا فى إنجلترا العجوز الحبيبة زينتها خاصة للقيانا ! »

وجلسا يرقبان « بورل » تتقدم منهما ببطء ، يخالجهما شعور لم يخامر أحداً منهما قط من قبل . فهى الرابطة التى تربطهما معاً ، ولقد وهبت الدنيا تلك السنوات السبع الماضية لغزاً حياً كشف عن السر الذى سعيا لإخفائه فى الظلام — كتب كله فى ذاك الرمز الحى .. واضحاً بجلاء ، لو كان هناك نبي أو ساحر عليم ليقرأ هذه الشخصية النارية ! كانت « بورل » وحدة وجودها . وليكن الإثم الذى اقترفاه مابكون ، كيف يشكان فى أن حياتهما على الأرض ومستقبلهما يترابطان ترابطاً وثيقاً وهما يريان فى آن واحد الرابطة المادية والفكرة الروحية التى فيها التقيا وفيها سوف يخلدان؟ أفكار كتلك وغيرها من الأفكار التى لم يعترفا بها أو لم يستطيعا فهمها ، أوجدت جوا من الرهبة حول الطفلة وهى تتقدم منهما .

فهمست « هيستر » :

— « لا تدعها تلحظ شيئاً غريبا — لا اندفاع . ولا لهفة فى طريقة مقابلتك لها ، فإن ابنتنا « بورل » تكون أحياناً جنية صغيرة متقلبة

الأهواء ، وهى لاتتحمل العواطف بوجه خاص عندما لاتعلم مصدرها ولا سببها ، ولكن للطفلة مشاعر قوية ! فهى تحبنى وسوف تحبك ! »

فقال القس وهو يرمق « هيستر » بمؤخر عينيه :

— « إنك لاتتصورين كيف يوجس قلبي خيفة من تلك المقابلة .. ويتشوق إليها ! ولكن الحقيقة كما قلت لك هى أن الأطفال لايميلون إلىّ بسرعة ، فهم يرفضون تسلق ركبتى . والهمس فى أذنى . أو الاستجابة لابتسامتى ، بل يقفون بعيداً ويرمقوننى باستغراب . حتي الولائد الصغار إذا أنا حملتهم بين ذراعىّ انفجروا يا كين . ولكن « بورل » عطفت علىّ مرتين فى حياتها القصيرة ، أما المرة الأولى — فأنت تعرفينها جيداً ، وأما المرة الأخيرة ، فكانت عندما اصطحبتها معك إلى دار الحاكم الهرم الصارم ! »

فأجابت الأم :

— « ويومئذ دافعت بشجاعة عنها وعنى ! إننى أذكر ذلك كما ستذكره « بورل » . لاتخش شيئاً . ربما كانت غريبة الأطوار خجولا بادىء بدء ، لكنها سرعان ماتحبك ! » .

كانت « بورل » حينئذ قد وصلت إلى حافة الجدول . ووقفت فى أقصى مكان ترمق « هيستر » والقس فى صمت ، وقد جلسا معاً على جذع الشجرة الذى يكسوه الطحلب ينتظرانها . واتفق حيث وقفت بالضبط أن تجمعت

مياه الجدول فى بحيرة صغيرة .. صافية .. هادئة .. حتى إنها عكست صورة رائعة لـ « بورل » بكل جمالها الباهر البهيج وما تتزين به من ورود وأوراق خضراء مشبوكة فى عقود ، لكنها كانت صـــورة أكثر رقة وروحانية من الأصل . وبدت تلك الصورة التى تكاد تطابق « بورل » الحية وكأنما أضفت على الطفلة بعض ظلالها وغموضها . كانت هيئة « بورل » غريبة حقاً وهى واقفة تنظر إليهما بثبات خلال ظلمة الغابة ، على حين زادتها بها أيضاً شعاعة من نور ذهبى . فشعرت « هيستر » شعوراً مثيراً غامضاً بأنها نائية عن « بورل » .. كأنما شردت الطفلة فى تجوالها وحدها خلال الغابة خارج الدائرة التى كانت تعيش فيها مع أمها ، وهى الآن تسعى سدى للدخول فيها ثانية .

كانت تلك الفكرة خاطئة .. وصادقة فى آن واحد . فحقاً تباعدت الأم عن ابنتها ، ولكن بسبب خطأ « هيستر » نفسها لا « بورل » . فمنذ تركت « بورل » جوارها لتجول فى الغابة ، احتل مكانها آخر عزيز دخل فى دائرة عواطف الأم وتغيرت هيئتهما تبعاً لذلك ، حتى إن « بورل » الشاردة العائدة عجزت عن العثور على مكانها المعتاد واحتارت أين تقف منهما .

فعلق القس المرهف الحس :

— « يخيل إلى أن ذلك النهر هو حاجز بين عالمين مختلفين ، وأنك لن تستطيعى ملاقاة صغيرتك « بورل » مرة ثانية . أو لعلها هى روح

جنية ممنوعة — كما تروى الأساطير التى سمعناها فى طفولتنا — من عبور جدول جار ؟ أرجوك أن تحثيها على السرعة فإن ذلك التأخير قد أرهق أعصابى ! »

فقالت « هيستر » تشجعها وهى تبسط ذراعيها كلتيهما نحوها :

— « تعالى يا أعز حبيبة ! كم أنت بطيئة ! متى كنت بطيئة كما أنت الآن ؟ هنا صديق لى يجب أن يصبح صديقك أنت أيضاً ، فتنالى منذ الآن حباً مضاعفاً أكثر مما تسبغه عليك أمك ! اقفزى عبر الجدول وتعالى إلينا . فأنت تستطيعين القفز كالظبية الصغيرة ! »

فلم تبدر من « بورل » أية بادرة تدل على استجابتها لتلك التعبيرات المعسولة . وظلت واقفة على الشط الآخر من الجدول تنقل عينيها البراقتين الوحشيتين بين أمها والقس ، ثم تحتويهما معاً فى نظرة شاملة — كأنما تحاول أن تستشف العلاقة التى تربطهما معا . ولسبب مجهول ، ما شعر القس بعينى الطفلة عليه حتى تسللت يده — فى تلك الحركة التى أضحت عادة غير شعورية فيه — وضغطت قلبه . وأخيراً .. وبحركة آمرة .. بسطت « بورل » يدها وأشارت بإصبعها فى صراحة إلى صدر أمها . وتحت الميـاه ، فى مرآة الجدول الصافية ، وقفت صورة أخرى لـ « بورل » بزينتها وورودها تشير بإصبعها الصغيرة أيضاً .

فصاحت « هيستر » :

— « أيتها الطفلة الغريبة .. لماذا لا تأتين إلى ؟ »

وكانت « بورل » لا تزال تشير بإصبعها على حين تجهم جبينهـا في تقطيبة ذات تأثير قوى لأن القسمات التى تشكلها طفلة .. هى التى تحاكى قسماتها وليدة . ولما ظلت أمها تومىء وتشير إليها وقد كست وجهها بابتسامات لم تعتد أن تسبغها على ابنتها ، فإن الطفلة ضربت الأرض بقدمها بحركة أعنف وتقطيبة مستبدة . ومرة ثانية بدت فى مياه الجدول صورة جميلة شاذة بتقطيبتها المعكوسة .. وإصبعها التى تشير بها .. وحركتها المتعسفة التى تزيد من توهج « بورل » الصغيرة وهيئتها .

فصاحت « هيستر براين » التى اعتادت سلوك طفلتها الجنية فى الأوقات الأخرى ولكنها كانت قلقة الآن ، تتلهف على سلوك لائق من جانب ابنتها :

— « هيا .. أسرعى يا « بورل » وإلاّ غضبت منك ! اقفزى عبر الجدول أيتها الطفلة الشيطانة واركضى إلى هنا . . والا اضطررت إلى الذهاب إليك ! »

ولكن « بورل » التى لم تؤثر فيها قيـد شعرة تهديدات أمها ولا ملاينتها ، انفجرت فى سورة غاشمة من غضب . وراحت تلوح وتتلوى بعنف وانفعال وهى تصرخ صرخات عالية حادة رددت صداها الغابات من كل الأرجاء . فبدت برغم وحدتها فى سورة غضبها الذى لا مبرر له وكأنما تمدها حشود خفية بالعطف والتشجيع وانعكست فى مرآة الجدول ، مرة أخرى ، صورة ظليلة لـ « بورل » غاضبة . . ثائرة . . تزينها الورود

والأزهار وهى تضرب الأرض بقدمها وتلوح بوحشية وثورة . وإصبعها ما برحت تشير إلى صدر أمها !

فهمست « هيستر » للقس وقد غشيها شحوب برغم محاولتها إخفاء ضيقها وقلقها :

— « فهمت ما يغضب الطفلة . فالأطفال لا يرضون قط بأى تغيير فى مظهر الأشياء التى يرونها يومياً . و « بورل » تفتقد شيئاً رأتنى دائماً أضمه على صدرى ! »

فأجاب القس :

— « أرجو منك أن تهدئى من ثائرة الطفلة بسرعة . . وبأى وسيلة تملكينها ! فإذا كان هناك شىء لا أحب أن ألقاه — غير غضب ساحرة عجوز درداء كالسيدة « هيبنز » — . . . وأضاف وهو يغتصب ابتسامة :

« فهو سورة طفل غاضب . فإن غضب طفلة فى جمال « بورل » الفض . . كغضب الساحرة المغضنة الدردبيس له تأثير شاذ رهيب . فهدئى من روعها إذا كنت تحبيننى ! »

فاستدارت « هيستر » ثانية إلى « بورل » وقد احتقن وجهها . وألقت على القس نظرة جانبية وهى تتنهد بثقل ، ثم غاضت حمرة وجهها قبل أن تفتح فمها بكلمة وغشيه شحوب كالموت وقالت بحزن :

— « أى « بورل » — انظرى تحت قدميك . . هناك . . أمامك على الشاطىء الآخر للجدول . »

فنظرت الطفلة لتجد الشارة القرمزية على حافة الجدول حتى إن مياهه تـعكس تطريزه المذهب .

فقالت « هيستر » :

— « هاتيها إلى — هنا ! »

فأجابتها « بورل » :

— « تعالى أنت وخذيها ! »

فهمست « هيستر » للقس معلقة :

— « أرأى أحد طفلة كهذه ! لدىّ الـكثير من أمرها أحكيه لك، لـكنها على حق فيما يتعلق بتلك الشارة البغيضة ! على أن أتحمل عذابها فترة أخرى قصيرة .. بضعة أيام أخرى .. حتى نرحل عن هذه المنطقة ولا نعود نذكرها إلا كبلاد رأيناها فى أحلامنا . فالغابة لن تخفى تلك الشارة .. أما المحيط فسوف يأخذها من يدى ويبتلعها فى أعماقه إلى الأبد. »

ونهضت وهى تقول ذلك الـكلام وتوجهت إلى حافة الجدول حيث التقطت الشارة القرمزية وألصقتها بصدرها مرة ثانيـة . وبرغم الأمل الذى راودها منذ هنيهة قصيرة وهى تتحدث عن المحيط الذى سوف يبتلع الشارة ، غشيها الآن شعور بقدر محتوم يلاحقها وهى تتلقى الشارة الرهيبة القاتلة ثانية هكذا من يد القدر . لقد طوحت بها إلى الفضاء الواسع ! فتنفست ساعة من الحرية ! ثم هاهى ذى مرة ثانية شارة البؤس والشقاء تتوهج فى مكانها القديم ! فالإثم إذن دائماً أبداً — سواء رمز إليه بتلك

الطريقة أو لم يرمز — يحيط صاحبه بجو من القدر المحتوم . وبعد ذلك لمت « هيستر » خصلات شعرها الغزيرة وحبستها تحت قلنسوتها . وكأنما هناك سحر مبيد فى الشارة القرمزية لأن جمال « هيستر » وأنوثتها .. ودفئها . . ونضارتها — فارقتها كلها كالشمس الغاربة وبدت « هيستر » تلفها ظلال قاتمة .

فلما حل بها التغيير البغيض الكئيب ، بسطت يدها إلى « بورل » وسألتها بعتاب ولكن بنبرة مستسلمة :

— « أتعرفين أمك الآن ياصغيرتى ؟ ألا تعبرين الجدول وتثبتين ملكيتك لها .. الآن وقد عاد إليها عارها .. الآن وقد عادت حزينة ؟ »

فأجابت الطفلة وهى تقفز عبر الجدول وتحتضن « هيستر » بذراعيها

— « أجل .. الآن أفعل : الآن أنت أمى حقاً .. وأنا صغيرتك « بورل » !

وعلى غير عادة ، جذبت رأس أمها إليها وقبلت جبينها وخديها كليهما لكنها — كأنما تدفعها غريزة لخلط كل هناء بشىء من الحزن والألم — وضعت شفتيها على الشارة القرمزية وقبلتها أيضاً .

فقالت « هيستر » :

— « ليس هـــذا حناناً منك ! ما أظهرت لى بعض الحب حتى سخرت منى ! »

فسألتها « بورل » :

— « لماذا يجلس القس هنا ؟ . »

فأجابتها أمها :

— « هو فى انتظارك ليحييك . تعالى إليه واطلبى بركته ! فهو يحبك ياصغيرتى « بورل » ويحب أمك أيضاً ! ألا تحبينه ؟ تعالى ؟ هو يلتاع شوقاً للقياك !

فقالت « بورل » وهى ترمق أمها بذكاء خارق :

— « هل يحبنا ؟ هل يعود معنا إلى البلدة ويده فى يد كل منا ونسير ثلاثتنا هكذا ؟ . »

فأجابتها « هيستر » :

— « ليس الآن ياطفلتى الحبيبة ، لكنه سيسير معنا فى المستقبل ويده فى يد كل منا . وسيكون لنا بيت ومدفأة خاصة بنا .. وستجلسين على ركبتيه .. وسيعلمك أشياء كثيرة .. ويحبك من أعماقه .. وسوف تحبينه أنت أيضاً .

— أليس كذلك ؟ .

فسألت « بورل » :

— « وهل سيضع يده دائماً فوق قلبه ؟ . »

فصاحت أمها :

— « أى سؤال هذا أيتها الطفلة السخيفة ؟ تعالى واطلبى بركته » :
فأبت « بورل » أن تظهر عطفاً نحو القس ، سواء كان ذلك عن الغيرة التى يشعر بها كل طفل مدلل نحو منافس خطير ... أو كان ذلك عن إحدى نزواتها المتقلبة . فغصبتها أمها وجاءت بها إليه وهى تتمنع وتحاول الفكاك ووجهها يتقلص تقلصات غريبة مختلفة . فقد كانت لها قدرة عجيبة منذ ولادتها على تغيير قسماتها اللدنة وتشكيلها أشكالا يملأها خبثاً وعفرتة . فشعر القس بحرج شديد ، لكنه مال وقبل جبينها وهو يأمل أن تكون القبلة تعويذة سحرية تفتح له طريقاً إلى عطف الطفلة . فانفلتت « بورل » من أمها على الفور وركضت إلى الجدول ومالت عليه وراحت تغسل جبينها مراراً وتكراراً حتى زالت القبلة عنها تماماً — ذابت فى الماء الغزير الجارى . وبعد ذلك ظلت بعيدة عنهما ، ترقب « هيستر » والقس وهما يتحدثان عن مشروعاتهما المقبلة نظراً لموقفهما الجديد والأهداف التى يرغبان فى بلوغها .

وانتهت تلك المقابلة المحتومة ، ليبقى الوادى منعزلا بين أشجاره السوداء الهرمة ذات الألسنة العديدة التى سيدور الهمس بينها طويلا فيما حدث هناك ، دون أن يفهم إنسان ما شيئاً . وسيضيف الجدول الحزين تلك الرواية أيضاً إلى الأسرار التى يفيض بها قلبه الصغير ، لذلك سيظل يثرثر دون توقف وبنبرة لا تزيد بهجة عن نبرته مدى الأجيال .

الفصل العشرون

القس فى حيرة

ترك القس « هيستر » و « بورل » ومضى ، ثم استدار وألقى عليهما نظرة وهو يكاد ينتظر أن يرى شبحيهما وحسب يذوبان فى غبشة الغابة . فهو لم يستطع أن يتقبل ، دفعة واحدة ، ذلك الانقلاب الكبير فى حياته على أنه حقيقة واقعة . لكنه رأى « هيستر » فى ثوبها الرمادى ، لم تزل واقفة إلى جوار جذع الشجرة الذى أسقطته عاصفة منذ عهد سحيق والذى ظل الزمن يكسوه بالطحلب على مر الأيام ليجلس عليه خاصة هذان الاثنان وقد ربط القدر كلا منهما إلى الآخر ، وليجدا ساعة راحة وهناء كما رأى « بورل » أيضاً تتراقص بخفة وتتقافز على حافة الجدول — الآن بعد أن رحل الثالث الدخيل — وتأخذ مكانها إلى جوار أمها . إذن ... لم يكن القس مستغرقاً فى النوم وحلم بكل هذا ! .

ولكى يخلص عقله من تلك البلبلة ومن رياء خياله ذاك الذى يضايقه ويزعجه ، راح يتذكر خطط رحيلهما ، هو و « هيستر » معاً ويقلبها على جميع وجوهها . كانا قد قررا أن « انجلترا القديمة » بحشود ناسها ومدنها تهيىء لهما مخبأ وملجأ خيراً من برارى « انجلترا الجديدة » أو « أمريكا »

كلها بخيام الهنود الحمر . . ومستعمرات الأوربيين المنثورة على شاطىء البحر . هذا إلى جانب صحة القس المنهارة التى لا تعينه على حياة الغابة ، بل إن مواهبه الطبيعية . . وثقافته . . وتكوينه كله تهيء له مقاماً طيباً بين المدنية والرقى — وكلما كان المحيط راقياً كان أكثر ملاءمة للرجل . وكانت هناك سفينة ترسو فى الميناء — إحدى تلك السفن المريبة التى لم تكن خارجة جهاراً على القانون ، ولكنها تجوب البحار بلا اعتبار كبير للعرف والأخلاق . وقد وصلت تلك السفينة من فورها من المضيق الأسبانى لترحل بعد ثلاثة أيام إلى « بريستول » . وكان عمل « هيستر براين » ممرضة متطوعة قد أتاح لها التعرف إلى ربان السفينة وإلى نواتيها . فآلت على نفسها أن تحصل على أماكن فيها لشخصين بالغين ولطفلة — سراً ودون أن يشعر أحد ، وفقاً لمقتضيات ظروفهما .

وكان القس قد سأل « هيستر » باهتمام عن موعد رحيل السفينة . فعلم أنها راحلة رابع يوم من الشهر الجارى . فقال لنفسه :

— « يا لحسن الحظ ! »

أما لماذا كان ذلك حظاً حسناً فى نظر السيد الجليل « ديمسدال » ، فهو ما نتردد فى الكشف عنه . ومع ذلك ، ولكى لا نمسك شيئاً عن القارىء ، فقد كان السبب هو أن القس سيلقى عظة فى شأن الانتخاب بعد ثلاثة أيام . ولما كانت فرصة كهذه تعتبر حدثاً هاماً مشرفاً فى حياة قس من « إنجلترا الجديدة » ، فإن « ديمسدال » لم يكن ليجد وقتاً مناسباً

ولا طريقة أفضل من هذه ليختم بها مهمته . قال الرجل المثالى لنفسه :

— « سيقولون عنى ، على الأقل ، إننى لم أدع واجباً عاماً دون أن أؤديه على أكمل وجه ، كذلك لن يقولوا إننى أديته ناقصاً مبتوراً ! »

فمن المحزن حقاً أن يخدع هذا القس البائس نفسه ، برغم تحليله لنفسه تحليلاً دقيقاً عميقاً ! ونحن لدينا أشياء شر من هذه لنقولها عنه ، ولكن ليس بينها شيء يدل على ضعف كهذا ، ولا دليل على مرض خبيث . . سطحى ومتمكن منه فى آن واحد قد بدأ منذ زمن بعيد يعيث فى جوهر أخلاقه كهذا . فليس هناك رجل يستطيع أن يظهر طويلا أمام نفسه بوجه وأمام الناس بوجه آخر دون أن يرتبك ويتحير أيهما الأصل .

وقد أعارله انفعاله بمقابلة « هيستر » نشاطاً غير عادى . فراح يحث الخطو مسرعاً نحو البلدة . وبدا الطريق وسط الغابات واسماً غير مطروق، بل بدا شاذاً بما يعترضه من أشياء طبيعية خشنة عما كان عليه والقس فى طريقه إلى خارج البلدة . ولكن « ديمسدال » قفز عبر المستنقات . . ودفع بنفسه يفسح طريقاً بين الأغصان والنباتات المشتبكة ... وتسلق كل هضبة . . وغاص فى كل واد — وإجمالاً ، تغلب على صعاب الطريق كلها بنشاط أدهشه . ولم يملك إلا أن يتذكر كيف كان يجاهد بضعف ووهن فوق هذه الأرض نفسها وكيف توقف مراراً ليلتقط أنفاسه منذ يومين وحسب . ولما اقترب من البلدة ، بدت المشاهد المألوفة لديه وقد حل بها تغيير هائل كأنما لم يفارقها منذ يوم . . ولا منذ يومين ولكن منذ أيام . .

بل منذ سنوات . فالشارع كان دون شك كما هو بأكمله وكما يذكره هو — ببيوته العجيبة الشاذة ... وبحشد سقوفها المسنمة . . وبتماثيل ديوك على زوايا الشارع تنبىء بحالة الجو . ومع ذلك غشيه شعور بتغيير شامل حل بالشارع . . وبكل من لقيه من المعارف . . بل بكل ظاهرة مألوفة لديه في البلدة الصغيرة . لم تبد الناس أكبر سناً أو أصغر سناً . . ولا لحى المسنين أشد بياضاً . . ولا هو رأى مولود البارحة وقد هب يمشي على قدميه . كان من العسير وصف ما حل من تغيير بالناس الذين ألقى عليهم نظرة وداع عندما بدأ رحلته خارج البلدة . ومع ذلك لم يفارقه ذلك الشعور بالتغيير الكبير الذي حل بالبلدة حتى بجدران كنيسته نفسها . بدا بناؤها مألوفاً لديه حتى راحت تراوده فكرتان : إما أنه حلم ذات مرة بذلك البناء ... أو أنه يحلم به الآن .

لم تدل تلك الظاهرة التي اتخذت أشكالاً مختلفة على تغيير خارجي حقاً ، بل على التغيير المفاجىء الهام الذي حل بالرجل نفسه وقد أثر مرور يوم واحـــد في مشاعره وكأنما مرت به سنون . فإرادة القس .. وإرادة « هيستر » .. والقــدر الذي جمعهما معاً هي التي أحدثت ذلك التغيير في نفسيته . فالبلدة كانت هي هي لم تزل ، ولـكن القس الذي عاد من الغابة كان هو الذي تغير . كان في وسعه أن يقول لأصدقائه الذين حيوه :

— « لست الرجل الذي تظنونه ! فقد خلفته ورائي هناك في الغابة — منكمشاً في واد خفي بجانب جذع شجرة يكسوه الطحاب ويسري إلى

جواره جدول حزين ! فاذهبوا وابحثوا عن قس كنيستكم لتروا أن قامته الضامرة . . وخده النحيل . . وجبهته البيضاء المتجهمة التى تكسوها التجاعيد ملقاة كلها هناك كرداء خلعه عنه ! »

ولكن أصدقاءه كانوا سيحاجونه بلا شك ويصرون على قولهم :

— « إنك أنت الرجل عينه ! »

وسيكون الخطأ خطأهم ، لا خطأه هو .

وقبل أن يصل «ديسدال» إلى بيته ، كشفت له دخيلة نفسه ظواهر أخرى ودلائل كثيرة فى شأن الثورة التى قامت فى دائرة فكره وإحساسه . والحقيقة أن التغيير الشامل الذى حل بمبادئه الخلقية هو سبب الدوافع والمشاعر التى راحت تجيش فى صدر القس التمس المزعج . ففى كل خطوة راودته رغبة شديدة لإتيان أمر غريب .. شاذ .. بل منكر ، وهو يشعر أنه لو أتى ذلك الأمر حقاً لكان عن سبق إصرار . . ودون وعى منه فى آن واحد — سيفعله على رغمه بدافع أقوى من ذلك الجانب من نفسه الذى يقاوم مستميتاً . فمثلاً ، قابل أحد رؤسائه فى الكنيسة . فبادره الرجل الشيخ الصالح بالحديث بود أبوى وعظمة قسوسية تؤهله لها سنه العالية وأخلاقه المثالية ومركزه فى الكنيسة . وفوق ذلك ، هناك صفات « ديسدال » الخاصة وأعماله المجيدة التى توجب الاحترام الشديد الموشك أن يكون عبادة . لم يكن هناك قط أروع ولا أجمل من ذلك المثال على وقار السن وحكمتها عندما تتعاونان فى سماحة مع الطاعة والاحترام المفروضين

كحق على طبقة اجتماعية رفيعة حيال أخرى دونها مستوى . فلما مضت دقيقتان أو ثلاث دقائق فى حديث بين القس الجليل « ديسدال » وأحد كبراء الكنيسة .. هذا الممتاز الملتحى ، استطاع « ديسدال » بصعوبة وبضبط نفس مستميت أن يمنع نفسه من التفوه بألفاظ ملحدة خطرت بباله ، تدل على كفره وعدم إيمانه « بالعشاء الربانى » . فارتعد وغشيته غبرة خوفاً من أن ينزلق لسانه ويثرثر بتلك الأمور الفظيعة ، ثم يتعلل لسانه هذا بأنه نال إذنه دون أن يكون قد أذن له فعلاً . حتى إنه لم يتمالك ، وذلك الرعب يملأ قلبه ، أن ضحك لتخيله منظر كبير الكنيسة المقدس مصعوقاً لكفر القس وإلحاده !

ومثل آخر شبيه بتلك الحالة . فقد التقى القس الجليل « ديسدال » وهو يسرع الخطو فى الشارع ، بأكبر نساء كنيسته سناً ، وكانت امرأة ورعة تقية مثالية — أرملة فقيرة وحيدة ، تعمر قلبها ذكريات عن زوجها المتوفى وأولادها وأصدقائها الذين ماتوا منذ أمد بعيد كما تمتلىء مقبرة بشواهد القبور . ومع ذلك ، أحالت كل ما مرت به من أحزان إلى لون من السعادة المتوقرة الهادئة غذتها على الدوام بصلوات وعزاء استمدته من الكتب الدينية مدى ثلاثين عاماً . ومنذ ضمها « السيد ديسدال » إلى رعيته فى الكنيسة ، والعجوز الطيبة لا تجد لها هناءً فى الدنيا يوازى هناء التقائها براعى كنيستها ، مصادفة أو لغرض معلوم ، وإنعاش روحها بكلمة طيبة عطرة قدسية من شفتيه المحبوبتين تسكبانها فى أذنها الملهوفة

السماء . ولـكن فى تلك المناسبة .. وإلى أن ألصق القس شفتيه بأذنها لم يعرف ما يقوله لها . فقد عزبت عنه كل آيات الإنجيل وكل شيء آخر إلا مناقشة مختصرة قوية لا تحتمل جواباً — مناقشة تنكر خلود الأرواح . كان تقطير كلام كهذا فى عقل تلك الأخت العجوز سيجعلها تسقط ميتة حتماً من فورها ، كأنما تجرعت سماً زعافاً . أما ماهمس به القس إليها حقاً ، فلم يستطع قط أن يذكره بعد ذلك . ربما تلعثم فى كلامه لحسن حظه فلم تحمل الفـكرة التى أسرها إليها معنى ما ، أو لعل القدر حوّر ما قال بطريقة خاصة به . ولـكن مما لا شك فيه أن القس ، عند ما استدار خلفه ينظر إلى المرأة العجوز ، لمح تعبيراً قدسياً يفيض نشوة وامتناناً كأنه نور « المدينة السماوية » يشرق على وجهها المغضن الشاحب .

ومرة أخرى ، ها كم مثالاً ثالثاً : فبعد أن فارق القس المرأة العجوز ، التقى بأصغر فتاة فى رعيته . كانت صبية اكتسبتها الـكنيسة عن جدة بإحدى مواعظ « ديمسدال » الرائعة يوم الأحد الذى تبع ليلة تهجده وندمه . وقد أقسمت أن تستبدل بمباهج الدنيـــا أملاً فى رحمة السماء سيتحول إلى بهجة مشرقة كلما أظلمت الحياة حولها ثم يتوج الظلام الدامس — عندما تأتى النهاية — بمجد عظيم . وكانت شقراء طاهرة كأنها زهرة نمت فى الجنة . وكان القس يعلم تمام العلم أنها أقامت له تمثالاً فى قلبها الطاهر أحاطته بستائر ناصعة ، وراحت تضفى على الدين دفء الحب ، وعلى الحب طهر الدين . ولـكن الشيطان ، عصر ذلك اليوم ،

كان هو الذى قاد الصبية الصغيرة المسكينة بعيداً عن جوار أمها وألقاها فى طريق ذلك الرجل البائس الضائع الذى يرهقه إغراء الدنيا ، فلما اقتربت منه ، همس إليه الشيطان أن يلقى فى صدرها الرقيق بجرثومة الشر التى ستزدهر دون شك وتثمر فاكهة سوداء شريرة . كان هـذا شعوره بمدى تأثيره فى تلك الروح البـكر التى تثق به ثقة عمياء ، حتى إن القس شعر بقدرته الجبارة على محو هذه السذاجة كلها .. وهذا الطهر كله بنظرة واحدة شريرة ، وعلى إيجاد صفات عـكسية فى نفسها تماماً وبكلمة واحدة فحسب . لذلك قاتل نفسه فى استمامة عنيفة ، وأمسك بمعطفه أمام وجهه وأسرع بعيداً دون أن يبدو عليه أنه تنبه لها أو أنه يعرفها . وترك الأخت الصغيرة لتهضم سوء أدبه ما وسعها أن تفعل .

فراحت تنبش ضميرها — الذى امتلأ بأمور صغيرة ساذجة كجيب ثوبها أو حقيبة كتبها — وتعاتب نفسها . . . المسكينة الصغيرة ! وتحاسبها على ألف خطأ تخيلته . وراحت فى الصباح التالى تقوم بواجباتها المنزلية وقد انتفخ جفناها .

وقبل أن يجد القس وقتاً يهنىء فيه نفسه لتغلبها على الإغراء ، شعر بدافع آخر مضحك وأشد فظاعة . كان دافعاً . . — نحن نخجل من ذكره ! — يحضه على التوقف من فوره فى منتصف الشارع وتلقين ألفاظ خبيثة للمة من أطفال « البيوريتانز » الذين كانوا يلهون هناك ، ثم فرغوا من لهوهم وراحوا يتحدثون .

فلما كبت تلك النزعة كشيء لا يليق بثيابه الكهنوتية ، التقى بنوتى سكران يعمل مع عصبة النواتى على ظهر السفينة القـــادمة من المضيق الأسبانى . هنا شعر « ديمسدال » البائس ، وقد استطاع التغلب بشهامة على رغباته الخبيثة كلها — شعر برغبة قوية فى أن يضع يده — على الأقل — فى يد ذلك الوغد وينعش روحه بتبادل ملح دنيئة كالتى يتبادلها النوتيون الفسقة الفجار ، مع وابل من الشتائم العتيدة العتيقة التى تتحدى السماء .. وتبرد القلب ! لـكنه مر بسلام بتلك الأزمة أيضاً ، لا عن مبدأ ، بل لنفوره الفطرى من الدناءة ، ولاعتياده ... أكثر من ذلك ، المحافظة على التحشم الدينى .

فصاح القس بنفسه أخيراً وهو يتوقف فى الشارع ويضرب جبينه بيده :

— « ما الذى يطاردنى ويراودنى هـكذا ؟ هل جننت ؟ أو أن الله تخلى عنى للشيطان ؟ هل وقعت معه اتفاقاً بدمائى فى الغـابة ؟ وهل هو يطالبنى الآن بالوفاء بعهودى ويقترح على أخبث الخبائث التى يتمخض عنها خياله الفاسق ! » .

وفى اللحظة التى كان القس الجليل « ديمسدال » يتحدث فيها إلى نفسه ويضرب جبينه بيده ، يقال إن السيدة العجوز « هيبنز » الساحرة المشهورة ، مرت به . وكانت تسير بخيلاء وقد ارتدت ثياباً فاخرة : غطاء الرأس العالى وثوباً ثميناً من القطيفة ، له ياقة مجعدة منشاة بالنشا الأصفر المشهور الذى أطلعتها على سره صديقتها الحميمة « آن تورنر » ، قبـل أن تتهم

فى قضية مقتل « سير توماس أوفريرى » وينفذ فيها حكم الإعدام ، وسواء قرأت العجوز الساحرة أفكار القس أم لم تقرأها فإنها توقفت من فورها تحدق فى وجهه وتبتسم بدهاء . وبرغم أنها لم تتعود أن تتحدث إلى القساوسة ، فقد ابتدأت هى الحديث .

فعلقت الساحرة وهى تومىء ببطء رأسها العالى نحوه :

— « إذن . . قمت بزيارة إلى الغابة ياسيدى الجليل ! فأرجو منك المرة القادمة أن تنذرنى قبل الزيارة بوقت كاف لأننى يشرفنى أن أرافقك إلى هناك . ودون أى جهد من جانبى ، تهىء كلمتى الطيبة دائماً — لسيد غريب مثلك — ترحاباً لائقاً من « الزعيم » . . . الذى ببالك ! »

فأجابها القس باحترام يفرضه عليه تهذيبه ومركزها الاجتماعى :

— « أعترف ياسيدتى . . بل أقسم بشرفى وضميرى . . إننى فى حيرة من مغزى كلامك ! فلم أذهب إلى الغابة لألتقى بأى « زعيم » هناك . . ولا أنا أزمـــع فى المستقبل أن أقوم بزيارة لأتشرف بالتعرف إلى تلك الشخصية ! كان غرضى الوحيد الذى يكفينى من تلك الزيارة هو تحية صديق لى ورع . . الحوارىّ « البيوت » لنهنأ معاً بالأرواح الغالية الكثيرة التى اكتسبتها من الوثنية للمسيحية ! »

فقهقهت الساحرة العجوز وهى لا تزال تومىء ببطء رأسها العالى ناحية القس :

— « ها . . ها . . ها ! طبعاً علينا أن نتحدث هكذا فى وضح النهار ! حقاً إنك لممثل بارع . . كأنك عضو قديم فى عصبتنا ! لكنا . . عندما ينتصف الليل . . وفى قلب الغابة . . . سنتحدث معاً حديثاً آخر »

ومرت به فى وقار وعظمة ، لكنها ظلت تلتفت إليه بين حين وحين وتبتسم له ، كأنهما صديقان تربط بينهما علاقة سرية .

فقال القس لنفسه :

« هل بعت نفسى إذن للشيطان الذى يقال — إن صدق الناس — إن تلك الساحرة العجوز المكسوة بالقطيفة المنشاة قد اختارته سيداً لها وأميراً ! » .

يا للقس البائس !! لقد وقع على اتفاق قريب الشبه بذلك . راودته أحلام السعادة فاستسلم — باختياره وكما لم يفعل قط من قبل — لما يعرف تماماً أنه إثم عظيم فسرعان ما سرى ذلك الإثم إلى كيانه الخلقى . فخدر غرائزه الطيبة كلها وأيقظ للحياة النابضة المتوهجة جملة الغرائز الخبيثة : التهكم . . . والازدراء . . والمرارة . . والحقد الدفين . . والرغبة المحضة فى فعل الشر . . والسخرية من كل ما هو خير ومقدس — استيقظت كلها لتغريه كما ترعبه فى الوقت عينه . حتى إن مقابلته السيدة « هيبنز » — إن كانت قد تمت فعلا — لأكبر دليل على ميله وصداقته للضالين والخبثاء من البشر .

وكان قد وصل إلى بيته الذى يشرف على المقبرة . فأسرع يصعد درجاته واحتمى داخل مكتبه . وتنفس الصعداء لوصوله إلى ذلك المخبأ دون أن يفضح نفسه أولا بإحدى الدوافع الشاذة الشريرة التى ظلت تراوده طوال فترة سيره فى الشوارع . دخل الحجرة المألوفة لديه وراح يدير عينيه حوله فى كتبها . . وفى نوافذها . . ومدفأتها . . وفى الطنافس المعلقة على جدرانها ، يخالجه الشعور بالاستغراب عينه الذى اعتراه منذ خلف الوحـدة الصغيرة فى الغابة وسار ووجهته البلدة . فهنا كتب ودرس . . . هنا صام وتهجد وارتمى نصف ميت ، هنا حاول أن يصلى . . هنا تحمل مائة ألف عذاب وعذاب . . هنا يوجد إنجيله باللغة العبرية القديمة الدسمة ، وفيه يحادثه « موسى » وبقية الأنبياء كما يصل إليه صوت الله على ألسنتهم ! هنا .. على المائدة .. بجوار الدواة والقلم عظة لم يتم كتابتها بعد ، وقد توقف فى منتصف جملة عندما توقف سيل أفـكاره على الصفحة البيضاء منذ يومين . كان على يقين أنه هو نفسه .. القس النحيل الشاحب .. الذى فعل كل هذه الأشياء وتحمل كل تلك الآلام .. وكتب إلى أن بلغ تلك الجملة المبتورة فى خطاب الانتخاب ! لـكنه بدا وكأنه يقف إلى جانب ويرمق شخصيته القديمة بسخرية .. وشفقة .. وفضول يشوبه حسد . لقد امحت تلك الشخصية . رجـل آخر هو الذى عاد من الغابة — رجل أعقل وأوفر حكمة .. له علم بأسرار خفية لم يكن ليطلع عليها الآخر الضعيف بسذاجته . علم مرير ذاك !!

وبينما تشاغله تلك الأفكار ، سمع طرقاً على باب المكتبة . فصاح القس ينازعه شك أنه ربما رأى روحاً شريرة قادمة عليه :

— « ادخل ! »

وقد رأى فعلا تلك الروح الشريرة ! فقد كان « روجر شيلينجورث » الهرم هو الذى دخل . فهب القس واقفاً .. شاحباً .. صامتاً ، ويده على الإنجيل العبرى واليد الأخرى تضغط قلبه .

وقال الطبيب :

— « مرحباً بعودتك إلى بيتك ياسيدى الجليل ! كيف وجدت ذلك الرجل التقى « إليوت » الحوارى ؟ ولكن يخيل إلى ياسيدى العزيز أنك شاحب الوجه — كأنما أرهقتك رحلة الغابة . ألست محتاجاً لمعونتى لتعيد إليك القوة والقدرة على إلقاء موعظة الانتخاب ؟ »

فأجاب السيد الجليل « ديمسدال » :

— « لا .. لا أظن ذلك . فإن رحلتى ورؤيتى للرجل الطاهر الحوارى هناك .. ثم الهواء الطلق الذى استنشقته — كلها أشياء أفادتنى كثيراً بعد طول عزلتى فى المكتبة . فلا أظننى سوف أحتاج ثانية إلى عقار من عقاقيرك ، ياطبيبى الحنون ، وإن كانت عقاقير جيدة تسقينى إياها يد صديقة ! »

وطوال هذا الوقت ، كان « روجر شيلينجورث » يحدق فى القس بالنظرة الفاحصة الرصينة التى يحدق بها طبيب فى مريضه . ولكن برغم تلك الظواهر ، كاد القس يوقن أن الرجل الهرم مطلع على لقائه لـ « هيستر

براين » — أو على الأقل ، يشك فى ذلك شكـًا يقرب من اليقين . أما الطبيب فاكتشف حينئذ أن القس لم يعد ينظر إليه على أنه صديق يثق به ، بل على أنه ألد أعدائه . وطبعاً كان لا بد أن يفصح شيئاً عن اكتشافه هذا . ومن المدهش حقاً أنه كثيراً ما يمر وقت مديد قبل أن تجسم الـكلمات المعانى ، وكيف أن فى وسع شخصين يتحاشيان موضوعاً ما أن يقتربا فى حديثهما من حدوده ثم يتقهقـرا دون أن يثيرا ذلك الموضوع . وهـكـذا لم يخش القس أن يصارحه « روجر شيلينجورث » فى كلمات صريحة عن حقيقة موقف أحدهما من الآخر . ومع ذلك فقد تسلل الطبيب بطريقته المتلصصة السوداء مقترباً اقتراباً خطراً من السر الرهيب . قال :

— « ألا تظن من الخير أن تستفيد الليلة بعلمى المتواضع ؟ فواجبنا ياسيدى العزيز أن نعيد إليك قواك ونشاطك من أجل المناسبة الهامة التى ستلقى فيها خطاباً فى شأن الانتخاب . الناس تتوقع منك أشياء عظيمة خشية ألا يمر عليك العام حتى تكون قد رحلت عنهم ! »

فأجابه القس باستسلام مؤمن ورع :

— « أجل . . رحلت إلى عالم آخر ؟ وإنى لأطمع أن يجعله الله عالماً أفضل : فالحق يقال أنى أشك فى قدرتى على البقاء عاماً آخر هنا بين رعيتى ولـكن ؟ ولـكن أن أتعاطى عقارك . . ياسيدى الشفيق . . فى حالتى الراهنة ، فهو مالا أحتاج إليه ! »

فأجابه الطبيب :

— « يسعدنى أن أسمع ذلك . فربما بدأ يظهر الآن تأثير عقاقيرى التى تناولتها منذ زمن بعيد . سوف أكون رجلا سعيداً جديراً بتهنئة « انجلترا الجديدة » كلها لو أننى استطعت حقاً أن أشفيك ؟

فقال القس الجليل « ديمسدال » بابتسامة وقور :

انى أشكرك من كل قلبى يا أوفى صديق . أشكرك . . ولا يسعنى إلا أن أستبدل بعقاقيرك صلواتى :

فعلق « روجز شيلينجورث » الهرم وهو يستدير ليخرج :

— « إن صلوات رجل صالح لهى ثواب ذهبى : أجل — إنها العملة الذهبية المتداولة فى العالم الآخر وعليها صورة الله نفسه ! »

ولما خرج الطبيب وصار القس وحده ، نادى خادماً من البيت وطلب طعاماً . فلما جىء له به ، عكف عليه يلتهمه بشراهة . ثم طوح بالصفحات التى كتبها من خطاب الانتخاب وبدأ يكتب خطاباً آخر — يكتب بسيل من أفكار ومشاعر حتى خيل إليه أنه موحى إليه به . فتعجب من السماء التى تختار لنفحات موسيقاها الإلهية آلة موسيقية خبيثة مثله . لكنه ترك ذلك اللغز يحل نفسه أو يظل بلا حل إلى الأبد . وانهمك فى عمله ينهيه بنشوة . . وسرعة . . وحماسة . وهكذا طار الليل كأنه جواد له جناحان والقس يمتطيه . وطلع الصباح وأطل — تغشاه حمرة الخجل — خلال الستائر . وأخيراً ألقت الشمس بشعاعة ذهبية فى حجرة المكتبة ألقتها على عينى القس المجهدتين . كان يجلس هناك والقلم بين أصابعه بعد وصفحات هائلة لاتعد ولا تحصى قد غطاها بالكتابة ملقاة خلف مقعده ؟

الفصل الواحد والعشرون

العطلة فى « انجلترا الجديدة »

وحدث صباح يوم الانتخاب الذى يتولى فيه الحاكم الجديد وظيفته باختيار الشعب ، أن جاءت « هيستر براين » إلى ساحة السوق تصحبها « بورل » الصغيرة . وكانت الساحة مزدحمة بحشود من الصناع والدهماء من سكان البلدة . كما ظهر بينهم كثيرون غلاظ الهيئة يرتدون أكسية من جلد الغزال ؛ فقد كانوا من أهل مستعمرات الغابة التى تحيط بالعاصمة الصغيرة .

وكانت «هيستر» فى تلك العطلة الشعبية — كشأنها فى جميع المناسبات الأخرى خلال سبعة أعوام — ترتدى ثوباً من نسيج رمادي خشن . ولم يكن اللون بل كان شيئاً مبهما فى الزى يجعل « هيستر » بلا شكل .. ولا هيئة وإنما تذوب فى الظلال لا تلتفت إليها الأنظار . ولكن الشارة القرمزية كانت تعود لتتضوأ على صدرها وتلقى عليها توهجها فتبرز للعيان ثانية خارج تلك الظلال . وكان وجهها المألوف لدى أهل البلدة جميعاً يكسوه هدوء مرمرى تعود الناس رؤيته . كان هدوءاً كالقناع أو كهدوء قسمات امرأة ميتة — لأن « هيستر » كانت فعلا ميتة فيما يتعلق بأملها فى العطف والشفقة من دنيا فارقتها منذ زمن بعيد ، وإن كانت لاتزال تختلط بأهلها بين حين وحين ؛

ولـكن . . فى ذلك اليوم الوحيد . . كان فى وجهها تعبير لم يرفيه من قبل ولا كان واضحا وضوحاً كافيا ليلمحه إنسان — إلا إذا كان إنساناً حاد الذكاء قوى الملاحظة ليقرأ القلب أولا ثم يحدق فى المحيا والهيئة باحثاً عن انعكاس لما قرأ . فربما رأى ذلك النبي الروحانى حينئذ أن « هيستر » وقد تحملت مضطرة حلقة الجوع خلال سنوات بائسة عديدة — تـكفيراً ولوناً من التدين المتعصب — تحملتها مرة أخيرة الآن برضا وبمحض اختيار حتى تحيل العذاب الأليم الطويل نصراً ! وكأنما كانت ضحية الجمهور الذى يظنها أسيرته مدى العمر ، تقول له :

— « تأمل أيها الجمهور . . آخر مرة . . الشارة القرمزية وصاحبتها فلن يمضى طويل وقت حتى تـكون فى مأمن منكم ! ساعات قليلة أخرى وسوف يطفىء المحيط العميق الغامض الجذوة التى جعلتموها تحـترق فوق صدرى ! » .

ولا نبالغ فى تصوير حقيقة الطبيعة البشرية إذا نحن قلنا إن شعوراً بشىء من الندم خالج « هيستر » تلك اللحظة وهى على وشك الخلاص من الألم الذى اندمج طويلا فى كيانها . ألا يمكن أن تنتابها رغبة لاتقاوم لتعبّ جرعة كبيرة أخيرة من كأس آلامها التى أمضت معظم سنى شبابها تجرع منها ؟ فخمر الحياة التى ستقدم إلى شفتيها بعد ذلك يجب أن تـكون دسمة . . لذيذة . . مبهجة . . منعشة فى كأسها الذهبية المنقوشة ، وإلا خلفت لها حتما فتوراً مضجراً بعد أن تفارقها المرارة التى تخدرها .

أما « بورل » ، فكانت مرتدية ثياباً بهيجة مرحة يصعب على المرء أن يتصور أن تلك الإنسانة المتألقة تدين بوجودها لصاحبة الهيئة المكتئبة الرمادية ، أو أن الخيال الرائع الرقيق الذى قام بالمهمة الشاقة لإضفاء تلك الغرابة الشاذة التى تتميز بها ثياب «هيستر» البسيطة . وكان ثوب« بورل» الصغيرة يليق بها حتى ليظن المرء أنه فيض متدفق من شخصيتها ، أو دليل عليها واضح محتوم لا يمكن نزعه عنها إلا إذا نزعت الألوان المتعددة البهيجة عن جناحى فراشة مثلا ، أو إذا نزعت الروعة الملونة المرسومة عن وردة متألقة . كذلك الطفلة . كان ثوبها متلائماً مع أخلاقها وطبيعتها . أما فى ذلك اليوم الهام ، فقد كانت البنت تفيض بحيوية واضطراب لدرجة فريدة ، كماسة تبرق وتتلألأ . . تعكس تهدج الصدر المعروضة عليه . فالأطفال دائماً يعطفون على مشاعر الذين تربطهم بهم علاقة ، كما أن لديهم إحساساً بالمصائب والانقلابات التى سوف تقع فى دائرة حياتهم . لذلك كشفت « بورل » — جوهرة صدر أمها المضطرب — برقصها وقفزاتها — عن المشاعر التى لم يستطع إنسان أن يلمحها على جبهة «هيستر» بهدوئها المرمرى .

وقد جعلت تلك الحيوية البنت تقفز كالعصفورة ، ولا تسير ، إلى جوار أمها . ظلت تندفع فجأة مترنمة بموسيقى حادة وحشية غير مفهومة . فلما بلغتا ساحة السوق ، ازداد اضطرابها وقد رأت الحركة والضجيج يسودان المكان الذى يشبه بساطاً من خضرة أمام دار استقبال ريفية أكثر مما يشبه مركز الحركة الرئيسى فى بلدة .

فصاحت :

— « ماهذا يا أمى ؟ لماذا ترك كل هؤلاء الناس أعمالهم اليوم ؟ أهو يوم لهو ولعب للعالم أجمع ؟ انظرى . . هاهو ذا الحداد وقد غسل وجهه المسود وارتدى خير ثيابه وبدا عليه نزوع قوى إلى المرح والانشراح — لو أن أحداً علمه فى طول عمره المرح والانشراح ! وها هو ذا السيد « براكيت » السجان الهرم يحيينى ويبتسم لى « لماذا يفعل ذلك يا أمى ؟ » .

فأجابت « هيستر » :

— « هو يذكرك وأنت وليدة بعد ياصغيرتى ! » .

فقالت « بورل » :

— « ومع ذلك فليس له أن يحيينى ويبتسم لى ، ذلك الرجل الهرم .. الأسود ذو العين القبيحة ! له أن يحييك أنت إذا شاء . فأنت ترتدين ثوباً رمادياً ، وتضعين الشارة القرمزية على صدرك . ولكن انظرى يا أمى . . انظرى كم هناك من وجوه الغرباء .. وهنود حمر .. ونوتيين ! ماذا جاءوا جميعاً يصنعون هنا فى ساحة السوق ؟ » .

فقالت « هيستر » :

— « إنهم فى انتظار مرور . فإن الحاكم .. والقضاة .. والقساوسة والكبراء .. والصالحين جميعاً سوف يمرون الآن تتقــــدمهم الجنود والموسيقى ! » .

فسألت « بورل » :

— « وهل يكون القس معهم ؟ وهل يبسط كلتا ذراعيه لى ، كما فعل عندما أخذتنى إليه عند الجدول ؟ »

فأجابت أمها :

« سيكون هناك يا طفلتى ، لكنه لن يحييك اليوم ، وكذلك يجب ألا تحييه أنت أيضاً ! » .

فقالت الطفلة كأنما تحدث نفسها :

— « شدما هو حزين وغريب الأطوار ذلك الرجل ! يناديتا إليه عندما يهبط الليل الحالك ويمسك بكل من يدك ويدى ، كما فعل ونحن ثلاثتنا واقفون فوق المقصلة . وفى أعماق الغابة . . حيث لا تسمعنا إلا عجائز الشجر وشقة من السماء فوق رءوسنا ، يحادثك وهو جالس إلى جوارك فوق كومة طحلب ! ثم يقبل جبينى أيضاً بحرارة يكاد يعجز الجدول الصغير عن محوها ! لكنه هنا فى وضح النهار . . وبين كل الناس . . يتنكر لنا ! كما يجب ألا نعرفه نحن أيضاً ! هو رجل حزين غريب الأطوار بلاشك ، بيده تلك التى تضغط قلبه دائما ! » .

فقالت أمها :

— « صه يا « بورل » . . صه ! أنت لا تفهمين تلك الأمور ! لاتفكرى الآن فى القس بل انظرى حولك وتأملى المرح الذى يكسو وجوه الناس جميعاً اليوم ! لقد جاء الأطفال من مدارسهم . . والكبار من أعمالهم وحقولهم ، وهدفهم الوحيد هو المرح ! فاليوم يحكمهم رجل جديد . لهذا

— كعادة البشرية منذ تكونت أول أمة — هم يحتفلون ويبتهجون كأنما ستمر بالعالم الهرم المسكين سنة ذهبية ! » .

وكان الأمر فعلا كما قالت « هيستر » فيما يتعلق بالبشر الذى يكسو وجوه الناس . فقد كان هؤلاء القوم المتزمتون . . « البيوريتانز » — فيما تعودوا مدى قرنين من الزمن — يحتفظون لذلك الفصل المرح من العام بكل الطلاقة والبهجة التى يعتبرونها ضعفاً فى الخلق البشرى . لهذا طوحوا بتزمتهم وعبوسهم وبدوا فرحين منشرحين كأفراد أى مجتمع آخر فى ذلك العهد الذى تسوده كآبة عامة .

لكننا . . ربما . . قد بالغنا فى تصوير الكآبة والتجهم اللذين يميزان سلوك ذلك العهد وأخلاقه . فالأشخاص المجتمعون الآن فى ساحة السوق لم يرثوا التجهم البيوريتانى . فقد كانوا من مواليد انجلترا . عاش آباؤهم فى عهد « اليزابيث » الذهبى — زمن كانت الحياة فى انجلترا ، إذا نظرنا إليها نظرة شاملة ، تعتبر ذات بهاء . . وجلال . . ومرح كخير ما شهد العالم . ولو أن المهاجرين إلى « انجلترا الجديدة » حافظوا على تقاليدهم ، لاحتفلوا بكل المناسبات العامة ذات الأهمية الخاصة بالمشاعل . . والمواكب وباقات الولائم . . وبتمثيل مسرحيات فى العراء . ولم يكن ليضير احتفالات جليلة فخمة كهذه أن يجمع فيها بين اللهو والمرح والوقار ، إضفاء تطريز بهيج على ثوب الدولة الذى ترتديه فى تلك المناسبات . كانت هناك محاولة واضحة فى احتفال القوم ببدء العام السياسى للمستعمرة ،

ـ انعكاس رونق قديم يذكرونه ـ صورة ناصلة لما شاهدوه فى لندن العجوز المتعجرفة . لن نقول إنها صورة للاحتفال بتتويج ملك بل لعرض يقيمه المحافظ ، تتبدى فى الملابس التى كان آباؤها الأوائل يرتدونها عند الاحتفال بانتخاب حاكم جديد . فآباء الحكومة ومؤسسوها : الرجل السياسى . . والقس . . والجندى ، رأوا من واجبهم أن يحافظوا على جلال هيئتهم التى كانت تعتبر ، وفقاً للذوق العتيق ، خير ثياب تليق بالوظائف الحكومية الرفيعة . فجاءوا الآن جميعاً ليمروا أمام عيون الناس ، ويضفوا عظمة وفخامة على احتفال بسيط لهيئة حكومية ناشئة .

كما أن الناس تشجعوا على طرح تجهمهم بعض الوقت ، ذلك الذى كاد يكون بعض تعاليم دينهم . ومع أن المرء لم يكن ليجد لوناً من ألوان المرح التى كانت سائدة فى انجلترا فى عهد الملكة « اليزابيث » أو الملك « جيمس » — لا استعراضات مسرحية من أى لون . . . ولا مطرباً جوالاً بقيثارته وأغنيته الطويلة . . ولا مهرجاً يرقص قرداً على نغمات موسيقاه . . . ولا بهلولاً يقلد السحرة تقليداً مضحكاً . . . ولا ممثلا يتقمص شخصية « أندرو المرح » ويغرق حشود الناس بفيض من مرحه التى ربما كان عمرها مئات السنين لكنها مع ذلك تثير الضحك . فأساتذة الفن والضحك والمرح هؤلاء كانوا يصدون حتما بصرامة وحزم ، لا بحكم القانون المتزمت وحسب ولكن بحكم الشعور العام الذى يعطى القانون قوة وحيوية . ومع ذلك ابتسم وجه الجماهير الكبير المخلص ابتسامة يشوبها

تجهم لـكنها واسعة مرحة . كذلك لم تعوزهم الاستعراضات الرياضية التي شاهدها أهل المستعمرة واشتركوا فيها منذ زمن بعيد فى المهرجانات الريفية التى كانت تقام على أرض « إنجلترا الخضراء » ، والتي رئى من الخير إحياؤها على هذه الأرض الجديدة من أجل الشجاعة والبسالة التي توحى بها تلك الاستعراضات . فـكنت ترى مباريات للملاكمة على طريقة « كورنوال » و « ديفونشاير » هنا وهناك فى ساحة السوق وفى ركن آخر كنت تجد مباراة ودية بالهراوات ، وثمة شىء آخر استرعى جل الأنظار ألا وهو وقوف اثنين من أساطين فن المبارزة فوق المقصلة — التى ذكرت مراراً على صفحاتنا السابقة — يتباريان بالدروع والسيوف . ولـكن ، لخيبة أمل جمهور المتفرجين ، سرعان ما انفضت تلك المباراة بتدخل سادن الـكنيسة الذى لم يخطر بباله قط أن يسمح لجلال القانون أن يمتهن بانتهاك حرمة إحدى أماكنه المقدسة .

ولعلنا لا نبالغ إذا أكدنا أن أهل ذلك العهد بصفة عامة ، وبرغم أنهم كانوا ما يزالون فى دنيا المرح ، وأنهم كانوا حفدة قوم يعرفون كيف يمرحون — لو أننا فيما يتعلق بتمضية أيام العطلة وازنّا بينهم وبين سلالتهم ، بل لو وازنا بينهم وبيننا نحن أبناء العصر الحديث — لما خرجوا مهزومين من الموازنة . فقد خلفتهم سـلالة جاءت بعد المهاجرين الأوائل مباشرة كانت متزمتة تزمتاً حالـكاً ، أضفى لوناً أسود على السحنة الشعبية حتى إن كل السنين التى تلت ذلك العهد لم تـكف لمحوه ، فعلينا بعد أن نتعلم فن المرح المنسى !

ومع أن صورة الحياة العامة فى ساحة السوق كانت تغلب عليها الألوان الرمادية الحزينة والبنية والسوداء ، يرتديها المهاجرون الإنجليز ، فإنها خففت بمجموعة مختلفة من الألوان الأخرى . فقد كانت هناك عصبة من الهنود الحمر بثيابهم وزينتهم الهمجية من أردية مصنوعة من جلد الغزال . . وأحزمة من خرز وأصداف . . وقد خططوا أجسامهم بأصباغ حمراء ورتقالية . . وتزينوا بريش . . وتسلحوا بأقواس وسهام ورماح ذات رءوس من حجارة . ووقفوا جانباً بسحن تفوق سحن « البيوريتانز » تجهماً ! وبرغم المظهر الهمجى لأولئك المتوحشين بأصباغهم وريشهم ، لم يكونوا المظهر الهمجى الوحيد فى المشهد ؛ إذ فاقتهم عصبة من النوتيين — بحارة السفينـة القادمة من المضيق الأسبانى — نزلوا إلى البر ليشتركوا فى مباهج يوم الانتخاب . كانوا عصبة من الحمقى الطائشين بلحى كثة وقد سودت وجوههم الشمس . وكانت سراويلهم الواسعة القصيرة مضمومة إلى خصورهم بأحزمة لها مشابك من ذهب ، تتدلى منها دائماً مطواة طويلة وأحياناً سيف . وتبرق من تحت قبعاتهم ذات الحافات العريضة عيون تشع ، حتى فى مرحها وأطيب حالاتها ، بلون من شراسة حيوانية . نخرقوا بلا خوف ولا تردد كل قواعد السلوك التى يرتبط بها الآخرون ، وراحوا ينفثون دخان لفائفهم تحت أنف سادن الكنيسة نفسه ، مع أن الغرامة المفروضة على أهل البلدة هى خمسة قروش لكل نفخة دخان كهذه . وأكبوا يجرعون على هواهم جرعات من زجاجات خمر يخرجونها من

جيوبهم ويعرضونها بسماحة على الجمهور المصعوق الذى يلتف حولهم . وهذا دليل على عدم التمسك بالفضائل تمسكاً تاماً فى ذلك العهد الذى ندعوه متزمتاً ؛ لأن الرخص كانت تصرف لطبقة النــــواتى لا فى نزواتهم على الشاطىء وحسب ، بل فى أعمالهم الرعناء الأخرى كلها فقد كان نوتى ذلك العهد شبيهاً بمن نتهمه بالقرصنة . ونواتى هذه السفينة عينها ، وإن لم يكونوا شراً من زملائهم فى المهنة ، قد اتهموا بأعمال سلب ونهب من التجارة الأسبانية كانت تجر عليهم أحكاماً بالإعدام لو أنهم وقفوا أمام القضاء فى عهدنا الحديث .

ولكن البحر — فى تلك الأزمنة الغابرة — كان يثور . . ويزفر . . ويخفق . . ويسخط . . ويزبد على هواه ، لا يخضع إلا للرياح العاصفة دون محاولة لسن قانون أو نظام من جانب البشر . ففى وسع لص البحر الذى يمتطى صهوة الأمواج أن يعتزل مهنته فى أى لحظة يشاء ويصير — إذا أراد — رجل تقوى وصلاح . وحتى أثناء مزاولته لمهنته الشائنة وخلال حياته السادرة لم تكن مصادقته أو معاملته تعتبر أمراً يسىء إلى السمعة . لهذا وقف كبراء « البيوريتانز » بمعاطفهم السوداء ... وياقاتهم المنشاة . . . وقبعاتهم الدقيقة الأطراف يرقبون ضجيج هؤلاء النوتيين المرحين ولهوهم الفظ ويبتسمون بلطف وبشاشة فلم يثر الدهشة ولا النقد وقوف « روجر شيلينجورث » الطبيب الهرم يتحدث بألفة بالغة إلى ربان السفينة المذكورة .

وكان ربان السفينة أكثر أفراد عصبته مرحاً ، وثيابه أشد الثياب لفتاً للأنظار . زين رداءه بجملة من الشرائط الملونة . . وقبعته بشبكة ذهبية كما أحاطها بسلسلة من ذهب ووضع فيها ريشة طائر . وتدلى من جنبه سيف ، كما ظهر على جبينه جرح سيف غائر بدا من تصفيفه لشعره وكأنه متلهف على إظهاره لا إخفائه . ولم يكن بين المدنيين جميعهم من يجرؤ على ارتداء مثل تلك الثياب ومثل ذلك الوجه والظهور بهما علانية أمام الناس بمثل تلك القحة دون أن يتعرض لمحاكمة صارمة أمام قاض قد يحكم عليه بغرامة . . أو بسجن . أو بعرضه فوق منصة العار . أما ربان السفينة فقد أباح له الجميع أخلاقه وثيابه تلك كما يبيحون للسمكة قشورها الفضية البراقة .

وبعد أن تحدث ربان سفينة « بريستول » طويلاً إلى الطبيب ، راح يجول بلا هدف فى ساحة السوق ، حتى إذا وصل إلى حيث وقفت «هيستر براين» بدا عليه أنه تعرف إليها . فلم يتردد فى مخاطبتها . وكانت «هيستر» واقفة تحيط بها دائرة خالية من الناس — دائرة سحرية كما هى العادة — لم يحاول أحد من الحشد المتزاحم أن يخطو داخلها ، كانت دليلاً آخر على العزلة الخلقية التى تفرضها الشارة القرمزية على تلك التى قدر عليها أن ترتديها . وكان بعض السبب يعود إلى تحفظها هى شخصياً ، ويعود البعض الآخر إلى الانكماش الغريزى — وان لم يعد الآن قاسياً — ذلك الانكماش الذى يشعر به زملاؤها البشر . فكانت تلك المرة الوحيدة التى

أفادها فيها ذلك الانكماش إذ أعانها على الحديث مع ربان السفينة دون خوف من أن يلتقط أحد حديثهما . وقد تبدلت نظرة العامة إلى سمعة « هيستر براين » حتى إن أى سيدة أخرى ، وإن كانت ذات أطيب سمعة ، لم تكن لتستطيع التحدث إلى الربان دون تعريض سمعتها للخطر والفضيحة .

قال ربان السفينة :

— « إذن يا سيدتى أنا مضطر أن آمر الخادم كى يمد سريراً آخر غير الأسرَّة الثلاثة التى فاوضتنى فى أمرها ! لن يكون هناك خوف من أمراض السفن فى رحلتنا هذه ! فسوف يكون معنا طبيب السفينة الخاص ثم هذا الطبيب الآخر ، فالخطر الوحيد هو الإسراف فى تعاطى العقاقير ! فلدىّ .. فوق سفينتى .. حمولة ضخمة من العقاقير أخذتها صفقة من سفينة أسبانية ! »

فسألته « هيستر » وقد بدا عليها انزعاج شديد حاولت إخفاءه :

— « ماذا تعنى ؟ ألديك مسافر آخر ؟ »

فصاح الربان :

— « ألا تعلمين أن ذلك الطبيب الذى يدعو نفسه « شيلينجورث » يريد أن يسافر معك ؟ نعم .. نعم . . لابد أنك كنت تعلمين ! فقد قال لى إنه أحد أفراد جماعتك وإنه الصديق الحميم لذلك السيد الذى حدثتنى عنه — ذلك الذى يعيش فى خطر من هؤلاء الحكام البيوريتانيين المتجهمين ! »

فأجابت « هيستر » ووجهها هادىء ، وإن كانت تمر بحيرة قاتلة وذعر مميب :

— «أجل .. هما متعارفان أوثق تعارف ، فقد عاشا معاً زمنا طويلا ! »

وانقطع الحديث بين الربان و « هيستر براين » عند ذلك الحد . لكنها .. تلك اللحظة . . لمحت « روجر شيلينجورث » الهرم واقفاً فى ركن قصى من ساحة السوق يبتسم لها ابتسامة حملت — عبر الساحة الواسعة المزدحمة . . وعبر الضجيج والحديث .. والأفكار المتعددة . . ومشاعر الجماهير ومطالبهم المختلفة — معنى خفياً رهيباً .

الفصل الثاني والعشرون

الموكب

قبل أن تحكم « هيستر براين » أعصابها وتجمع شتات أفكارها وتفكر فيما تفعله بحكمة وروية وقد تغيرت الأمور هـــكذا ، دوت الموسيقى العسكرية وهى تقترب من شارع مجاور . وكانت دليل بدء موكب القضاة والمواطنين فى طريقه إلى دار الاجتماع حيث يلقى القس الجليل « ديمسدال » خطاباً انتخابياً ، وفقاً لتقليد قديم متبع منذ زمن بعيد .

وسرعان ماظهرت الجوقة الموسيقية على رأس الموكب تتقدم ببطء وجلال ، فدارت حول ركن واتجهت إلى ساحة السوق . وكانت الجوقة مكونة من آلات عزف مختلفة . . ربما لاتتوافق معاً ولا يعزف عليها حاملوها بمهارة لكنهم أدوا المهمة المطلوبة منهم كما قام الطبل والبوق بإضفاء جو من البطولة على مشهد الحياة الذى يمر أمام الجماهير . فراحت « بورل » الصغيرة بادىء بدء تصفق ، لكنها سرعان ما أضاعت الحيوية التى كانت تفور بها منذ الصباح. فراحت تحملق فى صمت كأنما أمواج الأصوات المتهدجة المضطربة تحملها عاليا كعصفورة بحر صغيرة . وما هى إلا أن استردت نفسيتها المرحة التى تفيض بالحيوية ، عندما وقعت أشعة الشمس على الأسلحة والدروع البراقة اللامعة التى يرتديهـا أفراد الفرقة العسكرية التى تبعت الفرقة الموسيقية

«رفيق شرف للموكب كله . وان تلك الفرقة العسكرية التي احتفظت بكيانها وشهرتها منذ العصور الغابرة وسارت حتى الآن على رأس المواكب — لم تكن مكونة من عناصر مرتزقة ، بل كان كل جنودها سادة مهذبين يشعرون بحماسة عسكرية ، وقد جاهدوا كي ينشئوا « كلية عسكرية » يتلقون فيها فن القتال على قدر ما يسمح به زمن السلم . وكان التقدير العام للروح العسكرية واضحاً في رفع أفراد تلك الفرقة العسكرية لرءوسهم وخطوتهم المتعالية . كما كان لبعضهم الذين حاربوا فعلاً في ساحات قتال أوربية حق في تلك العظمة وذلك الترفع العسكري . وكانت للفرقة كلها هيئة بهيجة ، بدروعها الفولاذية البراقة وخوذاتها التي يعلوها ريش طيور فخم يتمايل في الهواء .

ومع ذلك ، فإن الكبراء المدنيين الذين ساروا خلف الحرس العسكري بدوا في جلال أحال خطوة الجندي المتعالية ابتذالا . . إن لم يكن شذوذاً؛ فقد كان عهداً لا يقدر ما نسميه نحن : « المواهب » حق قدرها ، لكنه يقدر تماماً العناصر الأصلية الضخمة التي يتولد منها الثبات . والرسوخ . . والوقار . وكان للناس وقار موروث ، لا يبدو في سلالاتهم إلا بقدر ضئيل هزيل — إن وجد — ويظهر في انتخابهم وتقديرهم للرجال الذين يشغلون وظائف عامة . ربما كان هذا التغيير الواضح بين الأجداد وسلالاتهم للخير . . أو للشر . . أو لكليهما معاً . فإن المهاجر الإنجليزي في تلك الأيام الغابرة وقد خلف وراء ظهر الملك . . والنبلاء . . والطبقات الاجتماعية المختلفة على

حين بقيت له القدرة وظلت له الحاجة الملحة لتوقير شخص ما — سخى باحترامه وتقديره للشعر الأبيض والجبهة العجوز الوقور .. وللاستقامة .. والحكمة الراسخة .. والتجارب القاسية المريرة . ثم لتلك السجايا الثمينة الخطيرة الثابتة التى تجلب للمرء احتراماً .. لهذا لم يميز هؤلاء الساسة البدائيين « براد ستريت » ... و « أنديكوت » ...و « دادلى » ...و « بيلينجهام » وزملاءهم ممن رفعوا للسلطة باختيار الشعب — لم يميزهم ذكاء بقدر ما تميزوا بحكمة ووقار عظيمين . كان لديهم جلد وصبر وتعويل على النفس عظيم ، فثبتوا أمام الشدائد لصالح الدولة كصف من الصخور أمام بحر عاصف . وكانت تلك السجايا تبدو واضحة فيما تميز به حكام المستعمرة من قسمات الوجه المربع والكيان الضخم . فلم يكن لمسقط رءوسهم أن يخجل منهم هؤلاء الحكام الأوائل لدولة ديمقراطية حقة لو أنهم صاروا أعضاء فى « مجلس النبلاء » أو فى « المجلس الاستشارى » للملك .

وسار فى الموكب خلف الحكام القس الشاب الممتاز الذى سيتدفق من شفتيه الخطاب الانتخابى السنوى . فقد كانت وظيفته فرصة طيبة لإنماء موهبة الذكاء من الحياة السياسية . فإلى جانب هدف المهنة السامى كانت لها قوة نفوذ هائلة فى مجتمع ورع يحترمها احتراماً يقرب من العبادة ، ويطيعها طاعة عمياء . فكانت السلطة السياسية فى قبضة قس ناجح .

ولقد تهامس الناس الذين رأوا السيد « ديمسدال » ذلك اليوم أنه

منذ وضع قدمه على شاطىء « انجلترا الجديدة » ، لم يبد نشاطاً كالذى تمشى فى حركاته وفى الجو المحيط به أثناء سيره فى الموكب ، ما كان فى خطوته الوهن الذى ميزها فى أوقات أخرى . . ولا انحنت قامته . . ولا هو وضع يده فوق نذير شر . ومع ذلك ، فلو أن حالة القس فهمت على حقيقتها لتبين أن قوته ليست منبعثة من بدنه ، بل لعلها قوة روحانية أفاضتها الملائكة على بدنه . أو لعلها سرور ذلك الجبار : القلب ، وهى التى تستقطر فى موقد الحماسة والفكر المتصل ، أو لعل إحساسه المرهف استقوى بالموسيقى العالية الحادة التى تتضخم وتعلو مصعدة نحو السماء وتحمله معها على أجنحتها . ومع ذلك كانت نظرته غامضة حتى ليشك المرء فى كون الموسيقى قد بلغت « السيد ديمسدال » قطعاً . كان جسده يتحرك فى الموكب ويتقدم معه ولكن أين كان عقله ؟. كان غارقا فى مكان خاص به مشغولا بنشاط غير عادى ينظم صفا طويلا من الأفكار ليخرجها عن قريب إلى حيز الوجود ، فلا هو لذلك رأى شيئا ، ولا هو سمع شيئا ، ولا عرف شيئا مما دار حوله ، ولكن العنصر الروحانى تولى أمر البدن الواهن وأحاله روحاً هو أيضا وأعانه على الاستمرار فى التقدم وعلى فقدان الشعور بثقل الحمل ، فإنك لتجد للرجال ذوى الذكاء الخارق الذين أصابهم مرض ، قدرة جبارة على سكب نشاط أيام كثيرة فى لحظة واحدة ثم يرتمون ناضبى القوى أياما مماثلة .

فوقفت « هيستر براين » تحدق فى القس يخالجها شعور بحزن يسيطر عليها لا تدرى كنهة ولا تعرف مصدره — إلا إذا كان السبب أن القس

يبدو نائياً .. خارج دائرة حياتها . كانت تظن أن نظرة واحدة يتبادلانها كافية لوصل ما انقطع بينهما . فراحت تفكر فى الغابة الظلمة .. وفى ذلك الوادى الصغير المنعزل ... وفى الحب .. والعذاب ... وفى جذع الشجر الذى يغطيه الطحلب حيث جلسا يمسك أحدهما بيد الآخر ، وحيث مزجا حديثهما الحار الحزين بغمغمة الجدول المكتئبة . شد ما فهم كلاهما صاحبه تلك اللحظة ! أهذا هو الرجل عينه ؟ إنها الآن تكاد لا تعرفه ! فهو يمر أمامها بعظمة ، تلفه الموسيقى الفخمة .. فى موكب الآباء الأجلاء المتوقرين ، يبدو نائياً عنها فى مركزه الرفيع وخاصة فى بيداء أفكاره غير الحانية تلك التى رأتها «هيستر» على وجهه ! فانهارت نفسيتها وهى توجس خيفة أن يكون مادار بينهما ليس إلا سراباً .. وعلى الرغم من توهج ذلك السراب أو ذلك الحلم لايوجد بينهما رباط وثيق حقاً . ولما كانت «هيستر» أنثى كاملة فإنها لم تستطع — وبخاصة الآن وخطوات قدرهما الثقيلة تقترب أكثر .. وأكثر .. وأكثر — أن تغفر له انفصاله عن عالمهما المشترك على حين تتخبط هى فى الظلام وتبسط يديها المثلجتين أمامها باحثة عنه ، فلا تجده .

وقد شعرت « بورل » بشعور أمها عينه ، واستجابت له .. أولعلها شعرت هى أيضاً بتباعد القس وجو الغموض والتنائى الذى أحاط به. فراحت والموكب يمر بهما ، تقفز مضطربة .. قلقة .. كعصفورة على وشك أن تطير . فلما مر الموكب بأكمله رفعت عينيها إلى وجه «هيستر» وقالت :

— « أهذا ياأمى هو القس عينه الذى قبلنى بجوار الجدول ؟ »

فهمست أمها :

— « صه ياحبيبتى الصغيرة « بورل » — صه ! علينا ألا نتحدث دائماً فى ساحة السوق عما وقع لنا فى الغابة ! » .

فاستطردت الطفلة :

— « لست واثقة أنه هو عينه . فهو يبدو غريباً وإلا لركضت إليه وطلبت منه أن يقبلنى الآن أمام كل هؤلاء الناس ، كما فعل هناك بين الأشجار السوداء العجائز . ماذا كان يقول القس ياأمى حينئذ ؟ أكان يضغط قلبه بيده ويعبس فى وجهى ويطلب منى الذهاب بعيداً ؟ .

فأجابت أمها :

— « ماذا يقول يا « بورل » إلا أن الوقت غير ملائم لمطالبته بقبلة ، وأن القبلات لا توهب فى ساحة السوق ؟ لقد فعلت خيراً أيتها الطفلة الطائشة بعدم ذهابك إليه ! » .

وقد اعترى الشعور عينه — فيما يتعلق بالسيد «ديمسدال» — إنسانة أخرى عبرت عنه فى جنون واندفاع لم يكونا ليصدرا من أحد من أهل البلدة ، ألا وهو مبادرة حاملة الشارة القرمزية؟ بالحديث علناً وعلى رءوس الأشهاد . كانت تلك الإنسانة هى السيدة « هيبنز » التى خرجت فى ثياب

ثمينة لتشهد الموكب : ثلاث ياقات منشاة ... وصدار مطرز ... وثوب من القطيفة .. وعصا برأس من ذهب . ولما كانت تلك السيدة المسنة مشهورة (شهرة كلفتها حياتها) بأنها المسئولة الأولى عما يجرى من أعمال سحرية فى المستعمرة كلها ، فإن جموع الناس كانت تتقهقر أمامها وتتجنب ملامسة ثيابها بخوف ورعب كأنما تحمل الطاعون بين طياتها الفاخرة وبرغم عطفهم الآن على « هيستر براين » فقد زاد تقهقرهم من تلك المنطقة كلها عندما رأوا الساحرة العجوز التى يوجسون منها خيفة تتحدث إليها وتركوا المرأتين وحدهما .

فهمست العجوز تسر إليها كأنهما صديقتان :

— « أى خيال آدمى يستطيع أن يدرك حقيقة ذلك الرجل الورع ، ذلك القديس الذى يسير على الأرض — كما يتخيله الناس وكما يبدو هو بمظهره هذا ! فمن — بين الذى رأوه يمر الآن على رأس الموكب — يصدق أنه خرج منذ وقت قصير من مكتبته يتشدق بآيات من الإنجيل العبرى . ليروح عن نفسه فى الغابة ! فنحن يا «هيستر براين» نعلم جيداً معنى ذلك لكننى فى الحقيقة أشك أنه الرجل عينه . لقد رأيت كثيراً من المتدينين الذين ساروا خلف الموسيقى الكنسية .. يرقصون معى أيضاً على موسيقى شيطانية يعزفها أحد سحرة الهنود الحمر أو ساحر آخر من أعماق الغابة ! ومع ذلك ، لا تدهش امرأة عركت الدنيا من شىء كهذا ، ولكن ...

هذا القس ! أفى وسعك يا « هيستر براين » أن تقطعى برأى فى أن يكون هذا هو الرجل عينه الذى قابلك فى طريق ؟ .

فأجابتها « هيستر براين » وقد شعرت أن المرأة مخبولة ؟ ومع ذلك أصابها ذعر شديد غريب ، ورهبة غريبة ، والمرأة تتحدث هكذا عن أناس كثيرين (هى واحدة منهم) مرتبطين بالشيطان . فقالت :

— « سيدتى .. إننى لا أعرف عم تتحدثين . ليس لى الحق فى الاستخفاف بقس ورع مثقف كالسيد الجليل « ديمسدال ! » .

فصاحت العجوز وهى تهز إصبعها فى وجه « هيستر » :

— « تبًّا لك يا امرأة ! أتظنين أننى ذهبت تلك المرات العديدة إلى الغابة سدى ، وأننى ما زلت بلا خبرة ومهارة لأعرف من ذهب إليها أيضاً ؟ أجل ... وإن لم تعلق بهم ورقة شجر واحدة من العقود التى كللوا بها شعورهم وهم يرقصون ! أنا أعرفك يا « هيستر » لأننى أرى الشارة عليك فنى وسعنا كلنا أن نراها فى نور الشمس ، وهى فى الظلام تتوهج كلهب أحمر ! أنت ترتدينها علانية — فلا شك هنـــاك فيها ! ولكن هذا القس ! دعينى أهمس فى أذنك ! فإن « الرجل الأسود » — عندما يرى أحد أتباعه المخلصين يخجل من المجاهرة بالرباط الذى يربطه به .. كالسيد الجليل « ديمسدال » — يصدر حينئذ أوامره بحيث يكشف الشارة فى وضح النهار أمام أعين العالم أجمع ! ماذا يسمى القس دائماً لإخفائه بوضع يده هكذا فوق قلبه ؟ هيه ... يا « هيستر براين ؟ » .

فتساءلت « بورل » الصغيرة بلهفة :

— « ماذا يخفى ياسيدتى الطيبة (هيبنز) ؟ هل رأيت ما يخفيه ؟ »

فأجابتها السيدة « هيبنز » وهى تنحنى محيية « بورل » :

— « لاضير ياحبيبتى ... سترينه بنفسك ذات يوم . يقولون عنك ياطفلة إنك من سلالة أمير الهواء ! أتعطين مهى المكنسة ... فى إحدى الليالى الرائمة .. لتزورى أباك ؟ حينئذ تعرفين لم يضع القس يده فوق قلبه ! »

وضحكت الساحرة العجوز الغامضة ضحكاً عالياً حاداً يصك الآذان سمعه كل من كان فى ساحة السوق ، ثم ذهبت بعيداً .

وكانت صلاة الافتتاح قد أقيمت فى دار الإجتماع ، وعلت نبرات القس الجليل « ديمسدال » وهو يبدأ خطابه . فسمر « هيستر » مكانها شعور لا يقاوم . ولما كان البناء مزدحماً لا يسمح بدخول مستمع آخر ، فقد اتخذت لها مكاناً إلى جوار منصة العقاب المنصوبة أمامه . وكان قرباً كافياً ليصل الخطاب بأكمله إلى أذنيها فى صورة غمغمة مختلفة غير واضحة لنبرات القس المألوفة .

كان صوته هبة ثمينة . فإن أى مستمع لا يفقه اللغة التى يتحدث بها الواعظ كان يتأثر التأثر عينه وينفعل الانفعال عينه بنبراته وإيقاعه وحسب . كان صوته ، كأى موسيقى أخرى ممتلئاً بوجد .. وشجن .. معبراً عن مشاعر سامية رقيقة بلغة يفهمها القلب البشرى مهما كانت

ثقافته . وبرغم تشوش الصوت وهو يتخلل جدران الكنيسة ، أنصتت « هيستر براين » إليه بتركيز واهتمام .. وبكل قلبها حتى إن الخطاب حمل إليها معنى مخالفاً لما تحمله كلماته غير الواضحة . ولو أن الكلمات كانت أكثر وضوحاً ربما صارت وسيطاً غليظاً يخنق المعنى الروحانى . وقفت « هيستر » تلتقط النبرات المنخفضة التى تشبه الهواء وهو يهبط ويهبط ليستكين ويستريح . ثم ترتفع « هيستر » مع النبرات ولا تفتأ ترتفع وترتفع متدرجة فى طلاوة وقوة ، حتى يلفها الصوت بجو من الرهبة والفخامة والوقار . ومع ذلك ، وبرغم فخامة الصوت فى أحيان كثيرة ، كانت صفة هامة تميزه دائماً وهى الكآبة والحزن : تعبير عال أو منخفض عن الألم .. همسة أو صرخة — كل كما يفهمها ، إنسانية معذبة .. تمس وتراً حساساً فى كل صدر ! فأحياناً لم تصل إلى جموع المستمعين إلا هذه النفحات من الشجن والجزع تنسل هامسة بين سكون تام . وبينما صوت القس يعلو ويعلو تملؤه نبرة آمرة ، ويتدفق بلا عائق نحو العلى وقد بلغ الذروة فى القوة والاتساع وشمل أجواء الكنيسة كلها واخترق جدرانها الغليظة ليندفع إلى الهواء الطلق — حتى فى هذه الحالة ، كان فى وسع المستمع أن يفطن إلى صرخة الألم عينها . ماذا كانت تلك الصرخة ؟ شكوى قلب يجيش بالأحزان إلى قلب الإنسانية الكبير ، يطلب عطفها وعفوها .. فى كل لحظة .. فى كل نبرة ، ولم يفعل ذلك سدًى ! فقد كانت تلك النبرة الشاكية الدائبة اللوعة هى التى أعطت القس قوة وسلطاناً .

ووقفت « هيستر » طوال هذا الوقت كالتمثال ملتصقة بمنصة العقاب . ولو لم يسمرها صوت القس بذلك المكان لجذبتها إليه قوى مغنطيسية؛ إذ لقيت فيه أول ساعة من ساعات خزيها العلنى وفضيحتها العامة . وخالجها خاطر مشئوم — ليس فكرة بل شعوراً أرهق عقلها — أن دائرة حياتها كلها . . السابقة والمستقبلة . . مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بذلك المكان كأنه المحور الذى يعطيها تماسكاً ووحدة .

أما « بورل » فتركت جوار أمها ، خلال ذلك الوقت ، وراحت تلهو وفق هواها فى ساحة السوق . وجعلت الحشد المتجهم أكثر مرحاً وبهجة بهيئتها البراقة ، كما تسبغ عصفورة واحدة ذات ريش بهيج ملون بهاءها على شجرة كبيرة ذات أوراق قاتمة ، وتضيئها باندفاعها داخلة خارجة . . تظهر لحظة وتختفى أخرى بين أوراق الشجر المتكاثفة . كانت حركاتها متماوجة لكنها مندفعة حاسمة فى معظم الأحيان — دليل حيوية روحها القلقة المضطربة التى تضاعفت ذلك اليوم تجاوباً مع اضطراب أمها . وكانت « بورل » كلما لمحت شيئاً يثير فضولها النشيط أبداً ، اندفعت نحوه ، سواء كان شيئاً ما أم رجلاً ، وأصرت على أنه ملكها ما دامت هى تريده ، ولكن دون أن تتنزل قيد أنملة عن ثورتها أو تحكم عواطفها كثمن أو تعويض . وكان « البيوريتانز » — أولئك الناس المتعصبون — يتأملون البنت الصغيرة وأعمالها ، وإن تبسموا فلأنهم اعتبروا الطفلة من سلالة شيطانية بجمالها الخارق وبالضياء الشاذ الغريب الذى يشع من جسمها

الصغير الذى يتلألأ بحيوية دافقة . وقد ركضت وحلقت فى وجه الهندى الأحمر الهمجى ، فشعر أنه يواجه طبيعة أكثر وحشية وهمجيـــة من طبيعته : ثم طارت بجرأة فطرية ولـكن بترفع فطرى مماثل ، واندفعت بين عصبة النوتيين — رجال المحيط الهمجيين الشديدى السمرة ، كما كان الهنود الحمر رجال الغابة الهمجيين الشديدى السمرة . فنظر الرجال إلى « بورل » بإعجاب ودهشة ، كأنما اتخذ زبد البحر هيئة صبية صغيرة بعثت فيها روحاً من نار البحر التى تومض وتبرق تحت مقدم السفينة أثناء الليل :

وتجرأ أحد هؤلاء النوتيين — ربان السفينة نفسه الذى تحدث إلى « هيستر براين » — وقد أذهله جمال « بورل » وروعة هيئتها فحاول أن يضع يديه عليها ليخطف لنفسه قبلة . فلما وجد استحالة لمسها كأنما يحاول لمس عصفورة تطير فى الهواء ، نزع السلسلة الذهبية من حول قبعته وألقاها إلى الطفلة . فلفتها « بورل » من فورها حول عنقها وخصرها بمهارة فائقة مرحة ، حتى بدت وكأنها جزء منها يصعب تخيل الصبية بدونه .

وسألها رجل البحار :

— « أهذه أمك التى هناك ترتدى الشارة القرمزية ، أتحملين إليها رسالة منى ؟ »

فأجابت « بورل » :

— « إذا أعجبتني الرسالة ، حملتها إليها ! »

فاستطرد :

— « إذن قولى لها إنى تحدثت مرة أخرى إلى الطبيب الهرم القمىء ذى السحنة السوداء ، فوعد بإحضار صديقه — السيد عينه الذى تعرفه أمك — ومرافقته إلى سطح السفينة . فقولى لأمك لا تشغل بالها إلا بك وبنفسها .. أتبلغينها ذلك ، أيتها الساحرة الطفلة ؟ »

فصاحت « بورل » بابتسامة خبيثة :

— « تقول السيدة « هيبنز » إن أبى هو أمير الهواء ، فإذا أنت دعوتنى بذلك الاسم الشرير فسوف أشكوك إليه فيرسل وراء سفينتك عاصفة تطاردها ! »

ثم اندفعت راكضة فى طريق ملتو عبر ساحة السوق حتى وصلت إلى أمها وأبلغتها ما قاله النوتى . فشعرت « هيستر » بنفسيتها القوية .. الهادئة . . الراسخة .. الصابرة تهوى فى النهاية وهى ترى وجه قدر محتوم أغبر فى اللحظة التى بدأ فيها طريق مفتــوح أمامها وأمام القس ليخرجا من محنة شقائهما — قدر اعترضهما فى منتصف الطريق بابتسامة لا تلين ولا ترق . وبينما عقلها منزعج ترهقه الحيرة المروعة التى ألقته فيها رسالة ربان السفينة ، مرت « هيستر » بتجربة أخرى قاسية . فقد كان هناك أناس كثيرون أقبلوا من البلاد المجاورة سمعوا طويلا فى شأن الشارة

القرمزية مئات الإشاعات الحزينـــة المبالغ فيها ، لـكنهم لم يروها قط بأعينهم ، فلما ضاق هؤلاء بوسائل التسلية الأخرى ، التفوا حول « هيستر براين » بفضول فظ خشن . وبرغم استباحة الشارة القرمزية ، لم تستطع جذبهم إلى أقرب من عدة أقدام حيث تحلقوا ووقفوا متسمرين يحملقون فى الرمز المبهم الذى يوحى بالتقزز والنفور . فلما لاحظ النوتيون تجمهر المتفرجين واطلعوا على معنى الشارة القرمزية ، تقدموا هم أيضاً ودفعوا بوجوههم السمراء الرعناء بين الحلقة . حتى الهنود الحمر الذين أثار فضولهم اهتمام الرجال البيض ، تسللوا بين الحشد وثبتوا عيونهم السوداء الثعبانية على صدر « هيستر » وقد ظنوا ، لاريب ، أن حاملة تلك الشارة المطرزة البراقة هى إحدى شخصيات طبقة رفيعة بين قومها . وأخيراً أقبل أهل البلدة أنفسهم (الذين انتعش اهتمامهم بالشارة القرمزية تجاوباً مع اهتمام بقية الناس بعد أن كان قد فتر) — تلـكأوا باسترخاء وكسل فى المـكان عينه وعذبوا « هيستر براين » — أكثر من غيرهم فيما يظن — بنظراتهم الهادئة التى تعرفها جيداً يرمقون بها عارها المألوف . فرأت « هيستر » وجوه عصبة النساء عينها التى انتظرتها لتشهد خزيها وهى خارجة من السجن منذ سبع سنوات — نفس الوجوه كلها إلا وجه أصغرهن سناً وأرحمهن بها تلك التى حاكت لها « هيستر » كفنها بيديها منـذ ذلك الوقت : لقد صارت الشارة القرمزية فجأة وفى اللحظة التى كانت فيها على وشك الزوال .: صارت محور اهتمام وانتباه ممض يكوى صدرها بألم بالغ أكثر منها فى أى وقت مضى منذ ارتدتها .

وبينما كانت « هيستر » تقف وسط دائرة خزيها السحرية حيث ألقى بها الحكم الخبيث إلى الأبد ، كان القس الشهير ينظر من فوق منبره المقدس إلى جمهور مستمعيه الذين وهبوا أرواحهم لسلطانه. القس القديس واقف فى الكنيسة ! وامرأة الشارة القرمزية واقفة فى ساحة السوق ! أى خيال عربيد عديم الخشوع والتبجيل هناك ، حتى يحدس أن الوصمة الكاوية كانت على صدر كل منهما !

الفصل الثالث والعشرون

الكشف عن الشارة القرمزية

أما الصوت البليغ الذى حمل أرواح مستمعيه إلى أجواء عالية كأنها فوق أمواج البحر الهائلة ، فلم يلبث أن توقف . وساد سكون عميق مؤقت كالذى يعقب إلقاء الخطب ، تبعته غمغمة وجلبة متخافتة كأنما المستمعون وقد تخلصوا من ربقة السحر الذى حملهم إلى ساحة عقل آخر عادوا إلى أنفسهم تثقلهم رهبة بعد ودهشة . ولم تمض دقيقة أخرى حتى راح الجمع يتدفق خارج أبواب الكنيسة . فقد شعروا وقد انتهى الخطاب أنهم فى حاجة إلى هواء آخر يستنشقونه أكثر ملاءمة للحياة الواقعية الشاقة التى عادوا إليها من تلك الأجواء التى أحالها الواعظ كلمات من لهب وأثقلها بعطر أفكاره الدسمة . وفى الهواء الطلق ، تفجرت نشوتهم حديثاً . وهدر الشارع وساحة السوق من جانب بتصفيق حاد للقس . فلم يسترح مستمعوه حتى تبادلوا رواية ما سمعه كل منهم وفهمه خيراً من زميله . وشهدوا جميعاً أن رجلاً لم يتحدث قط من قبل بروح حكيمة رفيعة طاهرة كروح ذلك الرجل الذى تحدث إليهم اليوم ! كما لم يخرج الوحى من شفتى مخلوق فى وضوح كما خرج من بين شفتيه ! وكان تأثير الوحى جلياً وهو هابط عليه ، يتملكه ويرفعه على الدوام بعيداً عن الخطاب المكتوب والموضوع أمامه

ويملؤه بأفكار أخرى رائعة لا بد أنها أعجبت مستمعيه . كان موضوع حديثه فيما يبدو العلاقة بين الخالق وعبيده ، بإشارة خاصة إلى « انجلترا الجديدة » التى كانوا ينشئونها هنا فى البرية ، وفيما هو يقترب من نهاية خطابه ، تملكته روح تنبؤية صعدته إلى هدفها بقوة هائلة كما كان يحدث لأنبياء إسرائيل ، بفارق واحد وهو أنه على حين كان أنبياء اليهود ينذرون بلادهم بالدمار والويل والثبور ، تنبأ هو بمستقبل رائع رفيع لأولئك الذين تجمعوا هنا باسم الله . ولكن سادت الخطاب كله نبرة شجن حزينة عميقة فسرت على أنها ندم طبيعى لرجل سيقضى قريباً . أجل ، فقس كنيستهم المحبوب الذى يبادلهم كلهم حباً عظيماً حتى لا يسعه الصعود إلى السماء دون تنهدة قد تنبأ بموته السابق لأوانه وسوف يتركهم سريعاً لدموعهم ! وكانت فكرة حياته العابرة على هذه الأرض هى التى أضفت قوة على التأثير الأخير الذى أوحى به القس ! — تأثير غريب ، كأنما هناك ملك طائر نحو السماوات فهز جناحيه فوق رءوس الناس لحظة رائمة قاتمة فى آن واحد ، ليتساقط عليهم سيل من الحقائق الذهبية !

وهكذا مرت بالسيد الجليل « ديمسدال » — كما يحدث لمعظم الرجال فى دوائر حياتهم المختلفة وإن لم يفطنوا إليها إلا بعد أن يخلفوها وراء ظهورهم — مرت به فترة من حياته زاهية متألقة تفيض بالانتصار أكثر من أى فترة أخرى سابقة أو لاحقة . فوقف تلك اللحظة على قمة الفخار والمجد التى رفعته إليها مواهبه الذهنية .. وعلمه الغزير .. وبلاغته .. وسمعته

الناصعة — مزايا كانت تزيد من رفعة قس من قساوسة «انجلترا الجديدة» فى أيامها الأولى عند ما كانت المهنة نفسها منصة رفيعة . كان ذلك هو المركز الذى يشغله ، وهو يحنى رأسه فوق وسائد المنبر فى ختام خطابه الانتخابى على حين وقفت « هيستر براين » بجوار منصة العقاب فى ساحة السوق والشارة القرمزية تحرق صدرها !

وتعالت الآن ، مرة ثانية ، صلصلة الموسيقى وضجيجها .. ثم وقع الخطوات المنتظمة والفرقة العسكرية تخرج من الكنيسة وقد تقرر أن يعود الموكب بكامل هيئته إلى قاعة احتفالات البلدة حيث تقام وليمة يختتم بها حفل اليوم .

فمرة ثانية سار القساوسة بوقارهم فى صف عريض بين الناس الذين تقهقروا باحترام على كلا الجانبين وأفسحوا طريقاً للحاكم ... والقضاة ... والكبراء ... والحكماء ... وللقساوسة المطهرين . ولحق بهم كل شخص بارز ذى مكانة ، وانضم إلى صفوفهم . فلما وصلوا إلى ساحة السوق حيتهم صيحة عالية . كانت صيحة إعجاب تعبر عن الحماسة التى أشعلتها بلاغة القس فى قلوب المستمعين — صيحة استمدت قوة من الولاء الساذج الذى كان يدين به الناس لحكامهم فى ذلك العهد . شعر كل شخص بالدافع عينه ، والتقط الصيحة من جاره . فدوت الكنيسة بها ، أما فى الخلاء فارتفعت إلى أجواز السماء . كان هناك جمع حاشد من الناس — ناس شعورهم متوافق .. متلائم ، فاقوا بصيحة إعجابهم نغمات الأرغن المدوية . .

أو صوت الرعد .. أو هدير البحر . اتحدت صيحاتهم كلها ذات الدافع العام وامتزجت فى صوت واحد ، تماماً كما تتحد قلوب كثيرة وتنبض معاً كأنها قلب واحـد . لم يحدث قط أن صمدت صيحة كهذه من أرض « انجلترا الجديدة » ! ولم يحدث قط من قبل أن وقف رجل على أرض « انجلترا الجديدة » وقد كاله قومه بذلك الشرف كله !

فـكيف كانت حالته حينئذ ، ألم تتشكل فى الهواء هالة من نور حول رأسه ؟ ألا مست خطواته تراب أرضنا هذه حقاً وهو يفيض بالروحانية الشفافة ، كما كان حينئذ وقد مجده قومه — بل ألهّـوه ؟

وتركزت العيون كلها على القس وهو يتقدم بين صفوف العسكريين والقساوسة . فماتت الصيحة وأضحت غمغمة وهمساً عندما وقعت أعين الحشد عليه . شد ما بدا شاحباً ضعيفاً بين آيات انتصاره وفوزه ! بدا وكأنما النشاط ، أو بقول أصح الوحى الذى أمدته به السماء والذى أضفى عليه قوة حتى يلقى رسالته المقدسة ، سحب منه ثانية بعد أن أدى مهمته بأمانة. فانطفأ التوهج الذى رأوه منذ برهة يحترق على خده ، كلهب خائر هوى بين الرماد . لم يبد هذا وجه رجل على قيد الحياة ، ذلك الوجه الذى تملوه صفرة الموت . لم يبد رجلاً تنبض فيه حياة ، ذلك الرجل الذى يتخبط فى سيره بلا قوى ، ومع ذلك يتخبط ... ويسير ... ويتخبط...ولا يهوى على الأرض !

فلما لاحظ أحـــد إخوانه القساوسة — السيد الجليل « جون

ويلسون » — حالة « ديمسدال » التى تركته عليها موجة الحساسية والذهن المتوقد ، أسرع إليه وعرض عليه معونته . ولـكن القس رفض بإصرار وهو يرتجف الذراع المبسوطة ذراع الرجل الهرم . وظل يسير ويتقدم — إذا سميناحركته هذه سيراً ؛ تلك الحركة التى تشبه محاولة طفل متذبذبة وهو يسير تحضه ذراعا أمه المبسوطتان أمامه — واقتربت خطاه الآن وهو يكاد لا يشعر بها من منصة العـار التى سودتها الرياح ، حيث وقفت عليها منذ زمن طويل مرير « هيستر براين » لتواجه نظرة العالم المهينة . فلمح هناك « هيستر » تقف إلى جوارها وقد أمسكت « بورل » من يدها ! وهناك .. على صدرها . . لمح الشارة القرمزية تتوهج ! فتوقف القس ، مع أن الموسيقى كانت ماتزال تدوى بنغمات مرحة حماسية سار عليها المركب . كانت تدعوه ليتقدم معها إلى الأمام . . إلى الحفل المظيم ، لـكنه توقف .

كانت عين « بيلينجهام » القلقة لم تفارقه تلك اللحظات الأخيرة . فترك الآن مكانه فى الموكب وتقدم منه يعرض عليه معونته ، وقد ظن من هيئة « ديمسدال » أنه لابد هاو على الأرض . ولـكن تعبيراً غامضاً على وجه القس حمل الحاكم على التراجع مع أنه رجل لا يؤمن كثيراً بالإيحاء الوهمى بين الأرواح ولا يعمل به . أما الجمهور فراح يرقب الأمور برهبة ودهشة . كان شحوب القس ، فى نظرهم ، دليلا آخر على قوته الروحية . ولو أنه صعد حينئذ إلى السماء وهو يتزايل ويزداد بهاء حتى يذوب أخيراً فى نور السماء ، لما اعتبروا ذلك معجزة خارقة لرجل طاهر ورع كالقس .

استدار القس نحو القصلة وبسط ذراعيه أمامه وهو يقول :

— « أي « هيستر » . . تعالى هنا ! تعالى ياصغيرتى « بورل » ! »

كانت نظرة مفزعة تلك التي رمقها بها ، لكنها مع ذلك في الوقت عينه ، كانت نظرة فيها رقة وانتصار غريب . فطارت الطفلة إليه كالعصفورة وأحاطت ركبتيه بذراعيها . كما أن « هيستر براين » تقدمت منه كأنما تسير على خلاف رغبتها .. أو كأنما يدفعها قدر لا يقاوم . لكنها قبل أن تصل إليه ، توقفت . وفي هذه اللحظة دفع « روجر شيلينجورث » الهرم نفسه بين الحشد — أو لعل العالم السفلي انشق عنه بقبح نظرته هذه الشريرة القلقة — ليختطف فريسته ويمنعها من أن تصنع ما هي مقدمة عليه ! وسواء كان هذا هو السبب الحقيقي أم لم يكن فإن الرجل الهرم اندفع إلى الأمام وأمسك القس من ذراعه يهمس له :

— « قف . . أيها الرجل المجنون ! ما غرضك ؟ اطرد هذه المرأة . . وألق بهذه الطفلة بعيداً ! سوف تتحسن الأمور ! لا تلوث صيتك وسمعتك وتهلك في العار ! في وسعي أن أنقذك بعد ! أتجلب العار على مهنتك المقدسة ؟ »

فأجابه القس وهو يواجه عينيه بخوف ولكن بحزم :

— « أيها الوسواس الخناس : لقد جئت متأخراً : إن سلطتك على لم تعد كما هي : فبمعونة الله سوف أهرب منك الآن !

ومرة ثانية ، بسط يده إلى امرأة الشارة القرمزية . وصاح بلهفة حادة عالية :

— « أى هيستر براين » باسم الرحيم الجبار الذى تكرم على بنعمته الآن . . . فى هذه اللحظة الأخيرة . . . لأفعل ما أمسكت عن فعله منذ سبع سنوات ، لعذابى البائس وإثمى المرهق الثقيل، تعالى إلى الآن وأحيطينى بقوتك . . . قوتك يا « هيستر » ! ولكن دعى الله يقودك بنوره وإرادته التى وهبنى إياها ! هذا الرجل الهرم البائس الذى أسأنا إليه يعارضنى بكل قواه الآن . . بكل قواه وقوى الشيطان : تعالى يا « هيستر » تعالى ! ساعدينى على الصعود فوق هذه المنصة . .

هاج الحشد وماج . وصعق الكبراء ذوو المكانة الذين كانوا يحيطون بالقس . ودهشوا دهشة بالغة محيرة فلاهم أدركوا معنى ما يجرى أمام أعينهم، ولاهم استطاعوا أن يتقبلوا التفسير والتوضيح الذى يعرض عليهم . . فلبثوا بلا صوت وبلا حركة يتفرجون بالمحاكمة التى يجريها القدر . فشاهدوا القس يستند إلى كتف « هيستر » ، وهى تحيط خصره بذراعها ، ويقترب من المنصة ثم يصعد درجاتها على حين كانت أصابعه تقبض بعد على يد طفلة العار . وتبعهم روجر شيلينجورث الهرم ، بوصفه شخصاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمأساة الإثم والأسى التى قاموا جميعهم بأدوارهم والتى أشرفت الآن على النهاية .

وقال للقس وهو يرمقه بحقد :

— « لو أنك بحثت فى الدنيا كلها لما وجدت مخبأ سرياً . . . ولا مكاناً عالياً . . . ولا آخر منخفضاً خافياً تستطيع أن تهرب فيه منى — غير تلك المقصلة :

فأجاب القس :

— « حمداً لله الذى قادنى إليها ؟ »

ومع ذلك ارتجف واستدار إلى « هيستر » بنظرة شك وقلق فى عينيه حاول أن يواريها بابتسامة شاحبة على شفتيه . وغمغم :

« أليس هذا خيراً مما حلمنا به فى الغابة ؟ »

فأجابته بسرعة :

— لست أدرى . . . لست أدرى : خير ؟ أجل . .. حتى نموت كلانا .. ونموت « بورل » معنا : »

فقال القس :

— « دعى الله يتصرف فى أمرك وأمر « بورل » .. الله رحيم .. دعينى الآن أنفذ إرادته التى أوضحها لعينى : اعلمى يا « هيستر » أنى رجل ميت ؟ فدعينى أحمل على كاهلى بسرعة نصيبى من العار ؟

واستدار القس الجليل « ديمسدال » وهو يستند إلى « هيستر براين » ويقبض على يد « بورل » الصغيرة ، استدار إلى الحكام ذوى الوقار .. وإلى إخوانه القساوسة .. وإلى الشعب الذى صعق قلبه الكبير .. ومع ذلك فاض بعطف باك وقد تكشفت له زاوية عميقة من الحياة ، إن كانت آثمة فهى ملأى بالعذاب والندم . وألقت الشمس بنورها على القس . فظهر بقامته النحيلة عالياً فوق الأرض ليعترف بإثمه أمام القضاء الإلهى . وصاح بصوت ارتفع فوق رءوسهم عالياً .. رائماً .. مهيباً ، ولكن تشوبه رعشة وأحياناً صرخة تتصارع خارجة من أعماق ندم سحيقة !

— ياأهل « انجلترا الجديدة » ! يا من أحببتمونى . . يامن ظننتمونى طاهراً قديساً ! انظروا إلىّ هنا . . . الإثم الأول فى هذا العالم : أخيراً . أخيراً أقف على المكان الذى كان يجب أن أقف عليه منذ سبع سنوات أقف عليه منـــذ سبع سنوات : أقف هنا . . . مع هذه المرأة التى تسندنى بذراعها والتى تمدنى بقوة ، فى هذه اللحظة الرهيبة ، لأزحف إلى هنا ولتمنعنى من التعثر والسقوط أمامكم على الأرض : ويلى من الشارة القرمزية التى تضعها « هيستر » على صدرها ! لقد نفرتم منها جميعاً ؟ فأينما سارت بحملها التعيس . . . أينما أملت أن تجد راحة ما . . . كانت الشارة تلقى حولها دائماً بضوء قاتم من الرهبة والنفور ، على حين وقف بينكم شخصى لم تنفروا من شارة عاره وإثمه ! »

وبدا الأمر كأنما يحتم على القس أن يدع بقية السر فى طى الكتمان . لكنه قاوم ضعف جسده ، وأكثر من ذلك ، ضعف قلبه ووهنه الذى كان يحاول أن يتغلب عليه . فطرح عنه كل عون وتقدم خطوة فى انفعال أمام المرأة والطفلة . واستطرد بشراسة وقد قرر بإصرار إفشاء السر كله :

— « كان موسوماً بالشارة !رأتها عين الله وحده ! كان الملائكة يشيرون إليها دواماً ! وعلم الشيطان بها وألهب لسعتها دائماً بطرف إصبعه الحارق ! لكنه أخفاها بخبث عن أعين الناس ، وسار بينكم متخذاً هيئة روح طاهرة تتعذب لأنها خلقت فى دنيا آثمة ! روح حزينة لأنها فارقت رفاقها فى الجنـة ! والآن . . وهو على شفا الموت . . ها هو ذا يقف

أمامكم ! وهو يرجو منكم أن تتأملوا مرة ثانية شارة « هيستر » القرمزية ! وهو يقول لكم إنها برغم النفور الذى تثيره فى النفوس ما هى إلا ظل لما يضمه هو على صدره — وحتى هذه التى يضمها على صدره . . شارته الحمراء الخاصة . . ما هى إلا مثال لما حرق أعماق قلبه ! أيوجد بينكم من يشك فى عقاب الله الذى ينزله بالآثمين ؟ انظروا ! انظروا إلى هذا الدليل الرهيب المفزع ! »

وبحركة متقلصة ، نزع عن صدره شريط الكهنوتية . لقد ظهرت الشارة وإنه لأمر شائن أن نصفها . وقد ظلت الجموع المصعوقة تحملق برعب فى المعجزة الرهيبة ، على حين وقف القس يغشى وجهه تورد الانتصار بوصفه شخصاً فى ذروة آلامه دانت له الغلبة . ثم هوى فجأة فوق المنصة ! فرفعته « هيستر » شيئاً وأراحت رأسه على صدرها . وركع « روجر شيلينجورث » الهرم إلى جواره بسحنة خاملة جامدة كأنما فارقتها الحياة وراح يكرر مرة بعد مرة :

— لقد هربت منى . هربت منى .

فقال القس :

— ليغفر الله لك فأنت أيضاً آثم .

وحول عينيه عن الرجل الهرم وسلطهما على المرأة والطفلة . وقال فى وهن بابتسامة على وجهه حلوة رقيقة كابتسامة روح تسقط فى نوم عميق !

— بل لا ، فالآن ، وقد انزاح عن صدره الحمل ، شعر برغبة فى مداعبة الطفلة :

— « أى صغيرتى « بورل » . . . عزيزتى الصغيرة بورل . . أتهبيننى قبلة الآن ؟ لقد رفضت هناك . . فى الغابة ، ولكن الآن ، أتقبليننى ؟ »

فقبلت « بورل » شفتيه ، وكأنما انحل سحر ! فإن المشهد الآسى الذى لعبت فيه الطفلة دوراً ؛ أثار عطفها كله .. ومشاعرها كلها . فسطرت دموعها على خد أبيها وعداً منها أن تنشأ بين سعادة الإنسانية وآلامها امرأة لها مكان فيها لا تقاتل العالم وتحاربه إلى الأبد ! كما أن بورل أدت مهمة رسول العذاب لأمها .

وقال القس :

« الوداع . . يا هيستر »

فهمست له وهى تنحنى وتقرب وجهها من وجهه :

— « ألا نلتقى ثانية ؟ ألا نمضى حياة الخلد معاً ؟ فنحن دون شك قد افتدى أحدنا الآخر بكل ذلك العذاب والأسى ؟ إنك تنظر الآن إلى العالم الآخر بعينيك هاتين البراقتين اللتين هما على شفا الموت ؟ قل لى .. ماذا ترى !

فقال بوقار وهو يرتجف .

— صه .. يا « هيستر » صه ؟ القانون الذى خرقناه .. والإثم الذى كشف سره هنا بفظاعة . ليكن هذا ما يدور بفكرك وحسب : إننى خائف لعلنا عندما نسينا الله .. عندما انتهكنا حرمة أرواحنا أضعنا الأمل إلى الآبد فى لقاء خالد . الله مطلع عليم ، وهو رءوف

رحيم ، لقد أثبت رحمته أكثر مما أثبتها بآلامى وأشجانى باعطائى ذلك العذاب الحارق لأحمله على صدرى ، بإرسال ذلك الرجل الهرم الأسود الرهيب إلى ليظل العذاب على صدرى ملتهباً كاوياً .. دائما ، بإرسالى أنا إلى هنا لأموت ميتة العار المنتصرة الظافرة تلك أمام الناس جميعاً : فلو أن أحد هذه الآلام غاب عنى لضمت أنا إلى الأبد : الحمدلله والشكر ؛ سبحانه هو الفعال لما يريد ؟ الوداع !

وخرجت هذه الكلمة الأخيرة مع آخر أنفاسه . فإذا الحشد الذى الذى ظل ساكناً طوال هذه الفترة يصيح بصوت واحد عميق تملؤه رهبة ودهشة، لابكلمات مفهومة بل بغمغمة هادرة صعدت خلف الروح الراحلة !

الفصل الرابع والعشرون

ختـــام

بعد مضى أيام كثيرة ، لملم الناس خلالها شتات أفكارهم المضطربة راحوا يتناولون روايات جمة عما شاهدوه فوق منصة العقاب .

شهد معظمهم أنهم رأوا على صدر القس البائس شارة قرمزية شبيهة بتلك التى ترتديها « هيستر براين » إلاّ أن لحمه مرسوم بهـا . أما كيف وجدت هناك فقد تضاربت فى ذلك الظنون والآراء . أكد بعضهم أن القس الجليل « ديمسدال » منذ اليوم الأول الذى ارتدت فيه « هيستر براين » شارة عارها بدأ يعذب نفسه بأساليب مختلفة وينزل بها عقاباً شديداً قاسياً . وأكد آخرون أن الوشم لم يظهر على صدر القس إلا بعد مضى زمن طويل عندما تعرف إلى الهرم « روجر شيلينجورث » الساحر القهار الذى أحدث بعقاقيره وسحره ذلك الوشم . أما أولئك الذين كانوا يقـدرون حساسية القس المتناهية حق قدرها ويعجبون بالسلطة التى تتمتع بها روحه على بدنه ، فقد تهامسوا باعتقادهم الذى يؤكد أن ذلك الرمز الفظيع نتج عن أسنان الندم الحادة التى راحت تعيث فى أعماق قلبه حتى الخـارج وكشفت أخيراً عن عقاب السماء الرهيب بتلك الشارة الظاهرة — وللقارىء أن يختار إحدى هذه النظريات . فنحن سلطنا كل الضوء الذى لدينا على الشارة المشئومة ،

ويسعدنا الآن وقد أدت مهمتها أن نمحو أثرها العميق عن عقولنا حيث ثبتها التأمل الطويل بوضوح غير مرغوب فيه .

ومن الغريب حقاً أن بعض الناس الذين أقسموا أنهم لم يرفعوا أعينهم لحظة عن السيد الجليل « ديمسدال » أنكروا وجود أى شارة على صدره. كما أنكروا أن كلماته وهو فى النزع الأخير تحوى اعترافاً من قريب أو بعيد بأن له أى علاقة بالإثم الذى ارتدت من أجله « هيستر براين » الشارة القرمزية . وبشهادة هؤلاء القوم المحترمين ، فإن القس — وقد شعر بنهايته وبأن تقدير الجماهير له رفعه من فوره إلى مرتبة الملائكة والقديسين — أراد أن يعبر للعالم عن تفاهة خير فضائل الناس بالموت بين ذراعى تلك المرأة الخاطئة : فبعد أن أرهق حياته بالجهد من أجل خير الإنسانية الروحى، جعل موته أسطورة تروى حتى يطبع فى أذهان المعجبين به الدرس الجبار الآسى ، ذلك أننا جميعاً ، أمام الطهر الخالص ، آثمون . أراد أن يعلمهم أن أكثرنا قدسية وورعاً ، لم يصل إلا لمرتبة أعلى من رءوس زملائه ، ففهم — بوضوح أكبر — الرحمة التى ترقبنا من العلا ، وأنكر تماماً شبح الفضيلة البشرية التى تتطلع بطموح إلى العلا . ودون أن نناقش تلك الحقيقة الخطيرة ، يجب أن يسمح لنا باعتبار هذه النسخة من قصة « ديمسدال » مثلا للوفاء العنيد الذى يتشبث فى أصدقاء رجل ميت ، وخاصة إذا كان قساً ، فيصرون على اعلاء قدره وخلقه على حين أن الدلائل الواضحة ، وضوح الشمس فوق الشارة القرمزية ، تصمه بأنه مخلوق من تراب زائف .. ملوث بالإثم .

وقد اعتمدنا فى روايتنا هذه على مخطوط قديم يحتوى شهادة شفوية أقربها أناس عرف بعضهم « هيستر براين » شخصياً ، على حين سمع البعض الآخر بقصتها ممن عاصروها . ويؤكد ذلك المخطوط وجهة نظرنا فيما يتعلق بالرواية . ومن بين الدروس الخلقية العديدة التى تعلمناها من التجربة البائسة التى مر بها القس المسكين ، اخترنا هذا الدرس فقط لنضعه فى جملة واحدة :

— « كن صادقاً ! كن صادقاً ! كن صادقاً ! أظهر للعالم بصراحة شر مافيك ، بل صفة ما ، يستطيع بوساطتها أن يحدس شر مافيك ! »

ولم يكن هناك أمر يدعو للدهشة أكثر من التغيير الذى طرأ على هيئة الرجل الهرم الذى عرف باسم « روجر شيلينجورث » وامتد إلى سلوكه فقد فارقته قواه كلها .. ونشاطه . وقدرته الذهنية والحيوية . فجف وذبل ، بل إنه اضمحل حتى كاد يتوارى عن الأنظار ، كأنه نبت طفيلى اجتث من جذره فارتمى ينحل فى الشمس . فقد جعل هذا الرجل التعيس مبدأ حياته انتقاماً متصلاً منظماً . فحين يحرز النصر المبين ولا يتبقى ما ينتقم منه بعد ، باختصار ، عندما لا يجد ذلك المبدأ الخبيث عملا شيطانيا يقوم به على الأرض ، لا يجد صاحبه الذى تخلى عن آدميته مفراً من الذهاب إلى حيث يجد له سيده إبليس مهام جمة ويدفع له عنها أجراً . لكننا سنكون رحماء بكل هذه الشخصيات التى عاشر تناطويلا « روجر شيلينجورث » وزملائه . فمن الموضوعات الشائقة الجديرة بالبحث والملاحظة — احتمال

كون الحب والبغض متشابهين فى أساسهما . فكل من العاطفتين ، لكى يكتمل لها النمو — فى حاجة لمعرفة وثيقة بدخيلة القلب . وكل من العاطفتين تجعل أحد الشخصين المتحابين أو المتباغضين معولاً على الآخر ليمده بغذاء لعواطفه وحياته الروحية . وكل من العاطفتين تدع المحب الواله ، أو المبغض المتحمس حزيناً مكتئباً لفراق موضوع حبه ، أو بغضه . فتعتبر العاطفتان من الوجهة الفلسفية متشابهتين بفارق واحد هو أن إحداهما لها بريق زاه متوهج ، والأخرى لها سعير قاتم مكفهر . ففى عالم الروح ربما وجد الطبيب والقس ، وهما ضحيتان متبادلتان ، أن كل ما اختزناه فى قلبيهما من بغض وكراهية قد استحال حباً ذهبياً !

لندع الآن تلك المناقشة جانباً فلدينا مسألة هامة نقص أنباءها على القارىء . فبعد موت « روجر شيلينجورث » الهرم (مات خلال العام عينه) وجد فى وصيته ، التى كان شاهداها اللذان قاما بتنفيذها الحاكم بيلنجهام والقس الجليل « ويلسون » ، أنه ترك جانباً عظيماً من أملاكه هنا وفى انجلترا للصغيرة « بورل » ابنة « هيستر براين » .

وعلى ذلك فإن « بورل » الطفلة الجنية سليلة الشيطان، كما أصر بعض الناس على تسميتها حتى تلك الفترة ، صارت أغنى وارثة فى زمنها فى « انجلترا الجديدة » كلها . وبالطبع تغير تقدير الناس لها ، ولو أن الأم وابنتها لبثتا هنا لكانت « بورل » عندما تبلغ سن الزواج ، تمزج دماءها الوحشية بدماء سليل بيت من أشد بيوت « البيوريتانز » تزمتاً وورعاً .

ولـكن لم يمض طويل وقت على وفاة الطبيب حتى اختفت حاملة الشارة القرمزية ومعها « بورل » . ومع أن أنباء متناثرة عنهما ظلت سنوات عدة تصل إلى « انجلترا الجديدة » عبر المحيط ، كقطع من خشب بلا شكل ألقت بها المياه إلى الشاطىء وعليها الحروف الأولى من اسم ما ، فإن هذه الأنباء كانت غير موثوق بها . فأضحت قصة الشارة القرمزية أسطورة وإن ظل سحرها فعالاً . وقد ألقت ظلا قاتماً رهيباً على منصة العقاب حيث مات القس التميس .. وعلى الـكوخ المنعزل على شاطىء البحر حيث أقامت « هيستر براين » .

وكان بعض الأطفال يلهون عصر ذات يوم قرب تلك المنطقة ، عندما رأوا امرأة فارعة الطول فى ثوب رمادى تقترب من الـكوخ . ولم يكن قد فتح قط خلال تلك السنوات كلها . ولـكن سواء فتحته بمفتاح ... أو أن الخشب المتآكل والحديد الصدىء تهاوى بين يديها . . . أو أنها انسلت كالشبح خلال هذين المنصرين ، فالذى حدث أنها دخلت الـكوخ .

وعلى العتبة ، توقفت تتلفت حولها . ربما شعرت بانقباض لدخولها وحدها وبعد أن تغير كل شىء هـكذا . . . فى دار حياة ماضية قاسية . ولـكن ترددها لم يزد عن لحظة وإن كانت كافية لتظهر شارة قرمزية على صدرها .

إذن .. لقد عادت « هيستر براين » واستردت عارها الذى هجرته طويلا ! ولـكن .. أين بورل الصغيرة ؟ إذا كانت لاتزال على قيد الحياة؟

فلا بد أنها فى عنفوان شبابها الآن . لم يعرف أحد قط ولا تأكد له تماماً أن الطفلة الجنية قد دفنت عذراء قبل الأوان ، أو أن الأيام قد رققت من طبيعتها المتوحشة وهذبت منها شيئاً حتى تهيىء لها سعادة أنثوية رقيقة . ولكن ، خلال حياة « هيستر » الباقية ؛ ظهرت دلائل على أن الناسكة حاملة الشارة القرمزية محور حب واهتمام عند بعض الناس فى بلاد أخرى ؛ فكانت تصل إليها رسائل تحمل أختاماً غريبة لاتمت لأنساب الأسر الإنجليزية بصلة، وتناثرت حولها فى الكوخ أدوات ثمينة لم تكن « هيستر » تهتم بحيازتها من قبل . ولم يكن فى الوسع أن يشتريها إلا ثراء واسع أو يفكر فى شرائها سوى حب مكين . كما كانت هناك أيضاً أشياء تافهة : حلى .. وأدوات زينة .. وزخارف تذكارية ، لابد أن تكون التى اشترتها أنامل رقيقة وبدافع قلبى حار . وشوهدت « هيستر » ذات يوم تطرز ثوب مولود بخيال وفن ، وتهيل عليه خيوطاً ذهبية بسخاء — ثوبا كان يثير زوبعة لو أنه ألبس لأى وليد فى هذا المجتمع المتزمت الصارم .

خلاصة القول ، كانت الإشاعات التى تطايرت تلك الأيام تميل إلى الاعتقاد — كما اعتقد السيد المفتش « بيو » الذى قام بتحرياته بعد قرن من الزمن ، وكما اعتقد أحد الذين خلفوه فى وظيفته — أن « بورل » لم تكن على قيد الحياة وحسب ، بل إنها كانت متزوجة وسعيدة ومهتمة بشئون أمها .. وأنها كانت تود لو رحبت بأمها العزيزة إلى جوار مدفأة بيتها .

ولكن الحياة هنا ، فى « انجلترا الجديدة » ، كانت تحمل لـ « هيستر براين » معنى أعمق من تلك المنطقة المجهولة حيث وجدت « بورل » زوجاً وبيتاً . فهنا كان إثمها ... وهنا كان حزنها .. وهنا كان من بعد ؛ عذابها وتوبتها ، لهذا عادت واستأنفت حياتها — بخالص رغبتها فلم يكن أشد الحكام صرامة ليفرضها عليها ثانية — استأنفت ارتداء الشارة القرمزية التى روينا عنها تلك القصة السوداء . ولم تفارق صدرها بعد ذلك قط . ولكن على مدى السنين المرهقة الرزينة التى وهبتها « هيستر » للخدمة العامة والتى تألفت منها سنوات حياتها ، لم تعد الشارة تثير نفور العالم واحتقاره ، بل عطفه وتألمه ، وصار ينظر إليها برهبة ولكن باحترام وتوقير أيضاً . ولما لم تكن لـ « هيستر براين » أغراض خاصة ولا هى عاشت من أجل مصلحتها الخاصة أو سعادتها ، فقد جاء الناس إليها بمشكلاتهم وأحزانهم وطلبوا نصيحتها بوصفها امرأة مرت بمشكلة ضخمة . وجاءت إليها النساء بوجه خاص ، محملات بتجارب الحياة التى لا تنقطع والتى تتعلق بالشهوة الخاطئة .. الضائعة .. المعذبة .. الجريحة .. الآثمة ، أو بالعبء الممض الذى يثقل قلباً غير مرغوب فيه لأن أحداً لم يعرف قدره . جئن كاهن إلى كوخ « هيستر » يتساءلن لماذا هن بائسات هكذا معذبات ؟ ويطلبن دواء .. فكانت « هيستر » تعزيهن وتنصح لهن وسعها ، كما أكدت لهن أيضاً عن عقيدة راسخة أن ثمة يوماً بهيجاً تختاره السماء . عندما يكون العالم قد نضج واستعد للقياه ، يوماً آتيا يكشف فيه عن حقيقة جديدة لتشييد على

ضوئها العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس متين من سعادة متبادلة .
وكانت « هيستر » فى مطلع حياتها تظن سدًى أنها قد تكون تلك النبية المرسلة لكنها فطنت منذ زمن بعيد إلى أنه يستحيل على امرأة ملوثة بالإثم يثقل كاهلها العار أو على الأقل يثقله حزن طويل ، أن تؤتمن على رسالة سماوية تحل سر الحقيقة الكبرى ! ولو كان ملك النبوة المقبل أو رسولها امرأة ، لوجب أن تكون امرأة فاضلة . . سامية . . طاهرة . . جميلة ، بل ذات حكمة أيضاً ، لا عن حزن وشجن بل عن بهجة روحية تعلمنا كيف أن الحب الطاهر يجعلنا سعداء بعد أصدق امتحان ... ألا وهو حياة سعيدة إلى النهاية !

كانت « هيستر براين » تقول ذلك ثم ترمق الشارة القرمزية بعينيها الحزينتين . وبعد سنوات عديدة ، حفر قبر جديد إلى جوار ذلك القبر القديم المتهالك الموجود فى « مدافن كنيسة الملك » . . حفر القبر الجديد إلى جوار القبر القديم تفصلهما فسحة من الأرض كأنما لا حقّ لتراب الجسدين أن يختلط بعضه ببعض . . ومع ذلك ، فقد كان للقبرين شاهد واحد . والتفت حولها قبور أخرى كثيرة تحمل شواهد ذات شارات عسكرية . وكان فى وسع الباحث المستطلع أن يقرأ على لوح الشاهد المتواضع شعاراً محفوراً يحيره معناه . كان الشاهد يحمل صيحة نذير نستطيع أن نعتبرها حكمة أو وصفاً مختصراً لأسطورتنا التى انتهت الآن . كانت كلمات قاتمة لا تخفف كآبتها سوى نقطة واحدة من نور تتوهج أبداً — أشد كآبة من الظلال :

— « على سواد ... توهجت الشارة الحمراء ! »

هـــذا الكتاب

« .... للمؤلف فى قصته « الشارة القرمزية » خصائص تعاونت على أن تجعل من هذه القصة مثلا متفوقاً للعمل القصصى حين يتاح له عقل فيلسوف ، وروح أديب ، وقلم فنان .

فالقصة من جانب الفكرة والتحليل وليدة فلسفة متعمقة للحياة والأحياء ، فالمؤلف فى قصته يغوص فى أعماق النفس البشريـــة ويتدسس الى خفاياها ليستخلص ما يضطرب فيها من آمال وآلام ....

... وعظمة المؤلف تتجلى فيما وسعته نفسه من مختلف الخوالج والمشاعر نحو الفضيلة ، والرذيلة جميعاً ... نحو القسوة والحنان ، نحو الحب والشهوة ، نحو الطهر والاثم ، نحو الخير والشر . فقد استطاع هذا القلب البشرى الواحد أن يكون مسرحاً لكل ما يعتور القلوب البشرية من صفات تسمو المعلوج ، أو تهبط الى الحضيض .

ومثالية المؤلف تتجلى فى كشفه عن دخائل المرأة حين تحب ، فهى تبلغ فى ميدان التضحية مبلغاً لا ينـــاله الأمن صفت نفسه من كل شائبة ، وهى تخلص لحبها التعس أصدق الإخـــلاص ، وهى تستطيع لذلك أن تبذل تضحيتها من أجل حبيبها عن طيب خاطر

« من تقديم السيدة تماضر صدقى »

« كتاب لا بد أن يقرأ »

هــــذا الـكتاب

« .... للمؤلف فى قصته « الشارة القرمزية » خصائص تعاونت على أن تجعل من هذه القصة مثلا متفوقاً للعمل القصصى حين يتاح له عقل فيلسوف ، وروح أديب ، وقلم فنان .

فالقصة من جانب الفكرة والتحليل وليدة فلسفة متعمقة للحياة والأحياء، فالمؤلف فى قصته يغوص فى أعماق النفس البشريـــة ويتدسس الى خفاياها ليستخلص ما يضطرب فيها من آمال وآلام ....

... وعظمة المؤلف تتجلى فيما وسعته نفسه من مختلف الخوالج والمشاعر نحو الفضيلة ، والرذيلة جميعاً ... نحو القسوة والحنان ، نحو الحب والشهوة ، نحو الطهر والاثم ، نحو الخير والشر . فقد استطاع هذا القلب البشرى الواحد أن يكون مسرحاً لكل ما يعتور القلوب البشرية من صفات تسمو الى أوج ، أو تهبط الى الحضيض .

ومثالية المؤلف تتجلى فى كشفه عن دخائل المرأة حين تحب ، فهى تبلغ فى ميدان التضحية مبلغاً لا ينـــاله الا من صفت نفسه من كل شائبة ، وهى تخلص لحبها التعس أصدق الاخـــلاص ، وهى تستطيع لذلك أن تبذل تضحيتها من أجل حبيبها عن طيب خاطر ..... »

« من تصدير السيدة جاذبية صدقى »

« كتاب لا بد أن يقرأ »